اَلْمَنْهَجُ الْقَوِيمُ

في التأسي بالرسول الكريم

الجزء الأول

شكر وتقدير

أحمد الله حمدًا كثيرًا يليق بعظمته وجلاله، وأشكره عز و جل على سوابغ نعمه، وجزيل إفضاله، وأصلي وأسلم وأبارك على نبي الرحمة ورسول الهدى محمد وآله.

أما بعد: فأرى لزامًا عليَّ أن أدون شكري وتقديري لكل من أعانني على إخراج هذا الكتاب بأي وسيلة من وسائل العون، وأسأل الله لهم حسن الثواب، وأخص بالشكر شخصين كريمين وعالمين جليلين أحدهما صاحب السماحة الشيخ/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد؛ الذي اختار للنظر في محتويات هذا الكتاب عالِمًا جليلاً هو الشيخ/ إسماعيل بن محمد الأنصاري ذو الصدر الرحب والتوجيهات الهادفة اللطيفة فلقد بذل جهدًا عظيمًا في الاطلاع على أبواب الكتاب وكافة فصوله وأفادني بكثير من توجيهاته وتصويباته واقترح الإذن في طبعه ونشره والحمد لله الذي بفضله ونعمته تيسر الأمور وتتم الصالحات.

المؤلف

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي أكرمنا بنعم الدنيا والدين، وأعزنا وشرفنا بالفرقان المبين ورحمنا برسالة خاتم النبيين وخير المرسلين محمد بن عبد الله الصادق الأمين. اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وكافة أتباعه أجمعين.

أما بعد: فإنه لمن دواعي سروري واغتباطي أن يطلب مني أصحاب "دار المنهاج" الذين قرءوا كتابي "المنهج القويم" السماح لهم بإعادة طبعه مرة ثانية للاستفادة مما دون فيه من العلوم الشرعية المتعلقة ببيان كثير من الأحكام الجليلة عقيدة وعبادة ومعاملة ودعوة وخلقًا وأدبًا وترغيبًا وترهيبًا، وبِهذه المناسبة الطيبة أحب أن أقول كلمة موجزة تتعلق باسم الكتاب:

"المنهج القويم في التأسي بالرسول الكريم ج "

فأما المنهج القويم: فهو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه وهو الذي أمرنا الله باتباعه والثبات عليه حيث قال –عز من قائل–: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:153]. وقال عز و جل معلمًا وهاديًا: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [الفاتحة:6،7].

وأما التأسي بالرسول الكريم ج فمعناه: الاقتداء به في كل قول وفعل وعمل ظاهرًا وباطنًا وسرًّا وعلنًا بعد الفهم الحق المصحوب بالعمل الخالص الصحيح، امتثالاً لقول الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:21]. فهذه الآية الكريمة وإن كانت في شأن المتخلفين عن القتال مع رسول الله ج في غزوة الخندق إلا أنَّها عامة في الأمر بالتأسي به في كل باب من أبواب العلم والعمل سواء كان أمرًا أو نَهيًا عامة في الأمر بالتأسي به في كل باب من حدود الاستطاعة المقرونة بالمحبة والرضا والتسليم.

وإن هذا الكتاب الصغير الحجم قد اشتمل على كثير من مسائل العلوم الشرعية بأسلوب سهل، ومعان واضحة، ومواضيع متعددة، كما أسلفت قريبًا، وكل مواضيعه تدور حول محور واحد، هو التأسي بالنبي الكريم ج في منهجه القويم وشريعته البيضاء.

أسأل الله العظيم أن يجزل الثواب لمؤلفه وناشره وقارئه إنه جواد كريم.

المؤلف

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونؤمن به، ونرجوه، ونتوكل عليه، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة نطقت بِها ألسنتنا، واستيقنت معناها نفوسنا، وأحبتها واستنارت بِها عقولنا وقلوبنا، وتجاهد في سبيلها بمشيئة الله جوارحنا مدة بقائها في أرض الله، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، ونشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله الموحى إليه: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: من الآية 44].

اللهم صل وسلم وبارك عليه، وأوصل صلاتنا وتسليمنا إليه كلما نطق بِهما اللسان وتحركت بِهما الشفتان، واجعل ثوابَهما باقيًا وجاريًا إلى أن تقوم الخلائق من أجداثها سراعًا كأنَّهم إلى نصب يوفضون , اللهم إنك تعلم مدى حاجتنا إلى رعايتك وعنايتك، وتوفيقك وهدايتك فاملأ قلوبنا يا ربنا إسلامًا وإيْمانًا وإحسانًا، واشرح صدورنا ونور بصائرنا، وأصلح أعمالنا ونياتنا، وزك نفوسنا، وأسبغ علينا نعمك الظاهرة والباطنة، برًّا منك بنا وإحسانًا.

(3/1)

أما بعد: فإن المؤلفات في شتى الفنون قد كثرت وتنوعت، وبرز منها إلى حيز الوجود في هذا العصر الكثير الذي لا يستطاع لشخص حصره، ولكن رغم هذه الكثرة، فإن تقديْم بحوث ومؤلفات نافعة يقدمها طلاب العلم ويقومون بنشرها لتضم إلى المكتبة الإسلامية العامة فيظفروا بذخرها لدلالتهم على الخير فيها، لهو أمر عظيم، له وزنه وقيمته في هذه الحياة وبعد الممات، ولقناعتي بذلك فإنني لأقدم هذا البحث المتواضع إلى القراء الكرام , بل وإلى كل مسلم ومسلمة يمكن وصوله إليهم في هذا العصر الذي تجلت غربة الدين فيه، وكثرت الانحرافات وتَهددت وتنوعت وسائلها، وكثر مُرَوِّجوها، وأكبروها، وعملوا جادين في الدعايات لنشرها مستسهلين كل صعب، باذلين في سبيل ذلك كل غال ورخيص، ونفس ونفيس: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [البقرة:9].

حملهم على ذلك جهلهم بالحكمة التي لها وجدوا، ومن أجل تحقيقها خُلقوا وزين لهم عدوهم طرق الإغواء والغواية، ونعق بِهم صارخًا، فاستجابوا لندائه وانخدعوا بتضليله ومكره، فحرموا سبيل الحق والهداية :

{وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [النحل: من الآية 33].

(4/1)

وإن السبب الباعث لي على كتابة هذا البحث، هو أنني كنت مشاركًا في التوعية الإسلامية في الحج التابعة للرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، التي يرأسها مفتي العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر أعني الشيخ/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الأثري([1]) الذي أكرم الله به الأمة الإسلامية في هذا العصر، فجزاه الله عنها وعن إسلامنا خير الجزاء ورفع درجته عالية في الآخرة والأولى مع المنعم عليهم من النبيين والصديقين

والشهداء, وفي أحد الأعوام الماضية في الحج طلب مني مشاركة بمحاضرة في منى –قدسها الله وحرسها– فكتبت آنذاك محاضرة بعنوان "دعوتان وحزبان وطريقان" فألقيتها، وقوبلت بالاستحسان، ونُشرت في أعداد مجلة التوعية الإسلامية في الحج، ورغبةً مني في مواصلة البحث والتوسع فيه بحسب الجهد القليل المحدود والموزع هنا وهناك، فقد أضفت إلى تلك المحاضرة التي اعتبرتُها أول باب من أبواب هذا البحث ثلاثة أبواب وخاتمة، فصار مجموع البحث أربعة أبواب وخاتمة، وكل باب منها يشتمل على فصول:

-- الباب الأول: دعوتان، وحزبان، وطريقان.

ويشتمل على ستة فصول:

الفصل الأول: في وجوب دعوة الخلق إلى رحاب الحق.

الفصل الثاني: في بيان دعوة الشيطان إلى معصية الرحمن.

الفصل الثالث: في صفات حزب الله المفلحين، وخصائصهم، ومزاياهم.

الفصل الرابع: في صفات حزب الشيطان الخاسرين، وأهدافهم ووسائل إغراءاتِهم لبني الإنسان.

الفصل الخامس: في نعت طريق الجنة، وما وُصفت به، وما حُفَّت به من مكاره.

الفصل السادس: في ذم طريق النار وذكر أوصافها، وما حُفَّت به من شهوات.

-- الباب الثاني: موعظة وذكرى واعتبار.

ويشتمل على سبعة فصول:

الفصل الأول: خطر الموت وسكراته.

الفصل الثاني: فتنة الخلق في القبور وإثبات نعيم القبر وعذابه.

الفصل الثالث: مشهد خروج الموتى من قبورهم، وحشرهم في صعيد واحد.

الفصل الرابع: ذكر استشفاع الخلائق بالأنبياء والرسل إلى ربِّهم في فصل القضاء بينهم، وبيان اعتذارهم، حتى ينْزل الطلب بصاحب الشفاعة العظمى محمد –صلى الله عليهم أجمعين–، فيقول: (أنا له). فيشفع ويُشفَّع.

الفصل الخامس: مشهد محاسبة الله لخلقه.

الفصل السادس: مشهد المرور على الصراط، وما فيه من عظة وعبرة.
الفصل السابع: مشهد الوقوف على القنطرة للقصاص في المظالِم.
-- الباب الثالث: في بيان أسباب النجاة من كرب يوم القيامة وشدة أهواله.
ويشتمل على اثني عشر سببًا، كل سبب له فصل مستقل:
فصل:السبب الأول: إقامة أركان الإسلام والإيْمان والإحسان على وجه التمام، ثم الانطلاق الجاد في أداء كل عمل صالح مبرور يُقرِّب إلى الله.
فصل:السبب الثاني:الإخلاص لله في العمل.
فصل:السبب الثالث: الصدق في المعاملة مع الله ومع عباد الله.
فصل:السبب الرابع: الصبر بجميع أنواعه.
فصل:السبب الخامس: التقوى زادًا ولباسًا.
فصل:السبب السادس:العدل في جميع الحقوق.
فصل:السبب السابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب درجاته.
فصل:السبب الثامن: الإحسان في كل شيء كما كتبه الله عز و جل .
فصل:السبب التاسع: صلة الأرحام بكل ما تحمل من معنى.
فصل:السبب العاشر: أداء الأمانة بقسميها.
فصل:السبب الحادي عشر:خشية الله في السر والعلن.
فصل:السبب الثاني عشر: اتباع سنن الهدى والسعي في إحيائها وذكر بعض منها بالتفصيل.
الباب الرابع: في بيان خطر المعصية وشؤمها وبيان عواقبها الوخيمة.
ويشتمل على أربعة فصول:
الفصل الأول: في بيان أخطار المعاصي الدنيوية والأخروية، وضرب أمثلة لذلك.
الفصل الثاني: في بيان تقسيم المعصية إلى كبيرة وصغيرة.
الفصل الثالث: ذكر شيء من الكبائر, إجمالاً وتفصيلاً.
الفصل الرابع: في بيان صغائر الذنوب، وما يكفرها من الأعمال.

وأما الخاتمة: فهي رءوس أقلام تثبت حقائق علمية مهمة تضمنها البحث وركز عليها فيه، وحرصًا مني على بروز البحث نافعًا نفعًا جيدًا ومفيدًا فائدة تامة، فقد خرجت ما ورد فيه من نصوص وآثار اقتضت المقامات إبرازها، وترجمتُ لكل من ورد ذكرهم في البحث من الرسل

والأنبياء العظام والأصحاب والسلف الكرام، والدعاة المصلحين وقادة الأمم إلى سعادة الدنيا والآخرة، أولئك الذين جعل الله لهم لسان صدق فيمن جاء بعدهم، واقتفى أثرهم، كما ستجد ذلك –إن شاء الله– مُفصلاً تفصيلاً جليًّا عندما تتكرم على نفسك بقراءة هذا البحث الذي يعتبر غذاء عظيمًا لقلبك وروحك ووسيلة عظيمة تنفعك غداة القدوم على ربك.

والحقيقة المسلَّم بِها: أن لكل عامل من وراء عمله غايات يسعى للوصول إليها وأهدافًا يريد تحقيقها، وإنني لأرجو الله عز و جل أن يجعل غايتي من عملي هذا نصرة الحق وذويه، وقمع الباطل ودحض شبهه وسحق جميع مراميه، وأن يجعل القصد ابتغاء وجهه ونيل رضاه، ورجاء مغفرته وثوابه، إنه خير مرجو وأكرم مسئول، وصلى الله وسلم وبارك على محمد خير نبي وأنصح مبلغ وأكرم رسول.

****

([1]) عبد العزيز بن باز: رئيس إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد له خصائص رفيعة يغبط عليها منها بذل النصح للقريب والبعيد والمشاركات النافعة في تدعيم الدعوة إلى الله والقائمين بِها في كل قطر من أقطار العالم يرجو الصلاح لخلق الله أجمعين.
ولد شيخنا سنة 1330' وكف بصره وهو صغير ولازم الدراسة على مشايخ عصره وولي القضاء ثم التدريس ثم عين رئيسًا للجامعة الإسلامية ثم رئيسًا للإفتاء، له مؤلفات نافعة في فنون العلم –رحمه الله رحمة واسعة–.

الفصل الأول

في وجوب دعوة الخلق إلى رحاب الحق

من المسلَّم به والمعلوم من الدين بالضرورة وجود دعوتين وحزبين وطريقين. أما الدعوتان: فدعوة إلى الله –تبارك وتعالى–، وهي الدعوة إلى وجوب الإيْمان به وبما جاءت به رسله الكرام من أولهم نوح إلى آخرهم وخاتمهم محمد ج وبارك عليهم أجمعين.

ومما لا شك فيه أن الدعوة إلى الله تعالى بِهذا المعنى العام الشامل وظيفة رسل الله أجمعين، الذين بعثهم الله مبشرين ومنذرين , مبشرين من أطاع الله برضاه والجنة، ومنذرين من عصى الله

بسخطه والنار، كما قال سبحانه: {رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[[النساء:165].

وكما قال –عز شأنه–: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ[[الحديد: من الآية25].

وكما قال عز وجل : {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت[[النحل: من الآية 36].

وقال أيضًا: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا} [المؤمنون: من الآية 44].

فهذه الآيات الكريمات تدل بوضوح على أن الله عز وجل لَم يكل الخلق إلى عقولهم ليعبدوه، بل أنعم عليهم بأعظم النعم حيث أنزل عليهم كتبًا([1]) فيها بيان لهم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وأرسل إليهم رسلاً([2]) ينيرون لهم طريق الحق ويدعونَهم إليها ويحذرونَهم من سبل الهلاك التي تفضي بسالكيها إلى حضيض الدركات.

ولله الحكمة في خلقه والتصرف المطلق فيهم، فمن اهتدى فبفضل الله ورحمته اهتدى، ومن ضل فبعدل الله وحكمته ضل وغوى.

ولقد دعا ويدعو بدعوة الرسل الكرام والأنبياء([3]) العظام أتباعهم من أهل العلم النافع، والعمل الصالح في كل زمان ومكان، إذ هم وارثو علمهم والآخذون بسنتهم فقد أقام الله بِهم الحجة على أقوام وأمم، ورحم بِهم أقوامًا وأمَمًا آخرين، فلهم من كل من جاء بعدهم الثناء العاطر ولسان الصدق، والدعوات المباركات على جهودهم الخيرة وتضحياتِهم الموفقة، وعليهم من ربِّهم صلوات ورحمة، ولهم منه الجزاء الأوفى والدرجات العلى.

حقًّا لقد كان لهم في رسل الله أسوة حسنة، وقدوة صالحة رشيدة عضوا عليها بالنواجذ، وضحوا في سبيل تحقيقها بالنفس والنفيس، لقد دعو إلى الله بقلوب مخلصة وألسنة صادقة وجوارح متحركة في أداء الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، بلا ملل, ولا فتور، ولا يأس، ولا تردد ولا تقصير: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلبَابِ} [الزمر: من الآية 18] ولا غرو أن يكونوا كذلك، فهم الذين قال في حقهم النبي الكريم ج : (وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لَم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنَّما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر)([4]).

وهم الذين أشاد الرسول الأمين بفضلهم وعظيم أجرهم في طلبهم للعلم وعملهم به ونشرهم

له، فقال: (من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، وإن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض وكل شيء حتى الحيتان في جوف الماء، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لَم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورَّثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر)([5]).

وهم الذين ظفروا بصلاة الله وملائكته عليهم، بل وصلاة أهل السموات وأهل الأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، كما جاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير)([6]) حديث صحيح.

قلت: وكفى بذلك فضلاً وشرفًا للعلماء العاملين والدعاة إلى الله المخلصين الصادقين، وهنيئًا لهم بما حباهم به ربُّهم رب العالمين وأرحم الراحمين.

ولقد وصفت الأمة المحمدية في محكم القرآن بالخيرية المطلقة لقيامها بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والإيْمان به كما في قوله سبحانه: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: من الآية110].

فلقد قامت هذه الأمة بتبليغ الرسالة المحمدية التي ورثتها عن نبيها محمد ج سالكة خير الطرق وأزكاها، ممتثلة أمر ربِّها وخالقها ومولاها حيث قال عز وجل لنبيه ج وأمته تبع له في ذلك: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: من الآية 125]. وقال سبحانه: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ} [هود: من الآية 1121].

وأثنى على الدعاة وأشاد بصنيعهم، فقال: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ} [فصلت:33].

ورغب في الدعوة وحذر من تركها، إذ هي رسالة النبي ج وفريضة أمته، فقال عز وجل : {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ} [يوسف:108].

فمن هذه النصوص القرآنية الكريمة ونظائرها من نصوص الكتاب والسنة، نعلم علم اليقين أن الدعوة إلى الله التي جاء بِها رسول الله ج دعوة عالمية وفرض كفاية وواجب عظيم كلف الله به جميع المسلمين والمسلمات كل بحسب قدرته وفي حدود مسئولياته، وبالإيْمان بفرضيتها، والالتزام بأدائها، وبذل الجهد في سبيلها يكون العبد من أتباع نبيه محمد ج حقيقة لا ادعاء، وكما تكون الدعوة بالكلمة الطيبة والقول الحسن من كتابة وخطابة وتوجيه وتنبيه، فإنَّها تكون بالفعل الجميل والسلوك الفاضل والخلق الرفيع، وعلى العموم بالتطبيق العملي لكل ما جاء به إمام الدعوة نبينا محمد ج، وتجلى ذلك التطبيق في التفاعل مع أوامر الله ونواهيه والقيام بجميع فرائضه, والوقوف عند حدوده مع الشعور الطيب، والنية الصالحة الخالصة، وبذلك يكون الداعية ترجمة حية لما يقول، وقدوة حسنة للخلق أجمعين إذ إن القدوة الحسنة لها تأثيرها البالغ في المدعوين، فإذا فقدت القدوة الصالحة الرشيدة من الداعية إلى الله بحيث يقول ما لا يفعل، ويدعو إلى صالح العمل ولا يعمل، فقد أضاع جهده وخسرت صفقته، وبارت تجارته، وعرض نفسه جهرة للذم والتوبيخ المنصوص عليهما في قوله سبحانه: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [البقرة:44].

وفي قوله عز و جل : {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ –2, كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} [الصف:2،3].

وقد انطبق عليه الحديث: (مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه، كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه)([7]). عياذًا بالله من أسباب الشقاء وسوء الحال والمآل.

فينبغي للداعية إلى الله أن يكون أول العاملين بما يدعو إليه من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، ومتابعة رسوله ج في العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق والسلوك ظاهرًا وباطنًا، وقد سئل بعض زعماء العرب عن سبب إسلامه، فكان جوابه: "إني وجدت محمدًا ج ما دعا إلى شيء إلا كان أول الفاعلين له، ولا نَهى عن شيء إلا كان أول المجتنبين له".

ومن هنا، فإذا تأسى الداعية برسوله الكريم ج، انطلقت دعوته المخلصة فانفتحت لها أبواب القلوب، ووعتها الآذان الصاغية، وقبلتها النفوس الطيبة، ونفذتْها تلك الجوارح المباركة، التي تلقت توجيهاتِها من القلوب الحية العامرة المستنيرة بنور الإيْمان الحقيقي الذي ظهرت آثاره الصالحة عليها فظلت منقادة لله رب العالمين.

كما ينبغي للداعية إلى الله من ذكر وأنثى أن يبني دعوته الرحيمة على الأسس السليمة والقواعد المستقيمة، وذلك بأن يبدأ في دعوته بدعوة أهله وإصلاح وإنقاذ عشيرته من النار، امتثالاً لأمر الله حيث قال I: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم:6]. وقال سبحانه: { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء:214].

وبعد نزول هذه الآية، بادر النبي ج إلى تنفيذها عملاً وتشريعًا فنادى قريشًا فعم وخص، فلما اجتمعوا إليه قال: (لو أخبرتكم أن خيلاً تريد أن تخرج عليكم من سفح هذا الجبل، أكنتم مُصَدِّقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًّا لك ما جمعتنا إلا لهذ)([8]). فأنزل الله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ –1, مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد:1، 2].

وخص ج أفرادًا من قرابته فقال: (يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئً)([9]). الحديث.

ولقد أحسن القائل في هذا المعنى :

وابدأ بأهلك إن دعوت فإنَّهم ... أولى الورى بالنصح منك وأقمن
والله يأمر بالعشيرة أولاً ... والأمر من بعد العشيرة هين

وبعد تبليغ العشيرة ودعوتِهم إلى الله ليؤمنوا به ويعملوا بِشَرْعِه ويتابعوا رسوله يجب على الداعية أن ينطلق مسرعًا ومسارعًا إلى دعوة الخلق لمعرفة الحق والعمل به مترسمًا في ذلك منهج الأنبياء والمرسلين ومتبعًا لقول الله عز وجل عن أنبيائه ورسله: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ} [الشعراء:109]. وقوله عز و جل عن نبيه شعيب: {إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: من الآية88].

مستصحبًا في دعوته الرفق واللين والصبر والرحمة والإخلاص، متحملاً ما يناله من أذى عملاً بقوله تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل

عمران:200].

وعملاً بوصية الأب الصالح لابنه وهو يعظه كما قص الله عنه في سورة لقمان: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [لقمان:17].

(13/1)

وما هذه الوصية إلا لأنه لابد لكل داع إلى الهدى من أعداء يفتنونه ويسفهون رأيه ويحتقرون شخصه ويكذبون بما يدعونَهم إليه، ويضحون بالنفس والنفيس والغالي والرخيص في سبيل صد الناس عن دعوته الربانية الرحيمة كما قال عز وجل : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: من الآية 112]. كما قال عز وجل : {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ –2, وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ} [العنكبوت:2،3].

ولقد أوذي النبي الكريم والداعية العظيم ج وأصحابه الكرام أشد الأذى في سبيل الدعوة إلى الله ونصرة دين الله، وامتحنوا بأبلغ المحن فثبتوا في وجه الفتنة ثبوت الجبال الشم الرواسي بفضل الله عليهم ثم بقوة إيْمانِهم العميق وصدق عزيمتهم وثقتهم بالله القائل وقوله الحق ووعده الصدق:

{ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر:51].

ومن أراد أن يعرف ذلك جيدًا، فليطالع صفحات تاريخ الدعوة المحمدية وليقرأها بإمعان، ولينظر ماذا حصل من الأذى لخير الأمة بعد نبيها أبِي بكر الصديق([10])، والخلفاء من بعده([11])، ثُمَّ لجعفر الطيار([12])، وحَمْزة سيد الشهداء([13])، وبلال الْحَبشي([14])، وصهيب الرومي([15])، وسمية([16]) أول شهيدة فِي الإسلام من النساء، وعمار بن ياسر([17])، ومصعب بن عمير القرشي([18])، وخبيب([19])، وخباب([20]), والقراء([21])، الذين قتلوا غدرًا فأنزل الله فيهم ذكرًا، فرضي الله عنهم جميعًا وأرضاهم ورحمنا وهدانا ورضي عنا، كما رحمهم وهداهم ورضي عنهم وأرضاهم.

(14/1)

ولا يفوتني في هذا المقام أن أسجل بإيجاز ما يحضرني من الصفات الرفيعة التي يجب أن يتحلى بِها الداعية إلى الله ليكون ناجحًا في دعوته رابحًا في تجارته فأقول –ومن الله العون في جميع الشئون–:

–– من صفات الداعية:

الصفة الأولى: إخلاص النية لله الذي بيده الثواب والعقاب، والذي لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا صوابًا، لحديث: (إنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكل امرئ ما نوى).

الصفة الثانية: التزود من العلم النافع الذي يثمر العمل الصالح: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [البقرة: من الآية 197].

الصفة الثالثة: فهم العقيدة فهمًا صحيحًا وتحقيق العبادة، إذ بذلك تقبل جميع الأعمال.

الصفة الرابعة: مراقبة الله في السر وفي العلن والاستحياء من الله والإستعداد التام للإنتقال من هذه الدار إلَى دار البرزخ فدار القرار: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لَم تكن تراه فإنه يراك)([22]).

الصفة الخامسة: محاسبة النفس والاستعداد التام ليوم الانتقال من هذه الدار إلى دار القرار.

الصفة السادسة: الحرص الصادق على التأسي بالرسول الكريم ج وذلك بمتابعة ما جاء به من عند ربه، ونبذ التقاليد الشرقية والغربية التي ابتلي بِها معظم الناس لاسيما شباب المسلمين ذكورًا وإناثًا بسبب الدعايات المغرضة التي تَهدم الدين وتحطم الأخلاق وتحارب فطرة الله التي فطر الناس عليها.

الصفة السابعة: استثمار الأوقات في كل ما ينفع ويفيد في الدنيا والآخرة رجاء لثواب الله ومحاربة للتسكع والتسيب والضياع التي تسبب الخذلان والحرمان والخسران في الدنيا والبرزخ ويوم لقاء الله.

الصفة الثامنة: الحرص على نشر العلم وإعطائه أغلى الأوقات، وإعداد نفسه إعدادًا جيدًا يمكنه من إيصال الخير إلى المدعوين على اختلاف مستوياتِهم وتباين أحوالهم.

الصفة التاسعة: محاولة كثرة الاطلاع والقراءة في الكتب المفيدة من قديْم وحديث جاعلاً في المقدمة القرآن الكريم وكتب تفسيره المشهورة, وكتب السنة المطهرة كالأمهات الست مثلاً مع شروحها، وكتب السيرة النبوية التي تكشف عن كيفية طرق الدعوة المحمدية، وكذا قراءة المجلات والصحف المعاصرة للاستفادة منها، أو النقد لها والرد عليها بقصد بيان الحق

ونصرته، وتوضيح الباطل وقمعه ودحضه.
الصفة العاشرة: اختيار الأسلوب الحسن في الموعظة والجدل والمناظرة والتعلم الذي ينبغي أن تراعى فيه مستويات الناس في الفهم والحاجة إذ إن لكل مقام مقالاً وإن لكل زمان رجالاً.
الصفة الحادية عشرة: العناية باللغة العربية إذ هي لغة القرآن الكريم فلكم رأينا من إعراض عن حديث من يلحن، وزهد في موعظته أو محاضرته.
الصفة الثانية عشرة: مواكبة الأحداث ومعرفة الزمن الذي يعيش فيه والوسط الذي يعاصر ذويه إذ إن ذلك من أقوى أسباب نجاح الدعوة إلى الله في مجتمعات الخلق.
الصفة الثالثة عشرة: كثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم بقصصه وأمثاله ووعده ووعيده، وكذا بالقصص والأمثال التي استعملها النبي ج في خطبه ووصاياه كما يحسن ذكر مناقب الدعاة من سلفنا الصالح أعلام الهدى ومصابيح الدجى وأئمة الدين والتقوى، لتقوى عزائم المدعوين فيترسموا الخطى ويأخذوا القدوة الصالحة الرشيدة منهم.
الصفة الرابعة عشرة: التدرج والمرحلية مع المدعوين فيعلمهم صغار العلم قبل كباره يعلمهم العقيدة التي بدأ الأنبياء العظام والرسل الكرام بدعوة الخلق إليها وهذه عين البصيرة.

الصفة الخامسة عشرة: مراعاة عدم الإطالة لئلا يمل الداعية الناس أو يفتنهم عن الضروريات من حوائجهم، اللهم إلا إذا دعت الحاجة إلى الإطالة، فإنه لا مانع منها فقد ثبت عن النبي ج : (أنه خطب الناس يومًا كاملاً([23]) بين لهم فيه كل شيء من أمور دينهم حتى دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وأصحابه الكرام جلوس يسمعون فلم يصبهم ملل ولا ضجر).
وإن حاجة الناس اليوم في القرى والبوادي إلى معرفة أصول دينهم وبيان محاسنه وفضائله لأشد من أي وقت مضى، كيف لا وهم يعيشون في عَصْرٍ كَمْ فيه من ملهيات ومغريات تزين للإنسان البشري الشر بحذافيره، وتحببه إلى النفوس بوسائلها الفاتنة ودعاياتِها المغرضة وضلالاتِها الهدامة، ورغم ذلك كله فإن معظم الناس يتضجرون إذا تجاوز الخطيب في خطبته أو المحاضر في محاضرته ربع ساعة من الزمن، فإذا ما قضيت الصلاة أو انتهت المحاضرة، سمعت لهم دويًا بالتعليق، لقد أطال علينا، وما هكذا تكون الخطابة والخطباء، ونحو ذلك.
بينما هم –هدانا الله وإياهم– لا يملون من قضاء ساعات طوال عند سماع الأغاني الخليعة أو التمثيليات الفاسدة المفسدة التي لا تحقق لأحد مصلحة ولا تفيد سامعًا شيئًا نافعًا، هكذا انعكست الحقائق عند هذا الصنف من الناس، فلا يكادون يفرقون بين النافع المفيد والضار

والمؤلم، ومجالس الخير الطيبة المباركة، ومجالس الشر المحرقة المنتنة فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الصفة السادسة عشرة: الحرص على نيل الحكمة التي أرشد إليها القرآن الكريم، ومجانبة التقريع والتنديد بالمدعو أو المدعوين إلا في موضعه، فقد يكون الخصم مستهترًا ومتهورًا فينبغي أن تستعمل معه الشدة عله ينْزجر ويرتدع ويشعر أن العزة لأهل الإيْمان بالله والدعوة إليه كما قال تعالى:

{قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الإسراء:102].

الصفة السابعة عشرة: كثرة الاحتمال وقوة الصبر، إذ إن من اختار لنفسه طريق الأنبياء فلا بد أن يناله من الأذى ما يحتاج معه إلى شحنة كبيرة من الصبر يستعين بِها على أداء واجبه وإنجاز مهمته.

الصفة الثامنة عشرة: البدء في التعلم والدعوة بالأهم فالمهم كأصول الدين من عقيدة وعبادة ومعاملة وسلوك وخلق حسن.

الصفة التاسعة عشرة: الاعتراف بالفضل لأهل العلم والفضل وتوفير الاحترام للآخرين فلا يغمطهم حقهم، ولا يفتي في مجالسهم إلا بإذنِهم إن كانوا أكثر منه علمًا وأوسع اطلاعًا.

الصفة العشرون: الشجاعة الشرعية المقرونة بالحكمة الدعوية على نَهج السلف الصالح – رحمهم الله–؛ لأن الدعوة إلى الله جهاد، والجهاد لا يقوم بوظيفته إلا الشجعان الحكماء الذين يؤمنون بأن الموت والحياة بيد الله وكذلك هداية القلوب بيده وحده دون سواه، والذين يتصرفون في شأن الدعوة إلى الله وفق نصوص الشرع الشريف بدون إفراط ولا تفريط.

الصفة الحادية والعشرون: الكرم، إذ هو خلق عظيم وسبب متين من أسباب الإقبال على الدعاة إلى الله والأخذ عنهم والاستفادة منهم، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها. ولقد أحسن القائل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبِهم فطالَمَا استعبد الإنسان إحسان

الصفة الثانية والعشرون: الاعتراف بالحق، والعمل به، فالاعتراف بالحق فضيلة، وأولى الناس بذلك الدعاة إلى الله.

الصفة الثالثة والعشرون: التلطف في التعليم وفي الجدل والمناقشة، إذ إن ذلك طريق الأنبياء

والمرسلين وهم أسوتنا الحسنة، وقدوتنا الصالحة الرشيدة في كل تصرفاتنا وفي كل شأن من شئوننا حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

فهذه ثلاث وعشرون صفة لا تجتمع إلا لدى الكمَّل من الدعاة إلى الله غير أنه من لا يدركها كلها فلا يفته جلها وهو في ذلك يواصل سعيه جادًّا ليدركها ويتصف بِها كي يكون مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

(18/1)

ولا يعزب عن البال أن الرياء والمراء والعجب وابتغاء الشهرة مقاصد دنيئة تنبئ عن خبث الطوية ومرض القلب وعدم الإيْمان بالله الذي بيده الموت والحياة والثواب والعقاب، والذي إليه المرجع والمآب، فيجازي على الأعمال خيرها وشرها، سرها وجهرها، كما قال عز وجل : {وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِها وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء:47] , وكما قال سبحانه: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: من الآية110].

تلك أيها القارئ الكريم هي الدعوة إلى الله وصفات الداعية حدثتك عنها باختصار ولتعلم كيف احتضن الدعوة إلى الله الرسل الكرام والأنبياء العظام وأتباعهم في كل زمان ومكان، وجاهدوا في سبيلها باليد والقلب واللسان، وكتب لها العز والنصر على أيدي ذوي الصدق والصبر والإيْمان، ولو كره ذلك أهل الشر والفساد والطغيان.

****

الفصل الثاني

في بيان دعوة الشيطان إلى معصية الرحمن

وبجانبها دعوة أخرى تضادها وتناوؤها قد حمل لواءها الشيطان الذي: {قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر:16، 17].

(19/1)

حقًّا لقد دعا الشيطان الخليقة كلها إلى كل شر وغواية وضلال، وزين لهم سوء العمل وقبيح الفعال التي توجب السخط والمقت من الله الكبير المتعال.. نعم لقد زين لكثير منهم الإثم الكبير والذنب العظيم والديوان الذي لا يغفره الله ألا وهو الشرك بالله الذي يتجلى في عبادة المخلوق لمخلوق مثله أيًّا كان نوعه وذلك بصرف شيء من أنواع العبادة المتعددة التي أبى الله إلا أن تكون خالصة له كما قال عز وجل : {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ –162, لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ[[الأنعام:162، 163].

وزين لهم تعلم السحر وتعليمه والعمل به ليوقعهم في الكفر الصريح والذنب القبيح، كما قال عز وجل عن اليهود وأتباعهم ممن سلك طريقهم: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة:102].

وزين لهم قتل النفس بغير حق حيث إن الله حرمه بقوله: {وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ} [الإسراء: من الآية 33].

وتوعد فاعل هذه الجريمة المنكرة بأشد الوعيد لحرمة دم المسلم عند الله كما قال سبحانه: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء:93].

وزين لهم أكل الربا بشتى صوره، والله حرمه لإثمه الكبير وخطره المستطير حيث قال سبحانه: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران:130].

ولشؤمه، فقد ضرب الله لأهله أسوأ المثل فقال: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَس} [البقرة: من الآية275] أي: الجنون.

كما أخبر سبحانه أنه ممحوق البركة وإن كثر في أعين الناس، كما قال عز وجل : {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ} [البقرة: من الآية 276].

وقال أيضًا: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ} [الروم: من الآية 39].

وزين لهم أكل مال اليتيم الذي نَهى الله عن الاقتراب منه إلا بنية الإصلاح حيث قال سبحانه: {وَلا تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [الأنعام: من الآية 152].

وضرب لمن يستمرئون أكله مثلاً مخيفًا رهيبًا حيث قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء:10].

وبجانب ذلك التحذير من أكل أموال اليتامى ظلمًا فقد حث الله سبحانه على إصلاحها فقال: {وَيَسْأَلونَكَ عَنِ اليَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ} [البقرة: من الآية220].

(21/1)

وزين لهم قذف المحصنات الغافلات المؤمنات الذي حرمه الله ولعن فاعله في محكم الآيات، سواء كن زوجات أو أجنبيات أو قريبات، قال عز وجل : {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النور:23].

كما رتب عليه عقوبة دنيوية وأخروية حسية ومعنوية إذ قال سبحانه: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ –4, إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [[النور:4،5].

وزين لهم قول الزور الذي أمر الله عباده باجتنابه بقوله: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج: من الآية30].

وزين لهم الغش والخيانة ودعاهم إليهما، والله قد حذر من ذلك بقوله: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [لأنفال:27].

(22/1)

وزين لهم السخرية والتنابز بالألقاب، وكذا التجسس والغيبة والتفاخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والله عز وجل قد نَهى عن ذلك كله نَهيًا صريْحًا إذ قال عز وجل : {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالالقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيْمان وَمَنْ لَمْ يَتُبْ

فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ –11, يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ –12, يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:11 – 13].

وزين لكثير ممن لديهم علم أمورًا تخالف شرع الله وتصادم جهرة هدى رسول الله ج وذلك كنفي صفات الله ونفي القدر، وإثبات الجبر والقول بخلق القرآن وفصل العمل عن الإيْمان، وإنكار إعادة الأرواح إلى أبدانِها، وإنكار رؤية المؤمنين ربِّهم يوم القيامة في الجنة، وتأويل كل من النعيم والعذاب بغير معناهما الحق وهم في كل ذلك ليس لهم مستند مقبول أو مبرر معقول، نعم لهم حجج وشبهات، ولكنها حجج داحضات، وشبهات واهيات أوهى من بيت العنكبوت، ولكن لا يعلمون.

(23/1)

كما حبب إليهم شرب الخمور وسماها لهم المشروب الروحي، أما الرب –تبارك وتعالى– فقد سماها رجسًا واعتبرها من عمل الشيطان حيث قال I: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة:90]. ولقد سميت أم الخبائث, ولعن رسول الله ج شاربَها([24]) لتعديه لحدود الله وكفره بنعمة الله.

وحبب إلى بعض النساء التبرج والسفور وعرضهن بذلك لغضب الله ومقته، وأنزلهن من قمة الستر والعفاف إلى حضيض الفوضى والاستمتاع الرخيص، ولقد وجد العدو أعوانًا من شياطين الإنس على إغواء ضعيفات العقل والدين, سموا أنفسهم أنصار المرأة ومنصفيها كي تأخذ حقها من الحرية المطلقة كالمرأة الغربية التي لا تلتزم بخلق حسن ولا تؤمن بدين صحيح.

وزين لهم ظلم الغير في الدماء والأعراض والأموال، وهو الديوان الذي لا يتركه الله حكمة منه وعدلاً([25])، وهكذا دعا الشيطان البشرية كلها إلى فعل الفواحش وكبائر الذنوب وصغائرها ما ظهر منها وما بطن، فاستجابوا لدعوته وأعلنوا الانضمام إلى جنده وحزبه، إلا فريقًا من المؤمنين في كل زمان ومكان وهم الذين قال الله فيهم: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ} [الحجر:42].

وبجانب هذا التزيين لسوء الأعمال وقبيح الفعال، وطرق الغواية والفساد والضلال، دعا الأمة إلى الدعة والراحة والسكون, وثبطهم عن كل طاعة, فلقد ثبط الكثير منهم عن:

1- طلب العلم النافع والعمل به؛ كي يعيشوا جاهلين بأمر الله معرضين عن دين الله، إذ إن العدو يعلم أن الجهل مصدر كل شر.

2- وثبطهم عن أداء الفرائض التي أمر الله بأدائها على اختلاف أنواعها، لأن أداءها على الوجه الصحيح يرضي الرحمن ويغضب الشيطان.

(24/1)

3- وثبطهم عن القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يعتبر من أقدس الواجبات، وأجل الأعمال والقربات, ولا يستقيم لأي مجتمع حال طيب إلا إذا وجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما سيأتي الحديث مفصلاً عن هذا الأمر العظيم والركن القويم.

4- كما ثبطهم أيضًا عن الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الحق وتحكيم شريعة الله في أرضه، ذلك بقذفه في قلوبِهم محبة الحياة وكراهية الموت.

5- وثبطهم عن الدعوة إلى الله، وتبصير الناس بأصول الدين وشرح محاسنه وفضائله، فقعد الناس عن ذلك مع القدرة عليه وشدة حاجة الناس إليه، فنعوذ بالله من الكتمان وما يترتب عليه من غضب الرحمن.

6- كما ثبطهم عن حضور الجمع والجماعات في بيوت الله التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، إذ ما أكثر المتخلفين عن صلاة الجماعة في هذا الزمان لاسيما صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما في التخلف عنهما من الإثم الكبير, وما في المحافظة عليهما من الأجر الوفير، لأتوهما ولو حبوًا([26]).

7- كما ثبطهم عن الصدقات التي تطفئ غضب الرب، ويدفع الله بِها عن صاحبها كل سوء ومكروه في الدنيا والبرزخ والآخرة، ويضاعفها الله لأصحابِها أضعافًا كثيرة، الواحدة بعشر إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قال عز وجل : {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:261].

(25/1)

8- كما ثبطهم عن التأسي بسنة نبيهم الكريم ج وزهدهم فيها ليحرمهم فضلها ويحول بينهم وبين جزيل ثوابِها الدنيوي والأخروي، وبجانب ذلك فقد أغواهم بالتقاليد في الخلق الذميم والعادات القبيحة والسلوك المتدني، وحياة الضياع والعبث والتسيب، وهم يحسبون أنَّهم بذلك يحسنون صنعًا، وهم في الحقيقة قد عموا عن الحق وضلوا عن سواء السبيل، وانطبق عليهم قول الله عز وجل : { أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء} [فاطر: من الآية**8**]. وحقًّا لقد دعا الشيطان حامل رايات الشر والضلال الأمة إلى كل شر وبلاء ورذيلة.

9- وثبطهم عن كل خير ونقاء وفضيلة، وهذا هو الأمر الذي أقسم على فعله وتحقيقه، وطلب المهلة من ربه ليدعو بكل جهد إليه فلا مرحومًا إلا من رحم الله, ولا ناج من مكره وتلبيسه إلا من هدى الله([**27**])، ألا وإنه سيقول لأتباعه الذين استجابوا لدعواته وانضموا إلى حزبه، سيقول لهم يوم القيامة يوم العرض الأكبر والمشهد العظيم واليوم الطويل العسير: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم:**22**].

ولقد نادانا ربنا –جل وعلا– بلقب الإيْمان تشريفًا وتكريمًا وتذكيرًا فحذرنا من مكر الشيطان وغروره، ونَهانا عن اتباع طرائقه وضلالاته، إذ قال سبحانه: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ وَالمُنْكَر} [النور: من الآية**21**].

ثم أبان لنا –تبارك وتعالى– مقصد العدو من دعوته وغرضه من وسوسته فقال تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر:**6**].

ألا وإن الحديث عن هاتين الدعوتين يحتاج إلى كتابة خاصة بِهما تحيط بأهدافهما ومقاصدهما غير أن فيما أوجزته من الكلام عليهما كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد, كما أن فيه دلالة ترشد إلى تبيان الخط الفاصل بينهما يتضح لمن كان له فهم ثاقب ومعتقد صحيح ورأي سديد.

****

الفصل الثالث

في صفات حزب الله المفلحين وخصائصهم ومزاياهم

أما الحزبان: فحزب الله المفلحون، وحزب الشيطان الخاسرون ولكل من الحزبين صفاته وخصائصه التي تميزه عن الآخر.

وسأبدأ الحديث عن حزب الله ذاكرًا بعض صفاته وخصائصه التي فصلت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فأقول:

إن كلمة حزب الله ذكرت في القرآن الكريم ثلاث مرات: مرة في سورة المائدة، ومرتين في سورة المجادلة:

ففي سورة المائدة قال عز وجل : {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ -54, إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ -55, وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ} [المائدة:54-56].

وقال سبحانه في سورة المجادلة: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيْمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحُونَ} [المجادلة:22].

وإذا قرأت أيها المسلم هذه الآيات الكريمات قراءة متدبر متبصر وجدتَها بمجموعها قد اشتملت على كثير من صفات حزب الله وهي:

1- الولاء لله.

2- الولاء لرسول الله ج.

3- الولاء للمؤمنين.

4- المحبة لله.

5- المحبة لرسول الله ج.

6- المحبة لعباد الله المؤمنين.

7- الذلة على المؤمنين.

8- العزة على الكافرين.

9- الجهر بكلمة الحق في حدود الشرع، وعلى نَهج الرسل الكرام والأنبياء العظام وأتباعهم من علماء الإسلام.

10- الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

(28/1)

ومما ينبغي أن يعلم أن الإنسان من ذكر وأنثى لا ينال الإيْمان المطلق والكمال من الولاية لله الحق إلا إذا توفرت فيه هذه الصفات العشر التي شملت أصول الدين وجميع قواعده الكلية والجزئية؛ إذ ليس من صفة حميدة أو فعل جميل أو عمل صالح مبرور أو قول معروف أو خلق حسن أو أدب رفيع إلا وهو داخل تحت إطارها ومتفرع عن أصولها.

وأحب في هذا المقام أن أتحدث بشيء من التفصيل عن كل واحدة من هذه الصفات مبتدئًا بصفة الولاء لله, ويمكن أن يكتفي في الكلام عن صفة الولاء لله بالإجابة عن الأسئلة التالية :

س1: ما حقيقة الولاء ؟

س2: ولمن يجب أن يكون وعلى من يحرم ؟

س3: وما أجلى مظاهره في المفاهيم الشرعية ؟

والجواب: الولاء في اللغة: بمعنى الموالاة. وفي الاصطلاح العام: هو المحبة والصداقة والركون والمتابعة وما في ذلك، والولاء بمعناه الخاص هو الصفة الأساسية الصحيحة التي تبرهن على كون الإنسان من حزب الرحمن أو من حزب الشيطان، قال عز وجل : {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَات} [البقرة: من الآية 257].

وإذا كان الأمر كذلك فلا ولاء في شريعة الإسلام ومفهوم الإيْمان الحق إلا على أساسها النظري والعملي، فلو أن الأمة الإسلامية تقيدت بقول رسولها الكريم ج: (تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)([28]). وعضت على ذلك بالنواجذ لكانت من حزب الله حقًّا ولنجت من مطامع الملحدين اللادينيين، ومن كل فكر جاهلي وثني شيطاني ومن كل بدعة مضلة تضاد السنة الكريمة وتَهدمها، وانطلاقًا من مفهوم الولاء في شريعة الإسلام فإنه ينبغي أن يكون لله ولرسوله وللمؤمنين.

(29/1)

وإن أي ولاء أو رابطة من الروابط المتنوعة كرابطة الوطنية والقومية أو الأحزاب المنحرفة أو مبدأ من المبادئ الهدامة الفاسدة أو قانون من القوانين الوضعية البشرية يعطي الناس ولاءهم لها أو لشيء منها فقد وقعوا في ضروب الباطل المختلفة التي لا يقرها الإسلام ولا يرتضيها بحال من الأحوال وذلك لأن الله –تبارك وتعالى– حذر المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من أن يعطوا ولاءهم إلا على أسس متينة من أسس العقيدة الإسلامية السمحة التي جاء بِها شرع الله الشريف الكامل المتكامل الذي ارتضاه لنا شرعةً ومنهاجًا وخلقا ودينا، نسأل الله الثبات عليه بصدق وإخلاص والموت عليه كذلك.

إذن: فالولاء لله حبًّا وطاعةً، ورضًا وتحكيمًا وتسليمًا، ولرسول الله ج طاعة ومحبة ومتابعة، قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ}[[آل عمران:**32**].

وقال سبحانه: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء:**69**]. وقال –تبارك وتعالى–: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء:**80**].

وخاطب سبحانه نبيه محمدًا ج أن يقول لقوم ادعوا محبة الله وهم يبارزون الرسول ج بالمخالفة والعداوة ويقابلون رسالته بالجحد والتكذيب والإنكار: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: من الآية **31**].

(30/1)

كما أمر الله جميع المؤمنين بالاستجابة له ولرسوله الكريم المبلغ لشرعه العظيم فقال سبحانه: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال:**24**].

وجاء في الحديث الصحيح في شأن الطاعة لله عز و جل ولرسوله ج قوله –عليه الصلاة والسلام–: (من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله, ومن عصى أميري فقد عصاني, ومن عصاني فقد عصى الله)([**29**]).

أو كما قال ج إلى غير ذلك من النصوص الشرعية من كتاب ربنا وسنة نبينا ج التي تبين في وضوح أن الولاء الحق لله ولرسوله وللمؤمنين: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة:**55**].

وأما ولاء المؤمنين لإخوانِهم المؤمنين فيتجلى في الأخوة الصادقة، والمحبة المخلصة فيما بينهم، والاتفاق ظاهرًا وباطنًا في خط السير إلى رحاب الله على منهج الله ومنهج رسول الله ج والاجتماع الدائم المخلص على إحياء شريعة الله في أرضه الفسيحة يرجون رحمة الله ويخافون عذابه.

نعم, ولا غرابة أن يكونوا كذلك، فقد وصفهم الله بأشرف الصفات وأكرم السجايا، فقال سبحانه: {وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:71].

ووصفهم بقوله: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُو إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ} [النور:51].

}

(31/1)

إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ –2, الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ –3, أُولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال:4،3،2].

ولقد وعدهم الله في محكم آياته بالاستخلاف في الأرض والتمكين فيها وبشرهم بالأمن التام من مواجهة أي خوف أو مكروه، فقال سبحانه:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور: من الآية55].

ولقد وصفهم نبيهم ج بقوله الثابت الصحيح مرة بالبنيان فقال:

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضً)([30])، وأخرى بأعضاء الجسد الواحد حيث قال: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)([31]).

فهذه النصوص الصريحة تدل بوضوح على صدق الإخاء ووحدة العمل بين المؤمنين والاتجاه الصحيح المشترك بينهم، والغاية المجيدة التي لا يسعى لإدراكها وتحقيقها غيرهم.

وبِهذه الأخوة الصادقة تتكون المجتمعات المسلمة والدولة المسلمة التي تعيش في ظل راية الحق "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وتحكمها شريعة الله في عباداتِها ومعاملاتِها وأخلاقها وسلوكها وحربِها وسلمها ومنهج جهادها ودعوتِها إلى الله على نور من الله وكافة حياتِها.

(32/1)

نعم بِهذه الأخوة الإيْمانية وجد ويوجد التكافل الاجتماعي بين الأمة المسلمة, ولقد سجل لنا التاريخ قصة سعد بن الربيع([32]) وصنيعه مع أخيه عبد الرحمن بن عوف([33]) فقد قال سعد لعبد الرحمن: (إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين ولي امرأتان فانظر إلى أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتُها فتزوجها، قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك أرني سوقكم، فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو حتى جاء يومًا وبه أثر صفرة فقال النبي ج: مهيم؟ قال: تزوجت. قال: كم سقت إليها؟ قال: نواة من ذهب)([34]).

يا لله.. ما هذا؟؟!! إنَّها الأخوة الإيْمانية إنه الكرم، إنه الإيثار، إنه التطبيق العملي لهذه الشريعة الكريمة الَّتِي طهرت النفوس، وأحيت القلوب وأنارت البصائر, ورسمت منهج الحق لعالم الإنس والجن في أصول دينهم وفروعه ومنهج الدعوة إليه، ولا غرابة فهي شريعة الله وكفى.

لهذا وذاك صار المؤمنون بعضهم أولياء بعض وبعضهم أخلاء بعض وبجانب ذلك فقد أعلنوا براءتَهم من جميع أعدائهم وخصومهم فلم يعطوا ولاءهم وودهم وعونَهم:

1- لمشرك كافر يعبد الأصنام والأوثان والهوى والشيطان، ولو كان من أقرب الناس إليهم وأعزهم عليهم، امتثالاً لقول الله تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإيْمان وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة:**23**].

(33/1)

2- ولَم يعطوا ولاءهم ليهودي حقود أو صهيوني حسود أو نصراني جهول من الذين لَم يقدروا الله حق قدره ولَم يؤمنوا برسالة محمد ج ولَم يرقبوا في مؤمن ولا مؤمنة إلاَّ ولا ذمة، إذ إنه قد نَهى المؤمنين والمؤمنات عن ذلك بقوله: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:**51**].

3- ولَم يعطوا ولاءهم لشيوعي ماركسي ملحد ينكر وجود الله والجنة والنار والبعث والجزاء على الأعمال، وقد اعتبر الأديان السماوية كلها أفيون الشعوب متحديًّا بمبادئه الهدامة كل دليل عقلي أو نقلي، إلا ما أملاه عليه شيطانه وهواه فأضله الله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟!.

4- ولَم يعطوا ولاءهم لإباحي منحل عقيدة وأخلاقًا وسلوكًا ليس له هم إلا بطنه وفرجه، وقضاء شهواته الجسدية، ولَم يعرف حكمة من حياته، قال تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ} [الممتحنة: من الآية1].

5- ولَم يعطوا ولاءهم لعلماني، لا ديني، مخذول، فصل بقانونه الدين عن الحياة الاجتماعية لأفراد البشرية، فلا يحكم الشرع في قانونه ونظره إلا في حياة الأفراد الشخصية فقط، أما ما عدا ذلك من شئون العمل فإنه يجب أن يعالج على الأسس المادية البحتة وفق رغبات أهل الجهل والانحراف من الشر وبحسب ميولهم ومطالبهم التي تنفذ بدون تقيد بشرع أو التزام بقانون قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُون} [المائدة:50].

(34/1)

6- ولَم يعطوا ولاءهم لقومي مغرور اعتبر مصالح نفسه وجميع رغباته فوق جميع البشر وجميع رغباتِهم بدون أن يقيس ذلك بمقاييس الحق وبدون أن يزنه بميزان الشرع الشريف، وما ذلك إلا لأنه قد غفل قلبه عن ذكر الله واتبع هواه وكان أمره فرطًا([35]).

7- ولَم يعطوا ولاءهم لقادياني جهنمي ماكر أنكر شريعة الله العادلة ورسالة محمد ج الساطعة النيرة، وعطل الشعائر الإلهية وكفر الأمة المحمدية وتشبث بمبادئ الكفر والضلال مثل مبادئ غلام أحمد الذي ادعى النبوة والوحي، قاتله الله وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا.

8- ولَم يعطوا ولاءهم لبهائي زنديق كافر يسعى في إهلاك المسلمين وتدميرهم مستعينًا على ذلك بكل شيطان مريد وكل جبار عنيد.

9- ولَم يعطوا ولاءهم لصوفي مشعوذ دجال، يعتقد بالحلول ويذهب إلى القول بوحدة الوجود ويقدس المشايخ بالغلو فيهم ويطيعهم طاعة عمياء ويرفعهم فوق درجات الأنبياء قال تعالى: {قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} [عبس:17].

10- ولَم يعطوا ولاءهم لماسوني فاجر، رفض دين الله وحكم عليه أنه عقبة في طريق الحياة،

فلقد أعظم الفرية على الله، قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ} [آل عمران:85].

11- ولَم يعطوا ولاءهم لشيعي ماكر ولا لنصيري أو درزي كافر، إذ إن هؤلاء وأشباههم قد استحبوا العمى على الهدى، وسلكوا طرق الغواية، ورفضوا طريق الحق والهداية , قد زين لهم الشيطان أعمالهم وحسن لهم عقائدهم وأفعالهم، قال تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر:8].

(35/1)

12- ولَم يعطوا ولاءهم منافقًا سفيهًا يظهر الإصلاح ويبطن الفساد والشر المستطير ويتربص بالإسلام وأهله الدوائر، قال تعالى: {إِنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً -142, مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} [النساء:142، 143].

وقال تعالى: {بَشِّرِ المُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا -138, الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء:138، 139].

13- ولَم يعطوا ولاءهم لمستهتر ماكر قد انعكست عليه الحقائق وتغيرت في مفهومه مجاري الأمور الصحيحة فطفق يشيد بمبادئ الشرق الشيوعي الملحد ومبادئ الغرب الإباحي المنحل ويسميها تقدما ورقيًا وحضارة ومدنية وتطورًا وانفتاحًا، وبجانب ذلك فهو يتنكر لمبادئ الدين الإسلامي الحنيف، ويسميها جمودًا ورجعية وتخلفا وإننا لن نجانب الصواب إذا قلنا لهؤلاء ما قيل لأئمتهم من قبل: {قل أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ -65, لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمانكُمْ} [التوبة: من الآية65، 66].

(36/1)

14- ولَم يعطوا ولاءهم لأي مجتمع جاهلي يترك الحكم بشريعة الله ويفضل الحكم بغير ما أنزل الله، أو يرى الحكم بما أنزل الله وبغيره سواء قال عز وجل : {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ} [المائدة: من الآية44], {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة: من الآية45], {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ}

[المائدة: من الآية47].

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً[[النساء:60].

وقال عز وجل : {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:65].

15- ولَم يعطوا ولاءهم لأي حزب أو جماعة لهم اتجاه فكري أو أسلوب دعوي أو تخطيط حركي يخالف توجيهات القرآن الكريم ويخالف أسلوب النبي ج الذي بين لأمته طريق الدعوة إلى الله أتم بيان، عليه من ربه

أزكى صلاة وسلام قال عز وجل : {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:153].

16- ولَم يعطوا ولاءهم ابنًا ولا أبًا ولا زوجة ولا صديقًا إلا على أساس الطاعة لله -عز شأنه- والمتابعة لرسول الله ج والحب في الله والموالاة في الله.

هكذا أعلن أهل الإيْمان ولاءهم لمن يستحق الولاء بنصوص الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وأعلنوا البراء ممن يستحق ذلك بنصوص الكتاب والسنة والبغض له تطبيقًا منهم لهذا المبدأ العظيم الذي يعتبر أصلاً من أصول الدين الحنيف، ومما ينبغي التنبيه عليه أن الولاء لمن لا يستحق الولاء من أعداء الله له آثار بغيضة، ومظاهر ممقوتة، وهذه الآثار والمظاهر تتجلى في الأمور التالية:

1. في الركون والميل إلى الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي, وقد نَهى الله عن ذلك بقوله الحق: {وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ} [هود:113].

ولا شك أن هذه الآية الكريمة نص صريح في هجران أهل الكفر على اختلاف مللهم وأهل البدع والمعاصي إذ إنه يخشى من صحبتهم أن تجلب مودتَهم، وفي هذا المعنى قال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

فمن كان ذا شر فجانبه سرعة ... ومن كان ذا خير فصاحبه تَهتدي

غير أنه لا يلزم من عدم الركون إليهم عدم التعامل معهم في أمور المعيشة ونحوها من كل معاملة أباحها شرعنا في نصوصه المحكمة.

2. وفي النصرة لهم بأي وسيلة كانت النصرة أو الدفاع عنهم بدون مسوغ شرعي سواء كان بالمال أو النفس أو القلم إذ إن ذلك من خلال المنافقين الذين قال الله فيهم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ -11, لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ} [الحشر:12].

(38/1)

فهذه الآيات تبين مدى العلاقة بين أهل الكفر والنفاق وتبين مدى استعداد المنافقين لنصرة الكافرين، غير أن المنافقين جبناء وأهل خيانة وغدر كاليهود لا يفون لأحد بوعد ولو سنحت لهم الفرصة في نصرة الكافرين لولوا الأدبار منهزمين , قال تعالى: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: من الآية4].

ويأبى الله على المؤمنين الصادقين في إيْمانِهم أن تصدر منهم نصرة لأئمة الكفر وأتباعهم بنفس أو مال أو رأي أو قلم أو سلاح.

3. في المودة لأهل الكفر والشرك وقد نَهى الله -تبارك وتعالى- عنها بقوله: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيْمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحُونَ} [المجادلة:22].

قال شيخ الإسلام بن تيمية -رحمة الله عليه-([36]): "أخبر الله أنك لا تجد مؤمنًا يواد المحادين لله ورسوله، فإن نفس الإيْمان ينافي موادته كما ينافي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيْمان انتفى ضده، وهؤلاء أعداء الله. فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه، كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيْمان الواجب". قال عز وجل : {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ} [الممتحنة: من الآية1].

(39/1)

4. كشف أسرار دولة الإسلام والمسلمين لأعدائهم من الكافرين وقد أنزل الله في النهي عن ذلك صدر سورة الممتحنة، وسبب النُّزول مشهور في كتب التفسير كابن كثير وفتح القدير والقرطبي وغيرها من كتب
التفسير المعتبرة.

5. في الرضا عن الكافرين والتشبه بِهم فيما حذرنا منه شرعنا الكامل الطاهر النقي، سواء كان ذلك في باب العبادات أو المعاملات أو الأخلاق أو السلوك، وفي الحديث الصحيح: (من تشبه بقوم فهو منهم)([37]).

6. في مجالستهم والاستمتاع بحديثهم والهش والبش في وجوههم لغير غرض يقره الشرع لاسيما إذا كانوا يهزءون بشيء من دين الله، قال تعالى محذرًا للمسلمين من ذلك: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ المُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء:140]. وقال عز وجل : {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام:68].

7. في الانخراط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية كالشيوعية والاشتراكية والقومية والماسونية، وبذل الولاء لها والمحبة والنصرة لمبادئها التي تحطم العقيدة وتمسخ القلوب، وتعزل العبد عن خالقه ومولاه.

هذه بعض آثار الولاء البغيضة ومظاهره الممقوتة التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتجنبها ويحذرها ويحذر منها، ويعلم علم اليقين أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، والعاقبة للمتقين وأن الخزي والسوء على الكافرين.

الصفة الثانية من صفات حزب الله هي: الْمَحبة لله ولرسوله وللمؤمنين:

فالْمَحبة لله ولرسوله وللمؤمنين فريضة من فرائض هذا الدين، وقد مدح الله المؤمنين الذين امتلأت قلوبُهم بِمحبته، فقال سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: من الآية165]. وقد أخبر النبي ج أن حلاوة الإيْمان وطعمه لا يوجدان لدى العبد إلا بالمحبة الصادقة لله ولرسوله وللمؤمنين حيث قال الرسول صلى الله عليه و سلم : (ثلاث من كن فيه وجد بِهن

حلاوة الإيْمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)([38]).

وكما ثبت عن النبي ج أنه نفى الإيْمان عمن لَم يقدم محبته على محبة الوالد والولد والناس أجمعين، فقال ج: (والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)([39])، وقد جاء رجل يسأل النبي ج عن الساعة فقال له: (وما أعددت لَها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكن أحب الله ورسوله. قال: أنت مع من أحببت)([40]).

وقال عبد الله بن مسعود: (جاء رجل إلى رسول الله ج فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قومًا ولَم يلحق بِهم؟ فقال رسول الله ج: المرء مع من أحب)([41]).

وقال الإمام الحسن البصري([42]) تعليقًا على هذه الأحاديث: (المرء مع من أحب). قال: "إن من أحب قومًا اتبع آثارهم ولن تلحق الأبرار حتى تتبع آثارهم وتأخذ بِهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتمسي وتصبح وأنت على منهاجهم، حريصًا على أن تكون على استقامة، أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء الودية يزعمون أنَّهم يحبون أنبياءهم وليسوا معهم لأنَّهم خالفوهم في القول والعمل وسلكوا غير طريقهم، فصار موردهم النار".

وكم من نص صريح وحديث صحيح قد ورد في فضل التحاب بين المؤمنين عمومًا بقطع النظر عن القرابة أو الجنس أو اللون أو الوطن، بل في الله ومن أجله قال تعالى: {الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المُتَّقِينَ}.

وجاء في الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب([43]) قال: قال رسول الله ج: (إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بِمكانِهم من الله عز وجل . قالوا: يا رسول الله تخبرنا بِهم. قال: هم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونَها والله إن وجوههم لنور، وإنَّهم لعلى نور, لا يخافون إذا خاف الناس, ولا يحزنون إذا حزن الناس)([44]) إسناده حسن. وقرأ هذه الآية: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس:62].

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: (ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه)([45])، وقد اعتبر النبي ج المحبة في الله أوثق عرى الإيْمان حيث ثبت عن ابن عباس مرفوعًا: (أوثق عرى الإيْمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في

الله والبغض في الله عز وجل). إذا عرف هذا، فإن لهذه الصفة أمارات ترشد إليها وعلامات تدل عليها بعضها من وظائف القلوب وبعضها من وظائف الجوارح، فأمارات محبة العبد المؤمن لربه –تبارك وتعالى–، الإيْمان به وبما جاءت به رسله وأنبياؤه إجمالاً وتفصيلاً وامتثال أمره واجتناب نَهيه، والإقبال عليه والاستعداد للقائه والاستحياء منه بحيث لا يفقده حيث أمره ولا يراه حيث نَهاه.

وليعلم العبد أن محبته لربه نعمة من نعم ربه عليه لا يدركها ويشعر بِها إلا من ذاقها وعاش في فردوسها وإذا كان حب الله لعبد من عباده نعمة كبرى ومنحة عظيمة وفضلاً جزيلاً، فإن إنعام الله على عبده بهدايته لحبه وتعريفه الطريق الصحيح لهو تكريم عظيم وعطاء هائل جسيم.

(42/1)

فاللهم ارزقنا حبك وحب من أحبك وحب كل شيء يقربنا إليك، وحببنا إلى أهل سمائك واجعل لنا قبولاً في أرضك بمنك وكرمك.

وأمارات محبة العبد لرسوله ج طاعة أمره واجتناب نَهيه والسير في طريقه وإحياء شرعه بالعمل به والدعوة إليه والجهاد في سبيله في حياته وبعد مماته ومحبته فوق محبة النفس والمال والوالد والولد، والتخلق بخلقه الكريم وذلك بجعل القرآن الكريم إمامًا وقائدًا ومنهج رشد وحياة.

وأما علامات محبة العبد لإخوانه المؤمنين من عرف منهم ومن لَم يعرف ومن شاهد ومن لَم يشاهد فتتضح في الأمور التالية:

1. أن يحبهم ويحب لهم من الخير ما يحبه لنفسه ويكره وصول الشر إليهم كما يكره وصوله إليه، عملاً بقول النبي ج: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)([46]).

2. عيادة مرضاهم واتباع جنائزهم وتشميت عاطسهم وإبرار المقسم منهم وإفشاء السلام بينهم على قدر الطاقة وبحسب الإمكان والاستطاعة، كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ([47]) قال: (أمرنا رسول الله ج بعيادة المريض, واتباع الجنازة, وتشميت العاطس, وإبرار المقسم, ونصر المظلوم, وإجابة الداعي, وإفشاء السلام)([48]). متفق عليه.

3. بذل النصيحة لهم عملاً بقول الناصح الأمين رسول رب العالمين الذي قال: (الدين النصيحة –ثلاثا– حتى قال له أصحابه: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)([49]).

وبما جاء في حديث جرير بن عبد الله البجليرضي الله عنه ([50]) قال: (بايعت رسول الله على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم)([51]).

(43/1)

---

4. السعي في قضاء حوائجهم بحسب القدرة على ذلك امتثالاً لأمر الله القائل: {وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج: من الآية77]. ولقول النبي ج: (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت لله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لَم يسرع به نسبه)([52]) رواه مسلم في صحيحه.

5. زيارتُهم رجاء الثواب من الله إذ قد ورد في فضل الزيارة ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ([53]) عن النبي ج: (أن رجلاً زار أخا له في قرية فأرسل الله له على مدرجته ملكًا فقال: أنى تريد ؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربُها([54]). قال: لا غير أني أحببته في الله. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله أحبك كما أحببته فيه)([55]).

وعنه رضي الله عنه أن النبي ج قال: (إذا عاد المسلم أخاه أو زاره، قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منْزل)([56]).

6. الدعاء لهم، لاسيما بظهر الغيب، فقد روى مسلم عن أبي الدرداءرضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (ما من مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك الموكل بذلك: آمين ولك بِمثل)([57]).

قلت: وكفى بذلك فضلاً وكرامة لمن يتعرض لهذه الفضائل التي يجني ثمارها المسلم حينما يطهر قلبه ويغسل صدره بماء الإيْمان النقي والمحبة الصافية درن الحقد والغل والحسد التي تحول بين الإنسان وبين المحبة لأخيه والشفقة عليه ثم يظل يلهج بالدعاء الخاشع لنفسه ولإخوانه المسلمين فيكسب خيرًا لنفسه ولهم.

(44/1)

---

7. الإصلاح بينهم، عندما تحيط بِهم نزغات الشيطان ويدب بينهم الخلاف ويستفحل الشر وجب على الآخرين إصلاح الشأن ورأب الصدع، قال عز وجل : {إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات:10].

وقال الرسول –عليه الصلاة والسلام–: (كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة)([58]).

وقال أيضًا: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرًا أو يقول خيرً)([59]) متفق عليه.

8. الرفق بِهم والتواضع لهم استجابة لأمر الله –تبارك وتعالى–: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف: من الآية28].

ويقول النبي الكريم ج : (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم)([60]).

9. العفو والصفح عنهم فقد مدح الله فاعلي ذلك فقال: {وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ} [آل عمران: من الآية134].

كما أمر الله المؤمنين بذلك فقال: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: من الآية22].

10. الصبر عليهم واحتمال الأذى منهم احتسابًا لوجه الله تعالى ففي ذلك أجر كبير وفضل عظيم، كما قال عز وجل : {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: من الآية10].

---

11. النصرة لهم، سواء بالمال أو بالنفس أو بالذب عن كراماتِهم وأعراضهم إذ إن ذلك واجب إيْماني، وقد جاء في الحديث الصحيح اللوم والتهديد لمن يترك نصرة أخيه وهو قادر عليها حيث قال ج: (ما من امرئ مسلم يخذل مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلمًا في موضع ينتقص فيه عرضه وينتهك فيه حرمته إلا نصره الله في موطن يحب نصرته)([61]).

وهكذا جاءت الأوامر النبوية في شأن النصرة قوله ج: (انصر أخاك ظالِمًا أو مظلومً)([62])، إلى غير ذلك من النصوص الواردة في الكتاب العزيز والسنة المطهرة التي تدل دلالة واضحة على صدق محبة العبد المؤمن لإخوانه المؤمنين مما لا يدخل تحت الحصر في هذا المقام، ومن أراد استقصاءها فعليه بقراءة القرآن الكريم بتدبر وتؤدة، وقراءة السنة المطهرة وسيرة

النبي الكريم ج وأصحابه والتابعين لهم ممن حفظ الله لنا بِهم هذا الدين الذي جاء به سيد الأنبياء والمرسلين محمد ج وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما الصفة الثالثة والرابعة من صفات حزب الله فهما: الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين: وقد أوضحتهما آيات كريمات من كتاب الله الكريم وأحاديث صحيحة من سنة النبي الصادق الأمين، قال عز وجل : {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِم الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح:29].

(46/1)

وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيْمان مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهم خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ –9, وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيْمان وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر:10].

ففي تلك الآية الكريمة من سورة الفتح أخبرنا الله –تبارك وتعالى– بما وصف به نبيه محمدًا ج وأصحابه الكرام من الكتب السابقة المنَلة على رسولين من أولي العزم من الرسل، وصفهم بأعظم الصفات وأزكاها فقد وصفهم بالشدة على الكفار الذين من شأنِهم الاستهزاء بِهذا الدين الكريم والسخرية منه والتربص به وبأهله الدوائر ويتمنون لهم الهلاك والدمار: {وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ} [فاطر: من الآية43]، {وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: من الآية32]. ولو كره المشركون.

أما فيما بينهم فإنَّهم رحماء متوادون مُتحابُّون متعاطفون يرحم كبيرهم صغيرهم، ويوقر صغيرهم كبيرهم، ويواسي غنيهم فقيرهم، وربما عرض عليه مشاطرة ماله وأهله.

(47/1)

أما صفاتُهم في الاتصال بخالقهم وبارئهم وقيامهم بالتكاليف الشرعية فهم في قمة الطاعة وبالأخص الصلاة، فرائض ونوافل، فإنَّهم أحرص الناس عليها على الوجه المراد، والإكثار منها

حتى ظهر نورها على أبدانِهم وبالأخص وجوههم، وهم لا يريدون بأعمالهم تلك رياء ولا سمعة ولا ثناء من الخلق ولا مدحًا، وإنما يريدون فضلاً من ربِّهم صاحب الفضل والإحسان، ويريدون منه رضوانًا لأنه ذو المغفرة والرحمة والرضوان، وإن لنا فيهم الأسوة الحسنة والقدوة الرشيدة، فينبغي لنا أن نتأسى بِهم ونجعلهم قدوتنا وأئمتنا في القول والفعل والاعتقاد ونسارع إلى ذلك كما سارعوا إليه ونحرص على الالتزام بشرع الله كما حرصوا عليه، وحقًّا إن من نَهج نَهجهم وترسم خطاهم، واقتفى أثرهم فإنه سيصل إلى ما وصلوا إليه:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه} [الأنعام: من الآية**90**].

وأما الآيتان الكريمتان من سورة الحشر فقد جاء الحديث في الأولى منهما عن الأنصار حيث وصفوا فيها بالإيْمان الصادق الذي يحمل صاحبه على كل بر وفضيلة, ويردعه ويحجزه عن كل شر ورذيلة، والذي يطهر القلوب من كل غِلٍّ وحقد، ويزكي النفوس من داء الشح الذي يعتبر سببًا رئيسيًّا في هلاك الأمم ودمار الشعوب: (إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم)([**63**])، كما وصفوا فيها بالمحبة الشرعية لإخوانِهم المهاجرين فقد قاسموهم ديارهم وشاطروهم أموالهم كما مر بك قريبًا، ولِتَرَفُّع نفوس أولئك الصفوة الأنصار عن حطام الدنيا الفاني، ومتاعها الزائل، فقد كانوا لا يحسدون أحدا ممن يعطون من مال الله بل يفرحون ويطمئنون، وكيف يمكن تسرب الحقد والحسد إليهم وهم دائمًا يؤثرون غيرهم بأموالهم وهم في أمس الحاجة إليها.

وهذه صفات من صفاتِهم الكريمة، وخلق من أخلاقهم العظيمة، كما جاء الحديث في الآية الثانية من الآيتين عن كل مؤمن ومؤمنة جاءوا بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة حيث وصفوا بالنصح لأنفسهم ولإخوانِهم الذين سبقوهم بالإيْمان, فقد سخروا ألسنتهم الموافقة لقلوبِهم في طلب المغفرة لهم ولمن سبقهم من أهل الهجرة والإيْمان, وانطرحوا بين يدي بارئهم كي يدفع عن قلوبِهم ما يفسدها لأن القلب إذا فسد فسد الجسد كله، كما جاء في الحديث: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله, وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)([**64**]).

وبجانب ذلك فقد كانوا أعزة على الكافرين كما أمرهم الله بقول الحق: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:**29**].

وقد كان رسول الله ج هو المثل الأعلى والقدوة الحسنة في تطبيق هاتين الصفتين: "أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين" فقد كان رحيمًا بأصحابه يألف ويؤلف، يجيب دعوة الداعي منهم ويقضي حاجة المحتاج، ويعود المرضى ويتبع الجنازة ويستقبل القادم من سفره ويشيع المسافر ويوصيه بالنافع من القول والعمل، ويرحم المسكين بالعطف عليه واللطف به , ويعفو ويصفح ويعلم الجاهل بالرفق واللين , هذا غيض من فيض وقليل من كثير من صفاته الزكية وخلقه الرفيع.

وقصارى القول: فهو كما وصفه ربه بقوله سبحانه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة:128]. وبقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:4].

(49/1)

أما بالنسبة لعدوه المستخف العنيد من المشركين –وثنيين وكتابيين ومجوس وملحدين– فقد كان يواجههم بعزة الإسلام وقوة الإيْمان اللتين وهبهما الله له ولأتباعه المؤمنين، ويتجلى ذلك في خطبته لأصحابه

يوم بدر حين قال: (لا يخرج معنا إلا من كان على ديننا ولا نستعين بِمشرك)([65]) رغم قلة العدد والعدة، ومشى على هذا الخلق الكريم والمنهج السليم والشجاعة النادرة والثقة القوية بالله أصحابه الكرام من مهاجرين وأنصار، الذين ظفروا بمرافقته وتمتعوا بصحبته، وتلذذوا بأحاديثه، واعتزوا بمجالسه وتوجيهاته, وكذلك إخوانه وأتباعه الذين جاءوا من بعده، ممن لا تخفى على ذوي العلم سيرتُهم ولا يعزب عن البال جهادهم وتضحياتُهم.

ولنسمع جميعًا إلى أفضل أصحابه([66])، وهو يقول في حروب الردة: (والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ج لقاتلتهم عليه)([67]).

ولنسمع إلى قصة ربعي بن عامر رضي الله عنه ([68]) حين قابل رستم فقد كان الفرس مدججين بالسلاح وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب, ووضعوا البسط والنمارق في مجلس رستم, وله سرير من الذهب, فأقبل ربعي يسير على فرس له زباء قصيرة ومعه سيف غمده لفافة ثوب خلق ورمح ومجنة وقوس، فلما انتهى إلى أدنى البسط قيل له: انزل، فحملها على البساط فلما استوت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما ثم أدخل الحبل فيهما فلم يستطيعوا أن ينهوه، ثم قالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لَم آتكم فأضع سلاحي بأمركم أنتم، دعوتموني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت فأخبروا رستم. فأذن له، وقال: هل هو إلا

رجل؟ فأقبل ربعي يتوكأ على رمحه يقارب الخطى ويزج النمارق والبسط فما ترك لهم غرفة ولا بساطًا إلا أفسده وتركه متهتكًا مخرقًا، فلما دنا من رستم تعلق

(50/1)

به الحرس وجلس على الأرض وركز رمحه بالبساط فقالوا: ما حملك على هذا ؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه. فكلمه فقال: ما جاء بكم. قال: الله ابتعثنا, والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله , ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعد الله، قال: وما موعد الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى, والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحب إليكم أيومًا أو يومين ؟ قال: لا حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، وأراد مقاربته ومدافعته، فقال: إن مما سن لنا رسولنا محمد ج، وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الأعداء من آذاننا ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاث فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل: اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزية فنقبل ونكف عنك، وإن كنت عن نصرنا غنيًّا تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجا منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، وأنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى. قال: أسيدهم أنت؟ قال: لا ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يشير أدناهم على أعلاهم.

(51/1)

ولنستمع أيضًا إلى موقف آخر من مواقف أبطال الإسلام ذلك البطل هو عبد الله بن حذافة السهمي([69]) حينما جيء به أسيرا في جملة أسرى من المسلمين إلى قيصر ملك الروم, وذلك في خلافة عمر الفاروق رضي الله عنه فقال قيصر لعبد الله بن حذافة: إني أعرض عليك أمرًا فيه سلامتك. قال: وما هو؟ أعرض عليك أن تتنصر، فإن فعلت أشركتك في ملكي ومالي وسلطاني فتبسم بطل الإسلام، وقال كلمته المشهورة الخالدة: والله لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت!!.

قال قيصر: إذن أقتلك. قال: أنت وما تريد، ثم صلبه وعذبه بألوان من العذاب مختلفة، وفي أثناء ذلك يعرض عليه أن يدخل في النصرانية الظالمة, ويدع الحق والهدى الذي جاء به نبي الرحمة والهدى، وهو يجيبه في عزة المؤمن بالله وقوة المتوكل على الله كما كان يجيبه.

وفي نِهاية الأمر والحوار قال قيصر: لي إليك يا عبد الله مطلب آخر. قال: وما هو؟ قال: تُقَبِّل رأسي وأخلي عنك. قال عبد الله: وعن جميع أسرى المسلمين؟ قال: نعم. فتقدم عبد الله وقبل رأسه، فجمع له أسرى المسلمين فدفعهم إليه، فلما قدم عبد الله بن حذافة ومن معه من المسلمين المدينة المنورة، وأخبر عمر بن الخطاب بما صنع عبد الله، فسر بذلك وقام فقبل رأس عبد الله بن حذافة، وقال: حق على كل مسلم أن يقبل رأسك يا عبد الله جزاء ما فعلت([70]).

(52/1)

ولنستمع أيضًا إلى ولي من أولياء الرحمن وبطل من أبطال الإسلام ذلكم البطل المجاهد الأواه المنيب هو: خبيب بن عدي الذي كان أسيرًا عند بني الحارث بن عامر بن نوفل, وكان قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلما خرجوا به إلى التنعيم ليصلبوه ويقتلوه قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا !، قالوا: دونك فاركع. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما, ثم أقبل القوم، فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة، ثم رفعوه على الخشبة، فلما أوثقوه قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا, واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا، ثم قتلوه رحمة الله ورضي الله عنه([71]).

ثم لنستمع أيضًا إلى حوار قوي اللهجة بين عالم شجاع وبين طاغية متكبر جبار أما العالم المؤمن الشجاع فهو: سعيد بن جبير([72]) –رحمه الله ورضي عنه– وأما الطاغية فهو: الحجاج بن يوسف الثقفي –جازاه الله بما يستحق– وقد أفضى إلى ما قدم، وهذه صورة الحوار:

قال الحجاج للإمام سعيد بن جبير: ما اسمك؟ قال: اسمي سعيد بن جبير. قال الحجاج: بل أنت شقي بن كسير. قال سعيد: بل كانت أمي أعلم باسمي منك. قال الحجاج: شقيت أمك وشقيت أنت. فقال سعيد: الغيب يعلمه الله. قال الحجاج: لابد لك يا سعيد لدينا نار تلظى. قال سعيد: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلَهًا. قال الحجاج: فما قولك في محمد؟ قال سعيد: نبي الرحمة، وإمام الهدى. قال الحجاج: فما قولك في علي؟ أهو في الجنة أم هو في

النار ؟ قال سعيد: لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها. قال الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟ قال سعيد: لست عليهم بوكيل. قال الحجاج: أيهم أعجب إليك؟ قال سعيد: أرضاهم لخالقي. قال الحجاج: فأيهم أرضى للخالق؟ قال سعيد: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم. انتهى([73]).

قلت: إن هذا الحوار ليدل على شيئين:

(53/1)

الأول: هو لؤم طبع الحجاج وجرأته على الله بقتل ولي من أوليائه، وهو سعيد بن جبير.

والثاني: هو إيْمان سعيد بن جبير بربه وثباته عند المحنة التي واجهها من الطاغية الجبار العنيد، الذي لقي ما يستحق من الخزي الدنيوي وسيلقى ما يستحق بمشيئة الله من الخزي الأخروي، يوم لا حاكم إلا الله يوم لا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل يأت بِها الله.

فهؤلاء الذين ذكرت من قصصهم هم قليل من كثير من أصحاب رسول الله ج الذين ضربوا أروع المثل في ميدان التضحية فلقد بذلوا الأرواح رخيصة في سبيل الجهر بكلمة الحق, ولم يضعفوا ولم يلينوا لجبابرة الأرض؛ لأنَّهم على علم ويقين أن لا خضوع إلا لجبار السموات والأرض لا إله إلا هو إليه المصير، هذا ولا يجوز أن يؤخذ من قصص هؤلاء جواز الخروج على ولاة المسلمين أبدًا لما في ذلك من الشر المستطير ومخالفة شرع البشير النذير.

أما الصفة الخامسة من صفات حزب الله المفلحين فهي: الجهاد في سبيل الله:

وما أرفع منْزلته في شريعة الإسلام فهو بحق ذروة سنامه، ومن أجل فرائضه، إذ إن الله شرعه ليعبد وحده دون سواه، وليحرر الإنسان –كل الإنسان– في الأرض –كل الأرض– من عبادة المخلوق والخضوع له إلى عبادة الخالق الرزاق الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى، ولأهمية الجهاد وعلو منْزلته وعظمة أهدافه فقد تكفل الله لأهله بالهداية إلى أقوم طريق حيث قال سبحانه: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:69].

وما أكثر النصوص الشرعية التي نادت بفريضة الجهاد, ورغبت فيه, وحثت عليه كل من ينتمي إلى الإسلام، وقد رضي به واتخذه شرعة ومنهاجًا، كما قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [الحج:39].

(54/1)

وقال عز وجل : {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ} [التوبة:123].

وقال سبحانه: {فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُو إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد:35].

وجاء في الحديث الصحيح عن النبي ج أنه قال: (إن في الجنة مائة درجة، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله)([74]).

وقد طبق هذه النصوص الثابتة الصحيحة تطبيقًا عمليًّا رسول الله ج وأصحابه أهل الإيْمان والجهاد الذين فتح الله بِهم الأمصار، ودخل الناس على أيديهم في دين الله أفواجًا، كما طبقها من جاء بعدهم واقتفى أثرهم وسار على نَهجهم في كل زمان ومكان، لأن فريضة الجهاد قائمة وأحكامه ثابتة لَم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل عبر تاريخ القرون وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وقد حذا حذوهم كثير ممن جاء بعدهم من العلماء العاملين والقادة المجاهدين والصالحين المصلحين ممن لهم في العلم باع طويل وفي الجهاد فضل كبير، أذكر منهم على سبيل المثال: الإمام سعيد بن المسيب([75])، والحسن البصري([76]), والأئمة الأربعة([77]).

والإمام مفتي الأنام ابن تيمية([78]), وتلميذه البارع في العلوم ابن قيم الجوزية([79]).

والإمام المصلح محمد بن سعود آل سعود([80])، والإمام المجدد محمد ابن عبد الوهاب([81])، والملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود([82])، والداعية المخلص الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي([83])، وتلميذه الذي فاق أقرانه في زمانه في العلم والدعوة والعمل والزهد والورع الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي([84])، وغير هؤلاء وأولئك كثير من أئمة الهدى والصلاح وقادة الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله الذين أنعم عليهم فزكت نفوسهم وطهرت قلوبُهم وجوارحهم، وطابت أقوالهم وأفعالهم وعلت هممهم وصلحت سرائرهم وعلانياتُهم، ولا غرابة أن يكونوا كذلك فهم الصالحون عند فساد الناس والمصلحون لما أفسد الناس، فرحمهم الله بما صبروا ورزقهم جنة عرضها كعرض السماء والأرض جزاء ما عملوا، وإنني –وقد أكرمني الله بمعرفة كثير من صفاتِهم– لأشهد الله على محبتهم وتقديرهم، كما يجب لهم لأنَّهم أولياء الله حقًّا وأحباؤه صدقًا، كما أنني –والله يعلم– لأتطلع إلى إعداد الزاد الذي أعدوه وأسعى لأسلك الطريق الذي سلكوه لأظفر بالحياة المباركة الطيبة في الدنيا

ولأسعد بجنات تجري من تحتها الأنْهار في دار القرار، بيد أن الشيطان عدو للإنسان، يجري منه مجرى الدماء في العروق قد حال بيني وبين كثير من الطاعات، وحرمني كثيرًا من الباقيات الصالحات, وأوقعني في كثير من الخطايا والذنوب التي أرجو مغفرتَها ممن يبدل سيئات التائبين حسنات، وإنه لجدير بِي –وقد أشهدت ربي على محبة أولئك الأولياء الأخيار– أن أتمثل بقول الإمام الشافعي –رحمه الله–:

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أن أنال بِهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي ... وإن كنا سواء في البضاعة

(56/1)

ثم إنه يجب أن يعلم أن الجهاد الذي يعتبر المقتول فيه شهيدًا وحيًّا مرزوقًا عند ربه هو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله([85])، ولقد سئل رسول الله ج عن الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليرى مكانه، والرجل يقاتل ليذكر، وفي رواية يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، فمن في سبيل الله ؟ فقال ج: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)([86]).
ولابد في الجهاد من إعداد العدة، والأخذ بالأسباب النافعة كما قال عز وجل : {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: من الآية60].
وقد فسر النبي ج الآية بقوله: (ألا إن القوة الرمي.. ألا إن القوة الرمي)([87]). وأهم من القوة الحسية القوة المعنوية قوة الإيْمان الحق، قوة العقيدة الصحيحة المنبثقة من نصوص الكتاب والسنة؛ إذ لا يمكن أن يتم نصر أو يتأتى فتح من الله للمسلمين إلا إذا كان جهادهم من أجل نصرة دين الله والعمل بشريعته في أرضه كما يريد الله؛ أما إذا كان القتال لحماية الأوطان لتشيد على أرضها معاهد الغناء والتمثيل والموسيقى، أو لتبنى فيها مسارح الرقص ومسابح الفجور ودور السينما ومصانع المخدرات والخمور فإن النصر والحالة هذه مستحيل، وما أشبه مطالبيه حينئذ بمن يضرب في حديد بارد ليلين، أو ينفخ في رماد ليتقد، أو يريد زرع جنة بين السماء والأرض لتؤتى أكلها كل حين !!!.
وصدق الله –جل في علاه– إذ قال: {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: من الآية7].

(57/1)

ومن المؤسف أشد الأسف بل مما يبكي ذوي الغيرة والإيْمان في هذا الزمان الذي قد كثر فيه عددنا نحن المسلمين في شتى بقاع الأرض وأخرج لنا كنوزها وجميع خيراتِها لتعمر الأرض كل الأرض بالطاعة لله والمتابعة لرسول الله ج، ولكن معظم الخلق طفقوا ينظرون إلى قوى الشرق والغرب فظلوا حيارى مشدوهين، وما ذلك إلا لأنَّهم يكرهون الموت ويحبون الحياة، وقد قال النبي ج: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل)([88]).

غير أننا مؤمنون بأن على وجه الأرض طائفة مؤمنة راشدة تقول الحق وتعمل به وتدعو إليه وتبلغ ما أنزل الله على رسوله , ولا تخشى إلا الله ولا تخاف من أحد سواه، هذه الطائفة هي التي عناها رسول الله ج بقوله: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله –تبارك وتعالى–)([89]).

وكأني بِهذه الطائفة تردد: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: من الآية249]، {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: من الآية10].

وقبل أن أختم الكلام على هذه الصفة من صفات حزب الله وأوليائه أحب أن أنبه على أمرين مهمين:

الأول: أن الواجب على المسلمين أن يحدثوا أنفسهم بالجهاد ويعزموا عليه صادقين مخلصين متى توفرت شروطه وانتفت موانعه، ويعدوا له العدة فإن الله أمرهم بذلك، فإن لَم يفعلوا فقد عرضوا أنفسهم لأعظم الخطر الذي تضمنه قول النبي ج: (من لَم يغز, ولَم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق)([90]).

(58/1)

ومن الجدير بالمعرفة أن الدعوة إلى الله من خطابة وكتابة وتوجيه وتعليم وأمر بمعروف ونَهي عن منكر جهاد في سبيل الله, فينبغي لمن فاتته معارك القتال والمرابطة في الثغور أن يجاهد بالدعوة إلى الله لتحكم شريعة الله في أرض الله جميعًا ويفقه الناس في دين الله فهنيئًا ثم هنيئًا لمن جاهد في سبيل الله ودعا إلى الله وعمل صالِحًا وقال: إنني من المسلمين.

الأمر الثاني: حول ما يسمى بزمالة الأديان, هذه الفكرة روجها بعض الكتاب المعاصرين، فقد قالوا: إنه يجب أن يكون دين الإسلام الحق مع اليهودية والنصرانية –المحرفتين المجردتين من كل حق وفضيلة–، والمملوءتين بالأباطيل والانحرافات التي لا تدخل تحت الحصر في

هذا البحث المختصر، وبالتالي قالوا: تكون الأديان الثلاثة في وجه المادية الإلحادية تعمل ضدها وترد كيدها، والحقيقة أنَّها سخافة وغفلة عندما يعتبرون اليهودية الحاقدة والنصرانية الضالة محاربتين للباطل والضلال، ومتى عرف أن الباطل يحارب باطلا آخر من أجل إظهار الحق ونصرة الدين؟ بل الإسلام وحده هو الذي يحارب الباطل ويفنده ويدحضه فيكون زاهقًا بإذن الله، ومتى رضي المسلمون بوحدة الأديان الثلاثة واتحاد غاياتِها والمعايشة السلمية بينها فأين التطبيق العملي لركن الولاء والبراء، وعلى أي أساس يكون هذا المبدأ المعلوم من الدين بالضرورة، ألَم يقرأ هؤلاء الكتّاب أصحاب هذه الفكرة الخطيرة قول الله I: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: 51].

ألَم يقرءوها ونظائرها ويمعنوا النظر في مدلولاتِها الصريحة التي تنفي فكرتِهم الخاطئة وتلغي تعاطفهم السقيم!.

وإنه ليؤسفني ويؤسف كل طالب علم عرف الحق بل وكل مسلم عرف أحكام إسلامه أن يقول مصطفى المراغي صاحب التفسير المشهور ما يأتي: "اقتلع الإسلام من قلوب المسلمين جذور الحقد الديني بالنسبة لأتباع الديانات السماوية الأخرى وأقر بوجود زمالة عالمية بين أفراد النوع البشري، ولَم يمانع أن تتعايش الأديان جنبًا إلى جنب"([91]).

كما يؤسف ذوي العلم والبصيرة ما قاله الدكتور عبد الرحمن عميرة([92]) في كتابه "هذا هو الطريق" في هذا المعنى، قال –هداه الله–: "فإذا تعطلت شعائر أهل الكتاب لأي سبب من الأسباب وجب على الحاكم الإسلامي البحث عن هذه الأسباب والعمل على إزالتها فإن كان ذلك لقصور مادي وظف لهم بعض المال من بيت المال، وإن كان لعجزهم عن إقامة بيعة أو كنيسة سارع المجتمع الإسلامي إلى عمل اكتتاب وتشييد المباني لهم امتثالاً لقول رسول الله ج". اهـ.

ويأتي صاحب كتاب الفكر الإسلامي محمد الصادق عفيفي([93])، ويضم صوته إلى صوتي المراغي وعميرة فيقول تحت عنوان حرية العقيدة: "تعد الشريعة الإسلامية الشريعة الوحيدة التي نادت بحرية العقيدة حين تركت لكل إنسان الحرية الكاملة في اعتناق ما يشاء من العقائد السماوية وأن يقيم شعائرها ويدافع عنها ويعمل لها ويدعو غيره للدخول فيها وليس لكائن من كان أن ينكر عليه ذلك" كتاب الفكر الإسلامي (ص18) نشر مكتبة الخفاجي بالقاهرة.

وإذا تأمل القارئ أقوال هؤلاء الثلاثة في هذا الموضوع ظهرت له مغالطاتُهم أو جهلهم بالنصوص الواردة في هذا الموضوع، فأي منصف يمكن أن يقول: إن الدين الإسلامي يسمح للنصراني أن يدعو إلى نصرانيته؟ ولليهودي أن يدعو غيره إلى يهوديته؟ لاسيما في المملكة الإسلامية؟ وإن هذا القول فيه بشرى سارة لكل يهودي أو نصراني بل ولكل صاحب نحلة من النحل الباطلة؛ والحقيقة أن دين الإسلام هو الدين المهيمن على الأديان كلها والناسخ لها ولن يقبل من أحد أن يتعبد بدين غيره أو يدعو إليه ويبشر به، فإن اختار جماعة من اليهود أو النصارى أو المجوس لأنفسهم البقاء على دياناتِهم مع الالتزام بحكم الإسلام فيهم فإننا نتركهم وما اختاروا مع بيان الحق لهم غير أننا لا نعينهم بتشييد الكنائس ولا نعطيهم ولاء محبة لأنَّهم ليسوا للمؤمنين بأولياء وإنما المؤمنون بعضهم أولياء بعض.

فعلى طلاب العلم أن ينتبهوا لما يقرءون، ويزنوه بميزان الشرع لأن شرع الله هو الحكم في كل قضية من قضايا العبادات والمعاملات والسياسة والحكم والحرب والسلم وغير ذلك من الشئون كلها.

قال عز وجل : {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى: من الآية10].

****

الفصل الرابع

في صفات حزب الشيطان الخاسرين

وأما حزب الشيطان: فإن له صفاته وخصائصه، وقد جاءت مبينة في الكتاب والسنة، وها أنا سأذكر بعض هذه الصفات والخصائص لنكون منها على حذر، ومنها :

1. الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والبخل بحق الله وحقوق عباده كما قال عز وجل : {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة:67].

2. الحسد، وهم في ذلك يقتدون بإمامهم إبليس الذي حسد أباهم آدم حين فضله الله بالعلم على سائر المخلوقات آنذاك , وشرفه بسجود الملائكة الكرام له، وكان إبليس من جملة من أمروا بالسجود لآدم فأبى واستكبر وقال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [ص: من الآية 76].

فكان بداء الحسد شيطانًا رجيمًا وبالكبر والإعراض ملعونًا أثيمًا كما هو موضح في نصوص كتاب الله وسنة رسول الله ج, وكم من آية صريحة وسنة صحيحة جاءت في ذم الحسد والحاسدين وخطر الكبر والمستكبرين قال سبحانه: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء: من الآية54].

وقال ج: (إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال: العشب)([94])، وقالعز و جل : {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ}[[الزمر: من الآية60].

وقال ج: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر)([95]).

3. محبة إشاعة الفاحشة في صفوف المسلمين أفرادًا أو جماعات وإيذائهم بغير ما اكتسبوا، ولقد قال الله في هذا الصنف من الخلق: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم} [النور: من الآية19].

4. إعلاء العداوة للمؤمنين، كما دل على ذلك الحديث القدسي الذي رواه النبي ج عن ربه – تبارك وتعالى– حيث قال سبحانه: (من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب)([96]).

5. إفتراء الكذب على الله ظلمًا وعدوانًا كما أخبر عنهم سبحانه بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النحل:117].

---

6. الإعراض عن الدين الإسلامي لا يتعلمونه ولا يعلمونه ولا يعملون به ولقد ذمهم الله وتوعدهم بسبب ذلك في نصوص كثيرة منها قوله سبحانه: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ –36, وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ –37, حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ} [الزخرف:36 – 38].

ومنها قوله عز و جل : {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ[[الأعراف:179].

7. اتباع الهوى وأهله، ورفض الهدى ووسائله وذويه، قال I: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ

وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ[[الجاثية:23].

8. الخصومة بالباطل والسعي بالفساد في الأرض كما قال سبحانه:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ –204, وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ –205, وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ} [البقرة:204 – 206].

(63/1)

---

9. الاستهزاء بدين الإسلام وأهله، قال الله فيمن فعل ذلك: {قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ –65, لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمانكُمْ} [التوبة: من الآية65، ومن الآية66].

هذه بعض صفات حزب الشيطان وهي قليل من كثير وإن واحدة منها لكافية في هلاك صاحبها وشقائه إن لَم يتداركه ربه برحمته فيوفقه للتوبة النصوح التي تجب ما قبلها من الذنوب، ويبدل الله بِها سيئات التائبين حسنات.

****

الفصل الخامس

في نعت طريق الجنة

وأما الطريقان فطريق توصل سالكيها إلى دار النعيم، وتكون سببًا عظيمًا في رضا الرب الرحيم، هذه الطريق هي التي رسمها الله عز وجل لعبده ورسوله محمد ج، ثم أمره أن يعلن للثقلين جميعًا أن هذه الطريق هي التي ارتضاها لهم إلههم وخالقهم، فلا ينبغي لهم أن يعدلوا عنها يمنة أو يسرة، إذ إن في الاستقامة عليها السلامة والنجاة، وفي العدول عنها الشقاء والهلاك , كما قال عز وجل : {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة الأنعام :الآية 153].

}

(64/1)

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ –133, الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ – 134, وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ –135, أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ} [آل عمران:133–136].

فحي على طريق توصل إلى جوار الرب الكريم وتورث الخلود في دار المقامة نزلاً من غفور رحيم، تلكم الدار هي التي وصفها الله لعباده بأجمل الأوصاف تشويقًا لهم وترغيبًا، وحثهم على فعل الأسباب المقربة إليها رحمة منه ليكونوا للجنة وارثين وبجميع أصناف نعيمها متلذذين فقال سبحانه: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:25].

وقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ –30, نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ –31, نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [فصلت:30 – 32].

(65/1)

وغير ذلك من الآيات التي تشتمل على أوصاف الجنات تشويقًا للقلوب وترغيبًا للنفوس، ولقد وصفت الجنات أيضًا في السنة المطهرة بما يتفق مع أوصافها في القرآن الكريم، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ج قال: (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله, تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: بلى والذي نفس محمد بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)([97]).

وفي صحيح البخاري –رحمه الله– عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ج قال: (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض, فإذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنْهار الجنان)([98]).

وفي الصحيحين أيضًا عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ([99]) عن رسول الله ج أنه

قال: (جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)([100]).

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج:

(أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونَهم على أشد كوكب دري إضاءة, لا يبولون, ولا يتغوطون, ولا يتفلون, ولا يتمخطون أمشاطهم الذهب, ورشحهم المسك, ومجامرهم الألوة, وأزواجهم الحور العين, أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء)([101]).

(66/1)

وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قلنا يا رسول الله: إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد. قال: لو تكونوا على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم ولو لَم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر الله لهم. قال: قلنا: يا رسول الله حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت, وترابُها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، ثلاثة لا ترد دعوتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر, ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السموات ويقول الرب: وعزتي وجلالي لأنصرنَّك ولو بعد حين)([102]).

وجاء في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لَها, هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تَهتز وقصر مشيد ونَهر مطرد وثَمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام في أبد في دار سليمة وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في محلة علية بَهية. قالوا: نعم يا رسول الله, نحن المشمرون لَها. قال: قولوا: إن شاء الله. قالوا: إن شاء الله)([103]).

وثبت في الصحيحين أيضًا من حديث أبي بكر بن عبد الله بن قيس([104]) عن أبيه عن النبي ج قال: (إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضً)([105]).

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه : قال رسول الله ج: (يدخل أهل الجنة الجنة على طول

آدم ستون ذراعًا بذراع الملك، على حسن يوسف([106]) وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة وعلى لسان محمد جرد مرد مكحولون)([107]).

(67/1)

وجاء في صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه أن النبي ج قال: (إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناديًا أهل الجنة: إن لكم عند الله موعدًا. فيقولون: ما هو؟ ألَم تثقل موازيننا وتبيض وجوهنا وتدخلنا الجنة وتنجنا من النار. فيكشف الحجاب فينظرون إلى الله، فو الله ما أعطاهم الله شيئًا هو أحب إليهم من النظر إليه)([108]).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرءوا إن شئتم: {وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ} [الواقعة:30])([109]).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت, ولا أذن سمعت, ولا خطر على قلب بشر. قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة:17])([110]).

وورد في صحيح الإمام مسلم –رحمه الله– ما رواه جابر بن عبد الله عز وجل قال: قال رسول الله ج: (يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يَمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ولكن طعامهم ذلك جشاء كرشح المسك يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس)([111]).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ج: (إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء، ولكل امرئ منهم زوجتان، يرى مخ ساقها من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب)([112]).

وفي مسند أحمد وصحيح البخاري وجامع الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ج قال: (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قده –سوطه– من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريْحًا ولأضاءت ما بينهما ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيه)([113]).

(68/1)

وجاء في مسند الشافعي عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ج يقول: (أتاني جبريل وفي كفه كالمرآة البيضاء يحملها, فيها نكتة, فقلت: ما هذه التي في يدك يا جبريل؟ فقال: هذه الجمعة؟ قلت: ما الجمعة؟ قال: لكم فيها خير كثير. قلت: وما يكون لنا فيها؟ قال: يكون عيدًا لك ولقومك من بعدك، ويكون اليهود والنصارى تبعًا لك. قلت: وما لنا فيها؟ قال: لكم فيها ساعة لا يسأل الله عبد فيها شيئًا هو له قسم إلا أعطاه إياه أو ليس له بقسم إلا ادخر له في آخرته ما هو أعظم منه، قلت: ما هذه النكتة التي هي فيها؟ قال: هي الساعة ونحن ندعوه يوم المزيد. قلت: وماذا يا جبريل؟ قال: إن ربك اتخذ في الجنة واديًا فيه كثبان من مسك، فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه فيحف الكرسي بكراسي من نور, فيجيء النبيون حتى يجلسوا على تلك الكراسي ويحف الكراسي بِمنابر من نور من ذهب مكللة بالجواهر, ثم يجيء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا على تلك المنابر, ثم ينْزل أهل الغرف من غرفهم حتى يجلسوا على تلك الكثبان ثم يتجلى لهم عز و جل فيقول: أنا الذي صدقتكم وعدي وأتْمَمت عليكم نعمتي, وهذا محل كرامتي. فسلوني، فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم فينفتح لهم في ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وذلك بِمقدار منصرفكم من الجمعة, ثم يرتفع على كرسيه عز و جل ، ويرتفع معه النبيون والصديقون ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم، وهي لؤلؤة بيضاء وزبرجدة خضراء، وياقوتة حمراء غرفها وأنْهارها وأبوابُها مطردة فيها وأزواجها وخدمها وثِمارها متدليات فيها فليس إلى شيء بأحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادو نظرًا إلى ربِّهم, ويزدادوا منه كرامة)([114]).

قال ابن القيم عقب إيراد هذا الحديث: "هذا حديث كبير عظيم الشأن رواه أئمة السنة وتلقوه بالقبول، وجمل الشافعي به مسنده إذ رواه فيه".

(69/1)

وفي مسند الإمام أحمد([115])، وجامع الترمذي([116]) عن عبد الله بن عمر y قال: قال رسول الله ج: (إن أدنى أهل الجنة منْزلة لرجل ينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وسرره وخدمه، وإن أفضلهم منْزلة من ينظر إلى وجه الله –تبارك وتعالى– كل يوم مرتين، ثم قرأ رسول الله ج: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ –22, إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة:22، 23].

ولعلي أكتفي بِهذا القدر الذي أوردته من كتاب الله وسنة رسوله ج في أوصاف الجنات في هذا البحث وهو قليل من كثير وغيض من فيض يعلم ذلك من كان له اتصال متواصل بقراءة وتفهم

القرآن الكريم وكتب التفاسير المشهورة, وارتباط قوي بكتب السنة المطهرة بالإضافة إلى إدراكه الدقيق وفهمه العميق للغاية العظمى التي يجب أن يسعى كل مسلم لتحقيقها، ومعرفته الصحيحة للحكمة التي خلق الإنسان من أجلها والله المستعان.

ورحم الله الإمام ابن القيم الذي ارتوى من هذه النصوص الصحيحة فتفجرت ينابيع شعره وتدفق جميل نثره في وصف الجنات العاليات الغاليات فمن الشعر قوله:

ولله برد العيش بين خيامها ... وروضاتِها والثغر في الروض يبسم
ولله واديها الذي هو موعد ... المزيد لوفد الحب لو كنت منهم
بذيالك الوادي يهيم صبابة ... محب يرى أن الصبابة مغنم
ولله أفراح المحبين عندما ... يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة ... فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة ... أمن بعدها يسلو المحب المتيم
ولله كم من خيرة إن تبسمت ... أضاء لها نور من الفجر أعظم
فيا لذة الأبصار إن هي أقبلت ... ويا لذة الأسماع حين تكلم
ويا خجلة الغصن الرطيب إذا انثنت ... ويا خجلة الفجرين حين تبسم
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها ... فلم يبق إلا وصلها لك مرهم
ولاسيما في لثمها عند ضمها ... وقد صار منها تحت جيدك معصم
تراه إذا أبدت له حسن وجهها ... يلذ به مثل الوصال وينعم
تفكه منها العين عند امتلائها ... فواكه شتى طلعها ليس يعدم

(70/1)

عناقيد من كرم وتفاح جنة ... ورمان أغصان به القلب مغرم
فيا خاطب الحسناء إن كنت راغبا ... فهذا زمان المهر فهو المقدم
وكن مبغضًا للخائنات لحبها ... فتحظى بِها من دونِهن وتنعم
وصم يومك الأدنى لعلك في غد ... تفوز بعيد الفطر والناس صوم
وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها ... ولم يك فيها منْزل لك يعلم
فحي على جنات عدن فإنَّها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم
وحي على السوق الذي فيه يلتقى ... المحبون ذاك السوق للقوم يعلم

فما شئت خذ منه بلا ثَمن له ... فقد أسلف التجار فيه وأسلموا
وحي على يوم المزيد الذي به ... زيادة قرب العرض فاليوم موسم
وحي على واد هنالك أفيح ... وتربته من أذفر المسك أعظم
منابر من نور هناك وفضة ... ومن خالص العقيان لا تتفصم
مسك قد جعلن مقاعدا ... لمن دون أصحاب المنابر يعلم
فبينا همو في عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجري عليهم وتقسم
إذا هم بنور ساطع أشرقت له ... بأقطارها الجنات لا يتوهم
تجلى لهم رب السموات جهرة ... فيضحك فوق العرش ثم يكلم
سلام عليكم يسمعون جميعهم ... بآذانِهم تسليمه إذ يسلم
يقول سلوني ما اشتهيتم فكل ما ... تريدون عندي إنني أنا أرحم
فقالوا جميعًا نحن نسألك الرضا ... فأنت الذي تولى الجميل وترحم
فيعطيهم هذا ويشهد جمعهم ... عليه تعالى الله فالله أكرم
فيا بائعًا هذا ببخس معجل ... كأنك لا تدري بلى سوف تعلم
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... أو كنت تدري فالمصيبة أعظم

ومن نثره في وصف الجنات قوله –رحمه الله–:
"وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده، وجعلها مقرًّا لأحبابه وأوليائه وملأها من محبته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص.

(71/1)

فإن سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة لا من الحطب والخشب.
وإذا سألت عن ثمرها فأمثال القلال ألين من الزبد وأحلى من العسل، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وإن سألت عن أنْهارها فأنْهار من لبن لَم يتغير طعمه وأنْهار من خمر لذة للشاربين, وأنْهار من عسل مصفى, وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون،

ولحم طير مما يشتهون، وإن سألت عن شرابِهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور، وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير.

وإن سألت عن سعة أبوابِها فبين المصراعين أربعين من الأعوام، وسيأتي عليه يوم وهو كظيظ من الزحام، وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها فإنَّها تستفز بالطرب من يسمعها، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المجد المسرع في ظلها مائة عام لا يقطعها، وإن سألت عن أدنى أهلها فأدنى أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفي عام، وإن سألت عن خيامها وقبابِها فالخيمة الواحدة من درة مجوفة طولها ستون ميلاً من تلك الخيام، وإن سألت عن علاليها فهي غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنْهار، وإذا سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار.

(72/1)

وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب، وإن سألت عن فرشها فبطائنها من إستبرق مفروشة في أعلى الرتب، وإن سألت عن أرائكها فهي الأسرة عليها الحجال مزودة بأزرار الذهب فما لها من خروج ولا ظلال، وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم فعلى صورة القمر، وإن سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين، وأعلى من سماع أصوات الملائكة والنبيين، وأعلى منها خطاب رب العالمين، وإن سألت عن مطاياهم التي يتزاورون عليها فنجائب مما شاء الله تسير بِهم حيث شاءوا من الجنات وإن سألت عن حليهم وشاراتِهم فأساور الذهب واللؤلؤ على الرءوس ملابس التيجان.

وإن سألت عن غلمانِهم فولدان مخلدون كأنَّهم لؤلؤ مكنون، وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم فهن الكواعب الأتراب اللاتي جرى في أعضائهن ماء الشباب، تجري الشمس من محاسن وجهها إذا برزت، ويضيء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت، وإذا قابلت حبها فقل ما تشاء من تقابل النيرين، وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبين، وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين الغضين يرى وجهه في صحن خدها كما يرى في المرآة التي جلاها, ويرى مخ ساقها من وراء اللحم لا يستره جلدها ولا عظمها ولا حللها، ولو اطلعت على الدنيا لملأت ما بين السماء والأرض ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها".

(73/1)

إلى أن قال –رحمه الله–: "فأتراب في أعدل سن الشباب، وإن سألت عن الحسن فهل رأيت الشمس والقمر، وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن من الأغصان، وإن سألت عن النهود فهن الكواعب نُهودهن كالعصف والرمان وإن سألت عن اللون فكأنه الياقوت والمرجان، وإن سألت عن حسن الخلق فهن الخيرات الحسان، اللاتي جمع لهن بين الحسن والإحسان، فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها، وإذا انتقلت من قصر إلى قصر قلت هذه الشمس متنقلة في بروج فلكها، وإذا حاضرت زوجها فيا حسن تلك المحاضرة، وإن خاصرته فيا حسن تلك المعانقة والمخاصرة وإذا سألت عن يوم المزيد وزيارة العزيز الحميد ورؤية وجهه المنَزه عن التمثيل والتشبيه كما ترى الشمس في الظهيرة، والقمر ليلة البدر، كما تواتر ذلك عن الصادق المصدوق.

(74/1)

وقد ثبت في الصحاح والسنن والمسانيد: (أن مناديًا ينادي يوم القيامة: يا أهل الجنة إن ربكم –تبارك وتعالى– يستزيركم فحي على زيارته. فيقولون: سمعًا وطاعة وينهضون إلى الزيارة مبادرين، فإذا النجائب قد أعدت لهم فيستوون على ظهورها مسرعين حتى إذا انتهوا إلى الوادي الأفيح الذي جعل لهم موعدًا، وجمعوا هناك فلم يغادر الداعي منهم أحدًا، أمر الرب –تبارك وتعالى– بكرسيه فنصب هناك، ثم نصب لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من زبرجد ومنابر من ذهب ومنابر من فضة، وجلس أدناهم –حاشاهم أن يكون فيهم دني– على كثبان المسك فما يرون أن أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا حتى إذا استقرت بِهم مجالسهم واطمأنت بِهم مساكنهم نادى المنادي: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا، يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألَم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ فبينما هم كذلك، إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة فرفعوا رءوسهم فإذا الجبار –جل جلاله وتقدست أسماؤه– قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم. فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام. فيتجلى لهم الرب –تبارك وتعالى– يضحك إليهم ويقول: يا أهل الجنة فيكون أول ما يسمعون منه تعالى: أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني، فهذا يوم المزيد. فيجتمعون على كلمة واحدة: أن قد رضينا فارض عنا، فيقول: يا أهل الجنة إني لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتي، هذا يوم المزيد، فسلوني. فيجتمعون على كلمة واحدة: أرنا وجهك ننظر إليه.

فيكشف لهم الرب Y الحجب ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره ما لو لا أن الله قضى أن لا يحترقوا، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه تعالى محاضرة، حتى إنه ليقول: يا فلان أتذكر يوم فعلت كذا، يذكره ببعض غدراته في الدنيا، فيقول: يا رب ألَم تغفر لي؟ فيقول: بلى، بِمغفرتي بلغت منْزلتك هذه)([117]).

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة، ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم في الدار الآخرة، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة".

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ –22, إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ –23, وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ –24, تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فَاقِرَةٌ} [القيامة:22، 25].

ورحم الله علامة عصره، وقدوة من جاء من بعده الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي([118])، إذ وصف الجنة والنفوس المطمئنة الوارثة للنعيم المقيم في جنات النعيم فقال:

فإن تك من أهل السعادة والتقى ... فإن لها الحسنى بحسن فعالها
تفوز بجنات النعيم وحورها ... وتحبر في روضاتِها وظلالها
وترزق مما تشتهي من نعيمها ... وتشرب من تسنيمها وزلالها
وإن لهم يوم المزيد لموعدا ... زيادة زلفى غيرهم لا ينالها
وجوه إلى وجه الإله نواظر ... لقد طالَما بالدمع كان ابتلالها
تجلى لها الرب الرحيم مسلما ... فيزداد من ذاك التجلي جمالها
بِمقعد صدق حبذا الجار ربّهم ... ودار خلود لَم يخافوا زوالها
فواكهها مما تلذ عيونِهم ... وتطرد الأنْهار بين خلالها
على سرر موضونة ثم فرشهم ... كما قال فيها ربنا واصفًا لها
بطائنها إستبرق كيف ظنكم ... ظواهرها لا منتهى لجمالها

قلت: وإن في تلك الأوصاف لروضات الجنات التي تكاد نفوس الصالحين تطير شوقًا إليها لأعظم حافز على العمل الصالح المبرور الذي يكون سببًا في تبوء منازلها، ووسيلة إلى التنعم بأصناف النعيم فيها على سبيل الخلود الدائم والحبور السرمدي الكامل, وكأنني بأهلها يرددون :

لك الشكر يا رب العباد لك الثنا ... أنت الذي وفقتنا وأعنتنا

(76/1)

على فعل ما يرضيك ثم حبوتنا ... بالقرب منك ما أجلك محسنا
غرست لنا دار المقامة مسكنا ... ورضيت عنا ذا الجلال وذا الغنى
فها نحن في دار النعيم تحفنا ... روضاتُها مما اشتهته نفوسنا
أورثتنا أرض الجنان تكرما ... ومن قبل ذا واعدتنا فصدقتنا

****

الفصل السادس
في ذم طريق النار وأوصافها
وأما الطريق الثانية فهي ذات طرق متشعبة متعددة تفضي بسالكيها إلى دار البوار والنكال والجحيم وإلى الغضب الشديد والمقت الكبير من الله العزيز الحكيم، طريق يدعو إليها الشيطان وحزبه في كل زمان ومكان، وأمة طريق حفت جوانبها بالشبهات والشهوات وحببت إلى النفوس الأمارة بالسوء بما فيها من الملهيات والمغريات، فترى أهل الغرور فيها سالكين، ولها محبين، وبِها مفتونين، وإليها داعين وبزينتها ومتاعها معجبين وكأنَّهم غير عالمين بأنَّهم في طريق المغضوب عليهم والضالين، ولقد ضرب رسول الله ج مثلاً رائعًا لطريق الحق المستقيم طريق المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولطرق الشر المضلة المنحرفة فقال ج: (ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: يأيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعًا ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويلك لا تفتحه إنك إن فتحته تلجه)([119]) حديث صحيح.
فما تأويل هذا المثل يا ترى؟ لنسمع قول رسول الله ج وهو يقول في تأويله: (فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم).

(77/1)

وفي رواية جابر([120]) بن عبد الله y قال: (كنا جلوسًا عند النَّبِي ج فخط خطًّا هكذا أمامه، فقال: هذا سبيل الله. وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال: هذه سبل الشيطان. ثم وضع يده في الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:153])([121]).

وجاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه ([122])، فقال: ما الصراط؟ فقال له ابن مسعود: (تركنا محمد ج في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد، ثم رجال يدعون من مر بِهِم فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود رضي الله عنه : {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:153])([123]).

قلت: فبئس الطريق طريقًا يضيع سالكوها في متاهات الهوى والخسران والمهلكات وتنتهي بِهِم إلى دركات جهنم مثوى الظالمين ومقر العصاة، نعم بئس الطريق طريقًا تقف على جوانبها الشياطين ينادون كل فرد من أفراد الإنس والجن قائلين لهم: هلموا إلى قضاء شهواتكم ولذاتكم في هذه الحياة التي خلقت من أجلكم وكونوا على يقين أننا لكم ناصحون، وفي سبيل إسعادكم جادون، وما عليكم إلا أن تغامروا فتتحرروا مما جاء به المرسلون من أمر ونَهي وحلال وحرام ووعد ووعيد وكونوا ضدهم في كل ما يقولون، إلى غير ذلك من زخرف القول ووسائل الخداع والمكر والكيد والغرور.

(78/1)

فمن لَبَّى نداءاتِهم الشريرة وانخدع بمكرهم الأثيم وكيدهم اللئيم، واغتر بإغراءاتِهم الجهنمية فقد ضل سواء السبيل وأورد نفسه دار جهنم وبئس المصير، نعم لقد أورد نفسه نار جهنم التي وصفها الله لنا بأوصاف مخيفة ومفجعة ووصف أهلها بالبؤس وشدة النكال وسوء الحال بما لا مزيد عليه بحيث لو تلي على شم الجبال لتصدعت خوفًا ووجلاً من ذي العزة والجلال.. إذ قال سبحانه: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم:6].

وقال عز وجل : {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء:56].

وقال عز وجل : {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس:27].

وقال –جل وعلا–: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ –106, خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود: 106– 107].

وقال –عز شأنه–: {وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِم سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف:29].

(79/1)

وقال –تبارك وتعالى–: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [فاطر:37].

وقال –جلت عظمته–: {إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ –74, لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ –75, وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ –76, وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ –77, لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [الزخرف:74 78].

وغير ذلك من الآيات التي جاءت تحمل في جملها التخويف بالوعيد الشديد لكل من تجرأ على معاصي الله، ولَم يبال بأوامر الله، ولَم يكترث بذكر الوعد والوعيد، ذلك لأنه سلم نفسه للشيطان وحزبه، واستنكف عن اتباع الهدى نابذًا أمر ربه وراء ظهره ولما كانت السنة المطهرة هي الوحي الثاني، فقد وصفت فيها النار دار الأشقياء بما اتفق مع وصفها في القرآن الكريم، إذ الكل من مشكاة واحدة فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه :

1. عن النبي ج قال: (ناركم هذه التي يوقدها بنو آدم واحدة من سبعين جزءًا من نار جهنم. قالوا: والله إن كانت لكافية. قال: إنَّها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حره)([124]).

2. وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ج قال: (إن أدنى أهل النار عذابًا منتعل بنعل من نار يغلي دماغه من حر نعله)([125]).

(80/1)

3. وفي صحيح مسلم أيضًا عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ج أنه قال: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يابن آدم، هل رأيت خيرًا قط، فيقول: لا والله يا رب)([126]).

قلت: وأحاديث الوعيد كثيرة جدًّا ترتعد فرائص المؤمنين عند سماعها وترجف قلوبُهم خوفًا من يحموم النار وظليلها، وتكتئب النفوس وتوجل من ذكر حرها وزمهريرها، ولقد كان للصالحين مع أنفسهم مواقف عدل وإنصاف فهم يحاسبونَها على التقصير في جنب الله، ويلومونَها أعظم اللوم على الوقوع في محارم الله، يدفعهم إلى ذلك الخوف الشديد من عذاب الله والرغبة الصادقة في نعيم الله ونيل رضاه والاستحياء الحق من الله –جل في علاه–.

حقًّا لقد كان جل تفكيرهم سرًّا وعلنًا، جماعات وفرادى في شأن أسباب الثواب والعقاب والمرجع إلى الله المصير، هل سيكونون من فريق الجنة أم من فريق السعير: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام:90].

ونحن ما أحوجنا أن نكون على مثل ما كانوا عليه من الصلاح والفلاح ومحاسبة النفس على كل تقصير في جنب الله، ولومها على لهوها وغفلتها وعدم مبالاتِها بالقدوم على الله، الذي سيسألها عما قدمت وأخرت، وأسرت وأعلنت، فيفكها عدلها وإنصافها، أو يحبسها جورها في معاملاتِها وسوء اعتقادها.

وبعد قفل سطور هذا الباب من البحث، سأنتقل بك أيها القارئ الكريم إلى الباب الثاني، تحت عنوان:

تذكر يا أخي ولا تكن من الغافلين.

****

([1]) ذكر الله منها التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام ، والإنجيل الذي أنزله على عيسى عليه السلام، والزبور الذي أنزله على داود عليه السلام والفرقان الذي أنزله على محمد ج وصحف إبراهيم عليه السلام .

([2]) الرسل: جمع رسول: وهو إنسان ذكر حر من صفوة البشر أُوحي إليه وأُمر بتبليغه.

])

3]) الأنبياء: جمع نبِي, وهو من أوحي إليه ليبلغ شريعة من كان قبله ويبين للناس ما اختلفوا فيه، وقيل: وهو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

([4]) أخرجه البخاري بمعناه في كتاب العلم (ج1 باب 10 ص25).

([5]) أخرجه الترمذي في كتاب العلم (ج/5 باب 19) ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم (2681 ص48). وأخرجه أحمد في المسند (ج169/5). والدارمي في السنن (98/1). وأبو داود في كتاب العلم (ج3/ رقم 3641). وابن ماجه في المقدمة (ج1/ رقم 223)، وصححه الحاكم وابن حبان، وله شواهد يتقوى بِها كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح (ج1 ص169)، فهو حديث حسن.

([6]) أخرجه الترمذي في كتاب العلم (ج5 باب 29)، في فضل الفقه على العبادة حديث رقم (2685 ص50). وأخرجه الدارمي في موضعين الموضع الأول (ج1 ص88) من طريق يزيد بن هارون وهو ثقة ثبت عن مكحول مرسلاً، وإسناده حسن، والموضع الثاني (ج1 ص98) عن الحسن مرفوعًا وسنده إليه صحيح. انظر خلاصة الكلام على سند هذا الحديث في شرح السنة للإمام البغوي (ج1 ص278).

([7]) المراد بِهذا الحديث هو ما رواه الخطيب البغدادي بسنده عن أبي تميمة عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ج: (مثل.. الحديث) انظر كتاب اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص49) حديث صحيح كما رواه الطبراني في الكبير مطولاً كما في مجمع الزوائد للهيثمي (ج189/1)، وقال: رجاله موثقون.

([8]) أخرجه البخاري (ج6) في كتاب التفسير باب تفسير سورة: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} (ص94).

([9]) أخرجه الإمام مسلم (ج3) بشرح النووي في كتاب الإيْمان باب قوله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء:214]. (ص 82،83).

])

10]) أبو بكر الصديق: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التميمي خليفة رسول الله ج، ولد بعد الفيل بسنتين وستة أشهر، وأول من أسلم من الرجال وشهد المشاهد مع رسول الله ج، وصاحبه في الغار وفي سفر

الهجرة، ولي الخلافة بعد رسول الله ج يوم مات، مكث خليفة للمسلمين مجاهدًا وفاتحًا حتى وافته منيته عشي يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة في قول أكثر أهل السير عن عمر بلغ ثلاثًا وستين سنة رضي الله عنه وأرضاه. انظر الاستيعاب في أسماء الأصحاب، (المجلد2/ ص247،248). وانظر الإصابة في تمييز الصحابة، (المجلد2/ص333).

([11]) تأتي تراجمهم في مواضعها المبينة في الفهرس.

([12]) جعفر بن أبي طالب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي أبو عبد الله: ابن عم النبي ج، وأحد السابقين للإسلام، وأخو علي شقيقه. قال ابن إسحاق: أسلم بعد خمسة وعشرين رجلاً، آخى النبي ج بينه وبين معاذ بن جبل، قال له النبي ج: (أشبهت خلقي وخلقي). استشهد بِمؤتة من أرض الشام في حياة النبي ج، قال في حقه النبي ج : (رأيت جعفر يطير في الجنة مع الملائكة).. انظر الإصابة في تمييز الصحابة (ج/1 ص239).

([13]) هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي: أبي عمارة عم النبي ج وأخوه من الرضاعة، أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، ولد قبل النبي ج بسنتين، وقيل بأربع، وأسلم في السنة الثانية من البعثة، ولازم رسول الله ج، وسماه ج: (سيد الشهداء). الإصابة (ج1 ص353) ، والاستيعاب (ج1 ص270،271).

([14]) هو بلال بن رباح: عتيق الصديق وخازن رسول الله ج عذب في الله أشد العذاب على يدي أمية بن خلف، فاشتراه أبو بكر وأعتقه لوجه الله، مات بالشام في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. حلية الأولياء (ج1 ص149) والإصابة (ج1 ص169).

])

15]) هو صهيب بن سنان بن مالك: شهد المشاهد كلها مع رسول الله ج , خرج من مكة مهاجرًا وترك لقريش جَميع ماله، ونزل فيه قوله عز و جل : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ} [البقرة: 207]، مات في شوال سنة اثنان وثلاثين وهو ابن سبعين سنة كتاب الحلية (ج2 ص250) والإصابة في تمييز الصحابة (ج1 ص188،189).

([16]) سمية بنت خياط: وقيل خيط مولاة أبي صفية بن المغيرة والدة عمار بن ياسر، سابعة سبعة في الإسلام، عذبَها أبو جهل عذابًا شديدًا، وطعنها بحربته في قبلها فماتت، فكانت أول شهيدة في الإسلام. الإصابة (ج4 ص327).

([17]) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة العنسي ثم المذحجي: يكنى أبا اليقظان،

حليف لبني مخزوم، هاجر إلى أرض الحبشة، وصلى إلى القبلتين، وهو من المهاجرين الأولين ثم شهد بدرًا والمشاهد كلها، ثم شهد اليمامة، وقال في حقه الرسول ج: (إن عمارا حشا ما بين أخمص قدميه إلى شحمة أذنيه إيْمانا)، وقال له: (أبشر عمار، تقتلك الفئة الباغية)، فقتل يوم صفين وهو مع علي رضي الله عنه ، وذلك سنة سبع وثلاثين، وعمره آنذاك يزيد على التسعين. الاستيعاب في أسماء الأصحاب (ج2 ص476) وما بعدها.

([18]) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي بن كلاب العبدري: أحد السابقين إلى الإسلام، هاجر إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة فهاجر إلى المدينة فشهد بدرًا ثم شهد أحدًا ومعه اللواء وكان أول من قدم المدينة يُفقِّهُهم في الدين ويعلمهم القرآن. الإصابة في تمييز الصحابة (ج3 ص 401، 402).

([19]) خبيب بن عدي بن مالك بن عامر بن مجدعة الأنصاري الأوسي: شهد بدرًا واستشهد في عهد النبي ج حيث صلبه المشركون على خشبة ومثلوا به وقتلوه سنة أربع من الهجرة. الإصابة في تمييز الصحابة (ج1 ص418) والاستيعاب (ص404).

])

20]) هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن سعد بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي: سبي فبيع بمكة، فكان مولى أم أنمار الخزاعية وكان من السابقين الأولين، وعندما أظهر إسلامه عذب عذابًا شديدًا من أجل إسلامه، ثم شهد المشاهد كلها ونزل الكوفة ومات سنة سبع وثلاثين. الإصابة في تمييز الصحابة (ج1 ص416).

([21]) هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيْمَة بن سعد بن سعد بن زيد مناة بن تَميم التميمي: سبي فبيع بمكة، فكان مولى أم أنمار الخزاعية وكان من السابقين الأولين، وعندما أظهر إسلامه عذب عذابًا شديدًا من أجل إسلامه، ثم شهد المشاهد كلها ونزل الكوفة ومات سنة سبع وثلاثين. الإصابة في تمييز الصحابة (ج1 ص416).

([22]) رواه البخاري في كتاب الإيْمان (ج1 باب 37)، سؤال جبريل عليه السلام نبينا محمدًا ج عن الإسلام والإيْمان والإحسان، (ص18).

([23]) ورد ذلك في صحيح مسلم عن عمرو بن أخطب قال: (صلى بنا رسول الله ج الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر فنَزل فصلى, ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر, ثم نزل فصلى, ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأخبرنا بما كان وبما هو

كائن فأعلمنا أحفظن) مسلم (ج4). كتاب الفتن، باب إخبار النبي ج فيما يكون إلى قيام الساعة (6) حديث رقم (2892).

([24]) إشارة إلى الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر عن أبيه ولفظه: (لعن الله الخمر ولعن شاربَها وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثَمنه)، المسند (ج2 ص97) وإسناده صحيح.

])

(85/1)

25]) إشارة إلى ما جاء في المسند عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله ج: (الدواوين عند الله ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يغفره الله: فالشرك بالله, قال عز وجل : {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ} [المائدة: من الآية 72]. وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئًا: فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها, فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضا القصاص لا محالة). المسند (ج6 ص240). وقد أورده الهيثمي في مجمع الزوائد معزوًّا إلى المسند وقال: فيه صدقة بن موسى وقد ضعفه الجمهور. وقال مسلم بن إبراهيم: حدثني ابن موسى وكان صدوقًا وبقية رجاله رجال المجمع (ج10 ص351).

([26]) إشارة إلى ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (إن أثقل صلاة على المنافقين، صلاة العشاء والفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام, ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس, ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتَهم بالنار) صحيح مسلم بشرح النووي (ج5) باب فضل صلاة الجماعة والتشديد في التخلف عنها (ص154) وسيأتي لهذا زيادة إيضاح إن شاء الله.

([27]) إشارة إلى معنى قوله عز و جل : {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ –16, ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ إيْمانهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف:16، 17].

])

(86/1)

28]) هذا مقطع من حديث، وتمامه: (ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعليكم بالطاعة وإن عبدًا حبشيًّا، وعضوا عليها بالنواجذ فإنَّما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد). رواه الإمام أحمد في المسند (45ج/126/4)، ورواه ابن ماجة (ج1) المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (رقم43)، ورواه الحاكم في مستدركه (ج1) كتاب العلم عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين (ص96) عن العرباض وإسناده حسن.

([29]) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ أن رسول الله ج قال: (من أطاعني فقد أطاع الله, ومن عصاني فقد عصى الله, ومن أطاع أميري فقد أطاعني, ومن عصى أميري فقد عصاني). البخاري (ج8) كتاب الأحكام باب (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (ص104). ومسلم (ج12) كتاب الجهاد باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (ص233)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة (ج2 ص253،252).

([30]) رواه البخاري بِهذا اللفظ وزيادة (وشبك بين أصابعه) (ج3) كتاب المظالم الباب الخامس، نصر المظلوم (ص98)، وكذا أورده في (ج1 باب 88) تشبيك الأصابع في المسجد وغيره بزيادة: (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا وشبك بين أصابعه).

([31]) رواه البخاري بلفظ: (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (ج2) كتاب الأدب، باب (27) رحمة الناس بالبهائم (ص78،77).

([32]) سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك الأنصاري: أحد النقباء، آخى النبي ج بينه وبين عبد الرحمن بن عوف، قتل يوم أحد شهيدًا –رحمه الله ورضي عنه–. الإصابة في تمييز الصحابة (ج2 حرف السين ص25،24).

])

33]) سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك الأنصاري: أحد النقباء، آخى النبي ج بينه وبين عبد الرحمن بن عوف، قتل يوم أحد شهيدًا –رحمه الله ورضي عنه–. الإصابة في تمييز الصحابة (ج2 حرف السين ص25،24).

([34]) أورد هذه القصة البخاري في صحيحه بِهذا اللفظ (ج4) كتاب مناقب الأنصار (باب

3)، آخى النبي ج بين المهاجرين والأنصار (ص222). كما أوردها مسلم أيضًا في فضائل الصحابة.

([35]) هذا اقتباس من آية: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف:28].

([36]) الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر تقي الدين أبو العباس أحمد ابن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أحد الأعلام ولد في ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة وقدم مع أهله سنة سبع فسمع من ابن عبد الدائم وابن أبي اليسر والكمال بن عبد وابن الصيرفي وابن أبي الخير وخلق كثير، وعني بالحديث ونسخ الأجزاء ودار على الشيوخ وخرج وانتقى وبرع في الرجال وعلل الحديث وفقهه وفي علوم الإسلام وعلم الكلام وغير ذلك. وكان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد والشجعان الكبار والكرماء الأجواد أثنى عليه الموافق والمخالف وسارت بتصانيفه الركبان لعلها ثلثمائة مجلد، ذكر جميع هذا تلميذه الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ (ج4 ص1497). كما ذكر أنه توفي في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة –رحمه الله تعالى–.

])

([37]) هذه جملة من حديث رواه أحمد في مسنده بسنده عن ابن عمر y. قال: قال رسول الله ج: (بعثت بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم)، (ج2 ص50) إسناده حسن.

([38]) رواه مسلم بشرح النووي (ج2) كتاب الإيْمان باب خصال الإيْمان (ص13) عن أنس والإمام أحمد في المسند (ج2 ص298) بِمعناه. والترمذي في كتاب الإيْمان باب (10 رقم 2624 ص15) عن أنس. وقال: حديث حسن صحيح.

([39]) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيْمان (ج2) باب وجوب محبة الرسول (ص15) عن أنس.

([40]) رواه البخاري في كتاب الأدب (ج7 باب 96) علامة حب الله عز وجل (ص113)

عن أنس.

([41]) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب (ج7 باب 96) علامة حب الله عز وجل (ص113) ومسلم في صحيحه بشرح النووي في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (ص188).

([42]) الحسن بن أبي الحسن البصري: واسم أبيه يسار –بالتحتانية والمهملة– الأنصاري مولاهم ثقة فقيه فاضل مشهور وكان يرسل كثيرًا ويدلس. قال البزار: كان يروي عن جماعة لَم يسمع منهم فيتجوز ويقول: حدثنا وخطبنا يعني قومه الذين حدثوه وخطبوا بالبصرة هو رأس أهل الطبقة الثالثة مات سنة عشرة ومائة وقد قارب التسعين تقريب التهذيب (ص104) الطبعة الهندية.

([43]) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن زراح بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي أبو حفص، ولد بعد الفيل ب(13 سنة) ولي الخلافة بعد الصديق وكان محدثًا ملهمًا قد جعل الله الحق على لسانه وقلبه، وافقه القرآن في مواضع عديدة، ولفضله وقوة إيْمانه كان الشيطان يفر منه، توفي شهيدًا على يد أبي لؤلؤة المجوسي يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة (24ﻫ)، وكانت خلافته عشرة سنين وخمسة أشهر وواحدًا وعشرين يوماً، وعمره ثلاثًا وستين سنة على الصحيح.

([)

([44]) رواه أبو داود في كتاب البيوع باب في الرهن رقم (3527) من حديث أبي زرعة عن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإسناده منقطع لأن أبا زرعة لم يدرك عمرو وروايته عنه مرسلة ولكنه شاهد عند ابن حبان رقم (2508) من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة وعليه يكون الحديث حسنًا بل وله شواهد.

([45]) حديث السبعة رواه البخاري (ج/1ص161 باب 36) من جلس في المسجد ينتظر الصلاة. رواه مسلم (ج/7 ص121) باب فضل إخفاء الصدقة غير أنه قال: حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله. وهذا قد نبه عليه النووي بأن الصحيح: حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه. مسلم (ج/7 بشرح النووي ص121، 122). وبسط القول في ذلك ابن حجر في الفتح في بيان وهم من وهم بذلك وما في البخاري هو الصواب.

([46]) رواه البخاري كتاب الإيْمان (ج1 باب7 ص9). ورواه مسلم (ج2 ص16) باب

خصال الإيْمان بزيادة "لجاره".

([47]) هو البراء بن عازب بن الحارث الأنصاري عرض نفسه على النبي ج يوم أحد فاستصغره، مات سنة (71).

([48]) أخرجه البخاري بلفظ: (أمرنا النبي ج بسبع ونَهانا عن سبع: أمرنا باتباع الجنائز, وعيادة المريض, وإجابة الداعي, ونصر المظلوم, وإبرار المقسم, ورد السلام, وتشميت العاطس، ونَهانا عن آنية الفضة, وخاتم الذهب, والحرير, والديباج, والقسي, والإستبرق). البخاري (ج2 باب الأمر باتباع الجنائز ص70).

([49]) رواه أحمد في مسنده (ج4 ص102) من حديث تميم الداري، ومسلم في كتاب الإيْمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ورواه أبو داود (ج7 باب في النصيحة ص247) حديث رقم (2777).

([50]) هو جرير بن عبد الله البجلي, روى عن أبيه وابن عمه. ذكره ابن حبان في الثقات.

([51]) رواه البخاري بلفظ: (بايعت رسول الله ج على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم) (ج3 كتاب البيوع باب 68 ص27).

([

52]) رواه مسلم (ج17) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (ص21) بشرح النووي.

([53]) اختلف في اسمه واسم أبيه على أقوال، أصحها عبد الرحمن بن صخر الدوسي، كان من المكثرين من حديث رسول الله ج لكثرة ملازمته له على ملء بطنه وللكرامة التي امتن الله بِها عليه حيث بسط ثوبه فأفرغ الرسول فيه من حديثه فما نسي شيئًا بعد ذلك سمعه من رسول الله ج. كانت وفاته سنة (57') في آخر خلافة معاوية، وله (78) سنة رضي الله عنه . صفة الصفوة (ج1 ص85) وما بعدها. والتقريب (ج1 ص484 حرف الهاء).

([54]) أي تسعى في صلاحها بتربيتها وحفظها بالزيارة.

([55]) رواه مسلم (ج16) كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الحب في الله (ص124).

([56]) رواه الترمذي بسنده قال: حديث حسن غريب (ج4) في كتاب البر والصلة (باب 64) ما جاء في زيارة الإخوان حديث رقم (2008 ص365) وفي سنده عيسى بن سنان وهو

لين الحديث ولكن له شواهد.

([57]) رواه مسلم (ج17) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (ص49). وأبو داود (ج2) في كتاب أبواب الوتر، باب الدعاء بظهر الغيب (ص157).

([58]) هذه قطعة من حديث رواه البخاري (ج4) في كتاب الجهاد (باب 128) من أخذ بالركاب ونحوه (ص15)، ومسلم (ج7) في باب كل نوع من المعروف صدقة (ص94)، ولفظ الحديث بتمامه عن أبي هريرة رضي الله عنه : (كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه شمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها أو ترفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة)، هذا لفظ البخاري، ورواه مسلم بلفظ قريب منه.

([)

59]) رواه البخاري (ج/3) في كتاب الصلح (باب 2) ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس عن أم كلثوم بنت عقبة. ومسلم بأطول من هذا اللفظ (ج/16) في كتاب البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه (ص157). ورواه أبو داود بِهذا المعنى (ج/7) كتاب الأدب، باب إصلاح ذات البين رقم (4752 ص332،331).

([60]) رواه البخاري بسنده عن مصعب بن سعد (ج3) في كتاب الجهاد والسير (باب 76) من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب (ص225). وأحمد في مسنده عن أبي الدرداء (ج5 ص198). والترمذي في سننه عن أبي الدرداء وقال: حديث حسن صحيح. (ج4) كتاب الجهاد (باب 24) ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين رقم (1702 ص206).

([61]) رواه أبو داود بِهذا اللفظ عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري y (ج7) في كتاب الأدب، حديث رقم (4716 ص216،215). وأحمد في المسند (ج4 ص30) عن جابر ولأبي طلحة بن سهل وسنده صحيح.

([62]) رواه البخاري بِهذا اللفظ بسنده عن أنس بن مالك (ج3) في كتاب المظالم باب (4 ص98). وأخرجه مسلم بلفظ قريب من لفظ البخاري (ج16) في كتاب البر والصلة باب نصر الأخ ظالِمًا أو مظلومًا، (ص138،137). بشرح النووي والإمام أحمد في مسنده (ج3 ص324).

([63]) مسلم (ج16) كتاب البر (باب 56 ص134) النووي. وأحمد في المسند (ج2 ص160191) بلفظ عن ابن عمر (ص431).
])

([64]) هذه قطعة من حديث طويل، رواه البخاري ومسلم ولفظه عند مسلم عن النعمان بن بشير قال: سمعته يقول –وأهوى النعمان بأصبعيه إلى أذنيه–: (إن الحلال بين, وإن الحرام بين, وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب). ومسلم بشرح النووي (ج11) في كتاب المساقاة والمزارعة باب أخذ الحلال وترك الشبهات (ص28،27) ولفظ البخاري قريب من لفظ مسلم. في الصحيح (ج1) كتاب الإيْمان (باب 39 ص19).
([65]) رواه أبو داود في الجهاد باب في المشرك لا يسهم له رقم (2732)، وابن ماجه في الجهاد باب الاستعانة بالمشركين رقم (2832) وسنده صحيح.
([66]) أبو بكر الصديق رضي الله عنه سبقت ترجمته.
([67]) رواه أبو داود في كتاب الزكاة (ج2 رقم 1556) , وسنده صحيح.
([68]) هو ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو: من أشراف العرب. الإصابة لابن حجر (ص491) انظر القصة بتمامها في البداية لابن كثير (ج7 ص39)، غزوة القادسية.
([69]) هو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي: من السابقين الأولين إلى الإسلام، يقال: إنه شهد بدرًا، وحينما وجه عمر جيشًا إلى الروم كان فيهم عبد الله فأسروه فروى له ما ذكر في القصة، توفي في خلافة عثمان في مصر وقبر بِها. تمييز الصحابة لابن حجر (ج2 حرف العين ص289).
([70]) ذكر القصة ابن عبد البر في الإصابة (ج296/2) معزوة إلى البيهقي.
([71]) ذكر هذه القصة الذهبي في سير أعلام النبلاء (ج1 ص246).
])

72]) هو سعيد بن جبير بن هاشم: مولى بني واليه بن الحارث بني أسد كنيته أبو عبد الله من عباد المكيين وفقهاء التابعين، قتله الحجاج بن يوسف سنة (95') صبًرا ظلمًا وعدوانًا وله (49 سنة). قلت: وليس ذلك بغريب من الحجاج سفاك الدماء ظلام الأبرياء في هذا وأمثاله، قضى جزاءًا كبيرًا من حياته، وعند الله تجتمع الخصوم. مشاهير علماء الأمصار (ص82).

([73]) ذكر هذه القصة الإمام الذهبي (ج4/133) وما بعدها.

([74]) رواه البخاري في صحيحه (ج3) في كتاب الجهاد والسير، (باب 4) درجات المجاهدين في سبيل الله (ص302) ولفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (من آمن بالله وبرسله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها. فقالوا: يا رسول الله أفلا نبشر الناس ؟ فقال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض, فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة أراه قال: وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنْهار الجنة).

([75]) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن وهب المخزومي أبو محمد القرشي: ولد في صدر خلافة عمر بن الخطاب، وكان من سادات التابعين علمًا وعملاً وفضلاً وفقهًا وورعًا وزهادة، توفى سنة

(93') –رحمه الله–. مشاهير علماء الأمصار للبستي (ص63).

([76]) سبق ترجمته.

([77]) هم:

)

(94/1)

أ) أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي: مولى بني تَيْم الله, رأى أنس بن مالك وروى عن عدي بن ثابت الأنصاري، وعطية بن سعيد الصوفي، قال حفيده إسماعيل بن حماد: ولد جدي النعمان سنة (80 ')، وقال صاحب التهذيب: توفي سنة (150') قيل سنة (151') وعمره سبعون سنة، قال فيه ابن معين: إنه ثقة لا يحدث إلا بما يحفظ، وقال ابن المبارك: أفقه الناس أبو حنيفة طلب منه ابن هبيرة أن يلي قضاء الكوفة فأبى فضربه مائة سوط وعشرة أسواط وهو مصر على المنع وجلا من مسئولية القضاء. تَهذيب التهذيب (ج10 ص149)، التقريب (ج2 ص303).

(ب) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي: إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة، ولد عام (95') وأخذ العلم عن نافع والزهري وطبقتهما, أوذي بسبب الجهر بكلمة الحق فصبر، وتوفى سنة (179'). وكان عظيم الاحترام للنبي ج بعد مماته، وكان يرى النبي ج كل ليلة. صفة الصفوة (ج2 ص177)، الحلية (ص316) وما بعدها.

(ج) أحمد بن حنبل: هو إمام أهل السنة في عصره وسيد علماء الحديث، أحمد بن محمد ابن حنبل الشيباني، ولد في شهر ربيع أول سنة (164') في بغداد، ومات أبوه وهو طفل فربته أمه أحسن تربية، أخذ العلم عن كثير من علماء الأمصار في العراق والشام والحجاز، وثبت أيام المحنة ثبوت الجبال الرواسي رغم طول مدة الأذى التي لا تقل عن ستة عشر عامًا وتوفي – رحمه الله– سنة (241'). صفة الصفوة (ج2 ص236) وما بعدها، حلية الأولياء (ج9 ص161) وما بعدها.

(د) الإمام الشافعي: هو الإمام محمد بن إدريس بن عباس بن شافع بن السائب: ولد سنة (150')، وتوفي (240') كان –رحمه الله– كثير المناقب عظيم الحرص على انتفاع الخلق بمؤلفاته. صفة الصفوة (ج2 ص248)، الحلية (ج9 ص963) وما بعدها.

([78]) سبق ترجمته.

])

(95/1)

79]) هو العالم الرباني شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي بن قيم الجوزية: ولد سنة (691 ') ولما ترعرع اتجه إلى طلب العلم الشريف فأخذ منه بنصيب وافر، له في كل فن باع طويل لازم شيخ الإسلام بن تيمية بعد عودته من مصر واستفاد منه علمًا إلى علمه وزهادة وتقوى, مات –رحمه الله– (751'). البداية لابن كثير (ج14 ص234).

([80]) هو الإمام محمد بن سعود بن مقرن بن سرحان بن مانع: المنسوب إلى بني ذهل من شيبان كان أميرًا على الدرعية، ولما وفد إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدرعية في عام (1158') تعاهدا على نصرة الإسلام وإنقاذ المسلمين من الشرك والضلال فصدقا الله فكان النصر حليفهما واتسعت رقعة دولة الإمام ونمت نموًّا مطردًا في عهده وفي عهد ولده عبد العزيز من بعده وحفيده سعود حتى وصلت إلى اليمن وعسير وتخوم الشام والعراق وقد توفي هذا الإمام المجاهد والألمعى الفاتح الموحد سنة (1179'). عنوان المجد لابن بشر (ص121) وما بعدها، تذكرة أولى النهى والعرفان (ج1 ص31،32).

([81]) هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب شيخ الإسلام ومجدده: ولد في بلدة العينية سنة (1115ه) حفظ القرآن عن ظهر قلب قبل بلوغ عشر سنين ونال من العلوم الشرعية أجمعها حظًّا وافرًا وقام بالدعوة إلى الله كما أمره الله بقوله: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ} [النحل: من الآية125]. ونال من الأذى في سبيلها ما تحدثت عنه كتب التاريخ بإسهاب وتفصيل، وتوفي سنة (1206ه) بعد أن أسس الدعوة الإسلامية تأسيسًا قويًّا وخلف ثروة علمية استفاد منها من جاء بعده إلى يومنا هذا. تذكرة أولي النهى والعرفان (ج1ص14،13) بتصرف.
])

(96/1)

([82]) هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي: ولد –رحمه الله وغفر لنا وله– عام (1297ه)، والمعروف عنه أنه كان صاحب مغامرة جريئة في كل ما من شأنه صلاح للإسلام والمسلمين، وإن تاريخه لحافل بالبطولات وحسن المقاصد وعلو الهمم وصدق العزيمة وخالص النيات، دلت أعماله وتصرفاته على ذلك كله, لقد استعاد ملك آبائه وأجداده في الخامس من شهر شوال سنة (1319ه) وتم له توحيد هذه المملكة الإسلامية الآمنة المطمئنة بفضل من الله ثم بجهاد خالص منه، نوى فيه إحياء العقيدة السلفية والشرعية المحمدية وأمات الوثنية المنتشرة في الجزيرة العربية وقمع البدع وطمس الخرافات التي روجها السحرة والكهنة وأعوانُهم من سادة وضعفاء. وقصارى القول: فإن الملك عبد العزيز من خير الملوك الصالحين والمصلحين حكم بشرع الله في كل شأن من شئون مملكته وأسس بنيانَها على تقوى من الله وأوصى بنيه بذلك، فكل من جاء بعده، وتحمل المسئولية الكبرى والأمانة العظمى واعتبرها تكليفًا شاقًّا وحدثًا مهمًا في تاريخ حياته لإيْمانه العميق وقناعته الثابتة بأن الله سائله غدًا يوم يلقاه عن كل صغيرة وكبيرة مما استرعاه, فلولاة أمورنا علينا السمع والطاعة في كل فضيلة ومعروف، ولهم دعواتنا الخالصة بالهدى والتوفيق والرعاية من الله والحفظ، كما لهم علينا بذل النصح الدائم ودعوتُهم إلى الاستقامة على الحق المنير والعض عليها بالنواجذ وتحكيم شريعة الله العادلة الرحيمة التي من تمسك بِها وحكمها صادقًا مخلصًا حاز السيادة والقيادة، ومنح النصر المؤزر في معترك هذه الحياة، فإذا ما قدم على خالقه ومولاه نال الرضا في رحابه –جل في علاه–. أعود فأقول: لقد توفى الملك عبد العزيز في الثاني من شهر ربيع الأول عام

(1373') وله من العمر 76 سنة بعد حكم دام 54 عامًا.

])

(97/1)

83]) هو الشيخ الجليل والعالم الفذ التقي السخي نبيل الخلق عالي الهمة حسن النية سليم القصد سلفي العقيدة عبد الله بن محمد بن محمد بن حمد القرعاوي: من آل نجد والقرعاوي لقب لأحد أجداده الذي سكن مكانًا يقال له: القرعاء تقع شمال مدينة بريدة بمنطقة القصيم، ولد الشيخ في شهر ذي الحجة في عام (1315') في مدينة عنيزة، وكان والده قد توفي قبل ولادته بشهرين فنشأ، يتيمًا في كنف أمه الصالحة التقية، فعملت على تربيته مبتدئة بتعليمه القرآن الكريم في حلقات المساجد عادة تعليم أهل البلد آنذاك، وعندما شب رغب في مزاولة التجارة، وطفق يذهب مع أحد أعمامه إلى الشام ثم تكررت أسفاره بمفرده متاجرًا في الإبل وقد حالفه التوفيق فكان يربح ربحًا جيداً، مما جعله يكرر الذهاب والإياب في ممارسة التجارة، استمر على هذه الحال مدة لا تقل عن (14 سنة). وفي عام (1344') اختار الله له خير الطرق فسلك طريقًا يلتمس فيه علمًا وله من العمر ثلاثون سنة فسافر إلى الهند فجلس فيها عشرة أشهر يدرس في المدرسة الرحمانية في مدينة دلهي ثم جاءته رسالة من والدته تطلب حضوره فيها بسبب مرضها فلبى دعوة أمه وعاد إلى بلده عنيزة، غير أنه لم يصل إلا بعد وفاة أمه بأيام، فصبر واحتسب وفوض أمره إلى الله، ثم شرع يواصل دراسته في داخل المملكة على أيدي علماء عاملين، ثم رحل إلى الشام ومصر والعراق، يأخذ عن علمائها ويطالع ما يظفر به من كتب الشريعة واللغة، وفي مطلع عام (1355') سافر مرة أخرى إلى الهند وبقي بِها ثلاث سنين يدرس علوم الشريعة واللغة.

(98/1)

وبعدها منح إجازة علمية من شيخه أمير بن أحمد القرشي في كتب الحديث الستة ثم عاد إلى نجد يحمل خير زاد إلى أحوج بلاد إليه وذلك عام (1357')، وفي عام (1358') توجه الشيخ إلى منطقة الجنوب للقيام بعمل الدعوة إلى الله وتفقيه الخلق في دين الله فاستوطن سامطة وجعلها قاعدة لدعوته السلفية وأخذ يدعو الناس بجد متواصل إلى توحيد الله والتمسك بسنة نبيه ج ونبذ الخرافات والبدع التي كانت موجودة آنذاك في معظم البلدان، ثم شرع في

فتح المدارس بالتدريج، وقد أقبل الناس على تلك المدارس ذكورًا وإناثاً، ينهلون من علوم الشريعة الصافية من توحيد وتفسير وحديث وفقه ولغة وتاريخ وغير ذلك من العلوم النافعة التي حرص على نشرها الشيخ المجدد لدين الله في هذه المنطقة وجعل الله بركات في تلاميذه حيث قاموا بالتدريس والدعوة إلى الله وتغيير المنكر على الأسس التي وجههم إليها شيخهم عبد الله بن محمد القرعاوي وفي خلال مدة من الزمن ابتداء من عام (1358هـ إلى 1379') بلغ عدد المدارس 2200 مدرسة في منطقة الجنوب، وكان للحكومة الأيادي البيضاء في دعم دعوة الشيخ المصلح المجدد في منطقة الجنوب وغيرها، وبعد أن توقفت المدارس من عام (1380') تقريبًا انصرف الطلاب إلى مدارس وزارة المعارف، وعندئذ لازم الشيخ بيته، فكان يكثر من تلاوة القرآن حيث كان حافظًا له، ثم اتجه إلى بناء المساجد وحفر الآبار من ماله الخاص حتى وافاه الأجل في يوم الثلاثاء الثامن من شهر جمادى عام (1389') بعد أن بذل جهدًا عظيمًا في نشر الدعوة إلى الله وشرح العقيدة السلفية في جنوب المملكة، وإن آثار دعوته لباقية، فجزاه الله خير الجزاء، وأمطر على قبره جزيل الرحمة والمغفرة والرضا.

([84]) ستأتي ترجمته.

])

(99/1)

85]) يعني المقتول في المعركة وإلا فهناك شهداء جاءت النصوص بذكرهم كمن قتل دون نفسه ومن قتل دون ماله، ومن قتل دون حرمه ونحوهم ممن جاءت بذكرهم نصوص كالمطعون، والغريق وصاحب ذات الجنب, والمبطون وصاحب الحريق, والذي يموت تحت الهدم، والمرأة تموت بجمع.

([86]) هذا الحديث أخرجه مسلم بسنده وعن أبي موسى الأشعري: (أن رجلا أعرابيًا أتى النبي ج، فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر ...). الحديث بروايته (ج3) بشرح النووي باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (ص49)، ورواه البخاري في صحيحه بمعناه عن أبي موسى (ج1 باب 45 ص40)، ورواه الإمام أحمد في مسنده مختصرًا (ج4 ص392).

([87]) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي عن عقبة بن عامر (ج13)، باب فضل الرمي والحث عليه (ص64)، وأبو داود في سننه (ج3 باب الرمي ص371) وما بعدها رقم الحديث (2404)، والترمذي (ج5 رقم 3803 ص148). ورواه الدارمي في سننه (ج2 ص204).

([88]) رواه أبو داود في سننه (ج6 ص165) عن أبي عبد السلام، وتمامه: (ولينْزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن ؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت). قال في التقريب: عبد السلام عن ثوبان غير أبي عبد السلام المجهول, ورواه الإمام أحمد في مسنده.

([89]) أخرجه البخاري (ج8 باب 10 ص149) بغير هذا اللفظ عن المغيرة بن شعبة، وأخرجه مسلم بشرح النووي (ج13) باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين (ص65) بِهذا اللفظ عن ثوبان. ورواه أبو داود في سننه (ج3) مع اختلاف يسير في اللفظ رقم (2374 ص357)، ورواه أحمد في مسنده (ج4 ص93).

])

90]) رواه مسلم في صحيحه شرح النووي عن أبي صالح عن أبي هريرة (ج13) باب ذم من مات ولَم يغز. وأبو داود في سننه (ج3) باب كراهية ترك الغزو رقم الحديث (2399). والإمام أحمد في مسنده (ج5 ص374) والدارمي (ج4) باب من مات ولَم يغز (ص209) بغير هذا اللفظ.

([91]) نقلا عن آثار الحرب في الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي (ص63).

([92]) كاتب معاصر من مؤلفاته:

! المذاهب المعاصرة.

! هذا هو الطريق. وهو الكتاب الذي نقلت منه هذا المقطع (ص54).

([93]) كاتب معاصر، وهذا المقطع نقلته من كتابه: "الفكر الإسلامي، مبادئه ومناهجه" (ص18).

([94]) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الأدب، باب الحسد (ص144) حيث قال: حدثنا عثمان بن صالح البغدادي أنبأنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو وأنبأنا سليمان بن بلال عن إبراهيم بن أبي أسيد عن جده عن أبي هريرة أن النَّبِي ج قال: الحديث، وجد إبراهيم قال فيه أبو حاتم: شيخ مدني محله الصدق، وذكره ابن حبان في الثقات.

([95]) رواه أبو داود عن ابن مسعود (ج6 ص54) رقم الحديث (3933)، ورواه بمعناه أحمد في مسنده عن أبي ريحانة (ج4 ص134). وإسناده صحيح.

([96]) أخرجه البخاري (ج7 باب 38 ص190) وتمامه: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب

إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بِها، ورجله التي يَمشي بِها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته). وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عائشة بمعناه (ج6 ص256).

])

(101/1)

97]) أخرجه البخاري (ج4) في كتاب بدء الخلق باب (8 ص88)، وأخرجه مسلم (ج17) بشرح النووي، في كتاب الجنة وصفة نعيمها (ص169)، وأخرجه الترمذي (ج4) في كتاب صفة الجنة باب ما جاء في ترائي أهل الجنة في الغرف عن أبي هريرة بلفظ آخر، وقال عقبه: حديث حسن صحيح. ورواه أحمد في مسنده (ج5 ص340).

([98]) سبق تخريجه.

([99]) هو عبد الله بن قيس بن سليم: أسلم بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة كان حسن الصوت بالقرآن، واستمع النبي ج لقراءته، وقال له: (أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود)، وكان رجلاً صالِحًا واعظًا، كان عمر يقول له: (يا أبا موسى ذكرنا ربنا, فيقر)، توفي –رحمه الله– سنة (53') وقيل: سنة (43') وقيل غير ذلك ودفن بمكة في قول. وفي قول آخر: أنه دفن قرب الكوفة، الإصابة (ج2 ص359).

([100]) أخرجه البخاري (ج8) في كتاب التوحيد (باب24/ص185)، وأخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي (ج3) في كتاب الإيْمان، باب إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم (ص16) وأخرجه الترمذي (ج4) في كتاب صفة الجنة (باب 3 ص673).

([101]) أخرجه البخاري (ج4) في كتاب بدء الخلق (باب 8 ص86)، وأخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي (ج17) فِي كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (ص171)، وأخرجه الترمذي (ج4) في كتاب صفة الجنة (باب 7 رقم 2537 ص 678)، ورواه أحمد في مسنده (ج2 ص232) عن أبي هريرة ورواه الدارمي في سننه (ج2 ص334) مختصرًا.

([102]) رواه الترمذي (ج4) رقم (2526 ص672، 673)، وسنده صحيح.

([103]) رواه ابن ماجه (ج2) في كتاب الزهد (باب 39 ص1449). قال في الزوائد: في إسناده مقال إذ في سنده الضحاك المعافري الدمشقي ذكره ابن حبان في الثقات، وقال

الذهبي في طبقات التهذيب: مجهول. كما في سنده سليمان بن موسى مختلف فيه، وباقي رجال إسناده ثقات، ورواه ابن حبان في صحيحه، انتهى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي لابن ماجه.

]

(102/1)

104] أبو بكر بن عبد الله بن قيس البكري البصري: روى عن معن بن عبد الرحمن المهري وعنه محمد بن عبيد بن حساب. التهذيب (ج12 ص27).

[105]) رواه البخاري (ج6) في كتاب التفسير، تفسير سورة الرحمن (ص76) بقريب من هذا اللفظ. ومسلم في صحيحه بشرح النووي (ج17) في كتاب الجنة وصفة نعيمها بِهذا اللفظ (ص175). والترمذي (ج4) في كتاب صفة الجنة عن أبي موسى الأشعري (ص673) وقال: حديث حسن صحيح. والدارمي (ج2) باب في خيام الجنة بالسند المذكور (ص336).

[106]) هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة السلام: ابتلي يوسف بعدة ابتلاءات، فاتقى الله وصبر ففاز بحسن العاقبة وسعادة الدارين: {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ} الآية.

[107]) رواه الترمذي في سننه (ج4) عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بن جبل بلفظ: أن النبي ج قال: (يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مردًا مكحلين أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين). قال الترمذي :حديث صحيح. وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده (ج2 ص295 وص 343و415)، وابن أبي الدنيا بسنده عن أنس بن مالك. والدارمي في سننه (ج2 ص 335) عن أبي هريرة بلفظ: (شباب جرد مرد كحل لا تبلى ثيابُهم ولا يفنى شبابُهم) قلت: بكثرة طرقه يعتبر صحيحًا إن شاء الله.

[108]) رواه مسلم (ج3) باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربِّهم سبحانه (ص17). ورواه الإمام أحمد في مسنده (ج6) عن صهيب بن أدة ثم تلا قوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } [يونس: من الآية26] (ص15،16). ورواه الترمذي (ج5) في كتاب تفسير القرآن (باب 11 رقم 3105 ص286).

]

(103/1)

109]) أخرجه البخاري (ج4) في كتاب بدء الخلق (باب 8 ص87) عن انس بن مالك. وأخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي (ج17) في كتاب الجنة وصفة نعيمها (ص167). وأخرجه الترمذي (ج4 باب 1 رقم 2524 ص671)، ورواه أحمد في مسنده (ج2 ص257).

([110]) أخرجه البخاري (ج6) في كتاب التفسير (باب1 ص21) وكذا في كتاب التوحيد (باب 35 ص197، 198). وأخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي (ج17) في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (ص166). وأخرجه الترمذي (ج5 باب 33 رقم 3197 ص346) ورواه أيضًا في كتاب تفسير القرآن باب (57) رقم الحديث (3292) بأطول من هذا اللفظ، وقال: حديث حسن صحيح. والدارمي في سننه (ج2 ص335)، ورواه الإمام أحمد في مسنده (ج2 ص446،438، 495).

([111]) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي (ج17) في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (ص174)، ورواه الترمذي (ج 4 باب 7) عن أبي هريرة بأطول من حديث جابر، ولعل حديث جابر يعتبر قطعة منه (ص698). والبخاري (ج4) باللفظ الذي ورد في سنن الترمذي عن أبي هريرة. والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة (ج2 ص316). والدارمي (ج2) باب في أهل الجنة ونعيمها (ص335).

([112]) سبق تخريجه فارجع إليه إن شئت.

([113]) الإمام أحمد في المسند (ج3 ص141) عن أنس والبخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (ص204) والترمذي في كتاب فضائل الجهاد، (باب 17) فضل الغدو والرواح في سبيل الله، وقال: حديث صحيح. (ج4 رقم 1648 ص180).

])

114]) أورده الشافعي في مسنده في كتاب إيجاب الجمعة (ص360) عن عبد الله بن عمير أنه سمع أنس بن مالك يقول له الحديث مع اختلاف في بعض الألفاظ، كما أورده أيضًا في كتابه الأم (ج1) باب فضل الجمعة (ص157) بالسند المذكور عن أنس وعن أبي هريرة، ثم أشار إلى شيء من هذا ابن القيم –رحمه الله– في زاد المعاد بتحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، فقالا في تحقيقهما لهذا الحديث ما نصه: "رواه الشافعي في الأم بنحوه من حديث أنس بن مالك، وفي سنده إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي وهو متروك،

وموسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف". وأخرجه الطبري في جامع البيان (175/86) بأبسط منه وفي سنده عثمان بن عمير البجلي وهو ضعيف انظر زاد المعاد والتحقيق المذكور (ج1 ص64).

قلت: وإن كان في أسانيد هذا الحديث ضعف فإن وروده من عدة طرق يدل على صحة معناه أضف إلى ذلك ثناء ابن القيم عليه في كتابه "حادي الأرواح" بعد ما أورده, انظر (ص 184).

([115]) (ج2 ص13).

([116]) (ج4) كتاب صفة الجنة (رقم 2553 ص688) وإسناده ضعيف بسبب ثوير بن أبي فاختة متفق على ضعفه وقد ذكره الهيثمي في المجمع (ج10 ص401) مختصرا وقال: رواه أحمد وفي إسناده ثوير بن أبي فاختة وهو مجمع على ضعفه.

([117]) رواه الترمذي بنحوه عن أبي هريرة (ج4 في باب 15)، ما جاء في سوق الجنة رقم الحديث (2549 ص685). وقال الترمذي عقب إيراده هذا: "حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

])

118]) هو حافظ بن أحمد بن علي الحكمي –رحمه الله–: ولد عام (1342ْ). وقرأ القرآن في المسجد على عادة دراسة أهل المنطقة آنذاك، ثم اشتغل برعي الغنم لوالده، وفي أثناء الرعي كان يحمل مصحفه معه، ولما قدم الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي إلى منطقة جازان، ذكر له حافظ وما لديه من رغبة في العلم، فذهب إلى قريته التي كان يسكنها مع أسرته، قرية الجاضع التي تبعد عن مدينة سامطة ستة كيلو مترات تقريبًا من الناحية الشرقية فوجد الشيخ القرعاوي الشاب الذكي حافظ بن أحمد الحكمي ورأى فيه ما أعجبه من الذكاء وحسن الأدب، وملامح النجابة والرجولة فطلب من أبيه الموافقة على تفرغه لطلب العلم الشريف وبين له ما سيناله من الأجر الوفير والخير الكثير في هذه الحياة وبعد الممات وألح عليه في الطلب حتى اقتنع ثم تفرغ الطالب المنهوم للتحصيل العلمي عام (1360ْ) فأخذ يواصل الدراسة والقراءة ليلاً ونَهارًا ويدرس على شيخه عبد الله بن محمد القرعاوي، ويطبق ما علمه تعليمًا وعملاً، فبرز على جميع أقرانه، وغدا بحق أعجوبة زمانه، وذلك بكثرة حفظ المتون نظمًا ونثرًا، والنظر في شروحها والاستفادة من كل فن من فنون العلم على اختلاف أنواعها ومسمياتِها والدليل على ذلك مؤلفاته الكثيرة المنشورة والمنظومة والتي منها كتاب

"سلم الوصول" وشرحه "معارج القبول" في مجلدين كبيرين في العقيدة السلفية والرد على أهل الزيغ والانحراف عن عقيدة السلف الصالح، علمًا أن معارج القبول هذا أصبح من المراجع المهمة لأهل الدراسات العليا في العقائد في عصرنا الذهبي وفي بلدنا الذي شجع فيه العلم والعلماء من حكومتنا الرشيدة التي قام ملكها على أسس قويمة من الشريعة والعقيدة ومنها أعلام السنة المنشورة في اعتقاد الطائفة المنصورة في العقيدة أيضًا وهو على طريقة السؤال والجواب، ومنها المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية، ومنها الجوهرة الفريدة نظمًا في العقيدة والدفاع عنها

(106/1)

والبراءة من أعدائها وخصمائها، ومنها دليل أرباب الفلاح لتحقيق فن الإصلاح على طريقة السؤال والجواب، ومنها النور الفائض في علم الفرائض, وله مؤلفات كثيرة غير ما ذكرت، منها المطبوع ومنها المخطوط نظمًا ونثرًا.

هذا بالإضافة إلى قيامه بالخطابة والتدريس والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان له قبول في الأرض، فإذا ما أتى أهل المنكر يدعوهم إلى تركه ردوا عليه سمعًا وطاعة وبالتالي فقد كان شيخنا الفاضل علما من أعلام العلماء، وداعية مخلصا من خيرة الدعاة إلى الله، ومؤلفًا قديرًا نظمًا ونثرًا في كل فن من فنون العلم الشرعي الشريف، رغم قصر عمره المبارك حيث وافاه الأجل المحتوم في يوم **18** ذي الحجة عام (**1377**ﻫ) في مكة المكرمة وله من العمر خمس وثلاثون سنة وثلاثة أشهر فرحمه الله رحمة الأبرار الأتقياء وغفر له مغفرة المجاهدين الشهداء ورفع درجته بحشره يوم القيامة في زمرة الأنبياء.

ونحن يا ربنا نمد أكف الضراعة إليك، ونطمع في الفضل والإحسان الذي بين يديك، نسألك اللهم أن تجعلنا من حزبك المفلحين، وأوليائك المتقين وأن تحسن إلينا بمغفرة الذنوب، وستر العيوب وأن تحشرنا في زمرة الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، إنك أكرم مسئول وخير مرجو ومأمول.

(**[119]**) رواه الإمام أحمد في المسند ج**4** ص**182**. وسنده صحيح عن نواس بن سمعان.

(**[120]**) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام: يكنى أبا عبد الله أحد المكثرين من الحديث عن رسول الله ج غزا مع النبي ج تسع عشرة غزوة، وكانت له حلقة في المسجد النبوي في آخر حياته يؤخذ فيها عنه العلم، مات سنة ثمان وسبعين وقيل سنة أربع وسبعين عن عمر بلغ أربع وتسعين سنة –رحمه الله ورضي عنه–. الإصابة (ج**1** ص**214**).

([121]) رواه أحمد في مسنده (ج3 ص397) حديث صحيح. ورواه ابن ماجه (ج1) المقدمة باب اتباع سنة رسول الله ج (رقم 11) وسنده صحيح.
])

(107/1)

122]) هو عبد الله بن مسعود بن الحارث: ينتهي نسبه إلى مضر، كنيته أبو عبد الرحمن، أسلم بمكة إذ هو سادس ستة في الإسلام، وهو أول من جهر بالقرآن على رءوس قريش بصوته الحلو، شهد بدرًا والمشاهد كلها، من القراء المشهورين، ومن كبار فقهاء الصحابة، سكن الكوفة مدة، ومات بالمدينة سنة (32ْ)، ودفن بالبقيع، وكان له يوم مات بضع وستون سنة. مشاهير علماء الأمصار (ص10).

([123]) رواه ابن جرير في تفسيره (ج12 ص230) موقوفًا على ابن مسعود.

([124]) أخرجه البخارى (ج4) في كتاب بدء الخلق باب (10 ص 9). ومسلم في صحيحه بشرح النووي (ج17) في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب جهنم أعاذنا الله منها (ص197). ورواه الدارمي (ج2) في كتاب الرقائق (باب 120 ص340).

([125]) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي (ج3) في كتاب الإيْمان باب التخفيف عن أبي طالب بسبب النبي ج (ص 85). والترمذي (ج4 باب 12 ص 716)، وأحمد في مسنده (ج3 ص 27، 78) بلفظ أطول.

([126]) رواه مسلم في صحيحه ج17 ص 149 بشرح النووي.

****

الفصل الأول

خطر الموت وسكراته

نعم تذكر ما وراءك من الموت وسكراته، فإن للموت سكرات، كما قال تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق:19].

(108/1)

نعم إن للموت لسكرات، اغتم بِها أشرف الخلق فقد كان ج ساعة احتضاره يكشف خميصة "كساء" عن وجهه وهو يقول: (إن للموت لسكرات). وهو رسول الله، وخليله، وأفضل خلقه،

ومبلغ رسالته وشرعه وهو المعصوم من الخطايا والذنوب والمغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهو الموعود بالمقام المحمود والحوض المورود في اليوم الموعود، فكيف بنا معشر بني آدم ونحن الخطاءون المذنبون، كيف سيكون حالنا عند نزول هاذم اللذات ونحن الذين في كل ساعة من ساعات العمر نقترف ذنبًا من الذنوب، ونقع دائمًا في شتى المخالفات، سواء كان ذلك فيما بيننا وبين الله، أو بيننا وبين خلق الله.

نعم كيف بنا إذا بلغ منا الأمر كما قال الله, وقوله الحق: {فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ –83, وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ –84, وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ} [الواقعة:83، 85].

فاللهم يا كريم يا رحيم اجعل حالنا ساعة احتضارنا كحال من أخبرت عنهم بقولك المبين: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل:32].

ولا تجعله كحال من أخبرت عنهم بقولك: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام:93].

****

الفصل الثاني

فتنة الخلق في القبور وإثبات نعيم القبر وعذابه

وتذكر ما بعد الموت من فتنة القبور، وهي سؤال الملكين منكر ونكير لكل من مات سواء دفن في القبور أو أكلته السباع أو تخطفته الطيور أو ذرته الرياح في البراري والبحور، لابد من السؤال عن الرب وعن الدين وعن الرسول، فأعد يا أخي للسؤال جوابًا، واحسب لهذا الفتنة حسابًا، إذ لا مفر ولا محيص منها، وعندها يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، ويضل الله الظالمين.

ورحم الله شيخنا حافظ بن أحمد الحكمي الذي قال في هذا المعنى :

وإنا كل مقعد مسئول ... ما الرب ما الدين وما الرسول

وعند ذا يثبت المهيمن ... بثابت القول الذين آمنوا
ويوقن المرتاب عند ذلك ... بأنَّما مورده المهالك

(110/1)

وإن أردت أن تطلع على تفاصيل تلك الفتنة –نجانا الله منها– لتزداد موعظة وذكرى، وخوفًا وخشيةً واستعدادًا فاسمع –ثبتك الله وهداك– إلى ما رواه الإمام أحمد –رحمه الله– عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (خرجنا مع الرسول ج في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس الرسول ج وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر –مرتين أو ثلاثًا– ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة، نزل إليه الملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بِها فلا يمرون بِها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الريح الطيبة. فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بِها في الدنيا حتى ينتهوا بِها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بِها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى.

(111/1)

قال: فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ج. فيقولون له: وما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابًا إلى الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. قال: ويأتيه رجل حسن

الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت فوجهك الذي يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله، وغضب. قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لَم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بِها فلا يَمرون بِها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بِها في الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ج: {لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاط} [الأعراف: من الآية40].

(112/1)

فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحًا. ثم قرأ: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: من الآية31]. فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادى مناد من السماء: أن كذب فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها, ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة).

وفي رواية في قصة المؤمن([1]): (حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء وليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم).

وفي رواية في قصة الكافر([2]): (ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بِها جبل كان ترابًا، فيضربه ضربة فيصير ترابًا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربةً أخرى

فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين. قال البراء: ثم يفتح له باب من النار ويُمهد له فراش من النار)([3]).

ورواه أبو داود([4])، والنسائي([5])، وابن ماجه([6]) بنحوه.

قلت: إنه لجدير بجميع المسلمين والمسلمات أن يتعلموا هذا الحديث الجليل ويتأملوا ما دل عليه من مشهد الخير والفضل والإحسان لمن كان من أهل الخير والفضل والإحسان، وما دل عليه أيضًا من مشهد التوبيخ والتنكيل والتعذيب لأهل الكفر والفسوق والعصيان جزاء وفاقًا، وذلك مقتضى حكمة الملك الديان.

(113/1)

وحقًّا إن من استحضر ذلك المشهد في كل وقت وحين، وكان من العقلاء والصالحين فإنه سيعد للسؤال جوابًا، وسيحسب لتلك الفتنة الرهيبة حسابًا، طالبًا من ربه الهداية والتوفيق والثبات في هذه الدنيا وبعد الممات.

****

الفصل الثالث

مشهد خروج الموتى من قبورهم

وتذكر مشهد خروج الموتى من قبورهم أحياء للجزاء على أعمالهم كما قال تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ} [يس:51].

وقال ج: (تحشرون حفاة عراة غرلاً. فقالت أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–: يا رسول الله ينظر أو يرى بعضنا بعضًا ؟ قال: لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه)([7]).

ثم يقفون في عرصات القيامة قي صعيد واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس قدر ميل أو ميلين ويلجمهم العرق لدنو الشمس منهم وهم ينتظرون ربَّهم ليفصل بينهم ويريحهم من ذلك الموقف، ولا يتأتى لهم ذلك حتى يشفع فيهم رسول الله ج كما سيأتي ذلك مفصلاً في حديث استشفاع الخلائق بالأنبياء والرسل.

الفصل الرابع

في استشفاع الخلائق بالأنبياء يوم القيامة

فقد جاء في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي النبي ج يومًا بلحم قال: (فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نَهسة، ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون بِما ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم([8])، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لَم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه كان نَهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا([9])، فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لَم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، إنه كانت لي دعوة دعوت بِها على قومي، نفسي، نفسي.. اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى إبراهيم.

فيقولون: يا إبراهيم([10]) أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى من نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لَم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسي، نفسي.. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى([11])، فيقولون: يا موسى اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لَم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسًا لَم أومر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى([12]) فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله، كلمت الناس في المهد، وكلمة ألقاها إلى مريم، وروح منه، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لَم يغضب قبله مثله ولَم يذكر له ذنبًا، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد.

فيأتون فيقولون: يا محمد([13]): أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق حتى آتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي عز و جل ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحد من قبلي ثم يقول ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأقول: يا رب، أمتي –ثلاث مرات–. فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيْمن من أبواب الجنة، هم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى) رواه الشيخان وأحمد والترمذي([14]).

قلت: يا له من مشهد رهيب ويوم مهيل عصيب، تكاد تنخلع قلوب المؤمنين عند تصور وقائعه وسماع أحداثه وأهواله وتتردد أنات النفوس كلما تذكرت ما سيكون من طلب الأمم المحشورة الشفاعة من صفوة الخلق أنبياء الله ورسله فإذا هم قد أهمتهم أنفسهم وبلغ منهم الخوف مبلغه، وعظم استحياءهم من ربِّهم لمعرفتهم لجلال قدره وعظمة قهره ونفوذ سلطانه فكل واحد منهم –صلوات الله عليهم– يرى أن غيره أهلٌ للشفاعة منه، بدليل أن كل واحد منهم يحيل المهمة إلى غيره خوفًا من غضب الله الواحد القهار، حتى ينْزل الطلب بساحة من جعله الله أهلاً لتلك الشفاعة العظمى والمقام المحمود، سيد ولد آدم وخاتم الرسل محمد ج، فيقول: أنا لها، كما مر بك مفصلاً.

(116/1)

فاللهم شفع نبيك فينا، ولا تحرمنا خير ما عندك من الفضل والإحسان بشر ما عندنا من التقصير والعصيان. آمين.

****

الفصل الخامس

في محاسبة الله للخلائق

ثم تذكر محاسبة ربك للخلائق وأنت واحد منهم على أعمالهم التي اكتسبوها في الحياة الدنيا من خير وشر حيث توضع الموازين وتنشر الدواوين وتتطاير الصحف، قال عز وجل : {وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِها وَكَفَى

بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء:47].

فيوزن العامل وعمله وصحيفته كما دلت على ذلك النصوص: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ –6, فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ –7, وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ –8, فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ –9, وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ – 10, نَارٌ حَامِيَةٌ} [القارعة:من 6 11].

وأشار سبحانه إلى نشر الدواوين بقوله: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ الزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا –13, اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الاسراء:13، 14].

فآخذ كتابه بيمينه إلى الجنة فرحًا مسرورًا يقول: {هَاؤُمُ اقْرَءوا كِتَابِيَهْ –19, إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ –20, فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ –21, فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ –22, قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ –23, كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ}.

وآخذ كتابه بشماله إلى النار: {فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ –25, وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ – 26, يا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ} [الحاقة: الآيات].

(117/1)

ومثل هذه الآيات في الدلالة على المعنى قوله سبحانه: {يَأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ –6, فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ –7, فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا –8, وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا –9, وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ –10, فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا – 11, وَيَصْلَى سَعِيرًا –12, إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا –13, إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ –14, بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا} [الانشقاق:6 15].

قلت: لقد أراد ربي الذي علم فريق الجنة وفريق النار أن يخفي على خلقه مصيرهم، ويُبْهم عليهم دارهم، وقد أحصى عليهم أعمالهم ليكونوا راغبين وراهبين وراجين وخائفين، وإنما الأعمال بالخواتيم.

وأنا العبد الفقير المعترف أمام ربي بالوقوع في الخطأ والتقصير، لا أدري من أي الفريقين يا رب، أمن فريق الجنة، أم من فريق السعير، غير أن لي فيك يا غفور يا رحيم، ويا كريم يا حليم، حسن ظن عظيم، ورجاء وطمعًا في عفوك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا الله أنت الأحد الصمد، الذي لَم يلد ولَم يولد، ولَم يكن له كفوًا أحد، أن تجعلني من فريق جنتك الفردوس، إنك خير مسئول، وأكرم مرجو وأعظم مأمول.

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ –180, وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ –181, وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ} [الصافات:180 182].

****

الفصل السادس

مشهد العبور على الصراط

ثم تَذَكَّر العبور على الصراط، وهو الجسر الذي ينصب على متن جهنم فتعبره الخلائق على قدر أعمالهم، كما تقتسم أنوارها كذلك: {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: من الآية40].

(118/1)

قال الله عز وجل : {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا –71, ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم:71، 72]. والورود هو المرور على الصراط هكذا ثبت مرفوعًا إلى النبي ج ، وجاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي يقول فيه: (قلنا: يا رسول الله, وما الجسر ؟ قال: مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء، تكون بنجد، يقال لها: السعدان يَمر المؤمن عليه كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم، وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم، حتَّى يَمر آخرهم يسحب سحبً)([15]) الحديث.

وفي بعض طرق هذا الحديث: (ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم).

الفصل السابع

مشهد الوقوف على القنطرة للقصاص في المظالم

ثم لا تنسى أن تتذكر الوقوف على القنطرة، وما أدراك ما مشهد الوقوف على القنطرة، إنه مكان بين الجنة والنار، يكون فيه القصاص في المظالم التي كانت بين الخلائق في الحياة الدنيا، وذلك بعد ما يخلص المؤمنون من النار.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا

حتى إذا هذّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بِمنْزله في الجنة منه بمنْزله كان في الدني)([16]).

(119/1)

ويزيد هذا المعنى تأكيدًا لحديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ج يقول: (يحشر الله الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بُهمًا. قلت: وما بُهمًا ؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أقضيه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند أحد من أهل النار حق حتى أقضيه منه حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف؟ وإنَّما نأتي الله يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بُهمًا، قال: بالحسنات والسيئات). رواه الإمام أحمد في المسند([17]).

وثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ج قال: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها، حتى تقاد الشاة الجماء من الشاة القرناء)([18]).

قلت: وإنه لجدير بكل مسلم ومسلمة يؤمنون بالغيب الذي من جملته تلك المشاهد العظيمة والمواقف الرهيبة، أن يعدوا لها العدة النافعة والزاد المفيد ليجتازوها بسلامة وأمان، ورضا واطمئنان، وما أخاله يتم لهم ذلك إلا إذا شمروا عن ساعد الجد، وطرقوا صادقين مخلصين أبواب الخير والعمل الصالح الذي يقربُهم إلى الله زلفى، وأن يستحضروا دائمًا في كل وقت وحين هذه المشاهد وغيرها، مما أخبر الله به ورسوله أنه سيكون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

حقًّا إنه لجدير بكل مسلم ومسلمة أن يتقوا الله ربِّهم، ويجتنبوا حماه ويقوموا بحقه وحق عباده على الوجه الذي يريد منهم، كما ينبغي لهم أن يكثروا من الدعاء، فالدعاء هو العبادة، بل مخ العبادة، وأن يعلنوا فعلاً الانكسار بين يديه، فهو سبحانه يقيل العثرات، ويغفر الذنوب ويستر العورات، ويبدل سيئات التائبين حسنات.

****

([1]) هذه الزيادة من مسند الإمام أحمد (ج4/ص296) عن البراء.

([2]) هذه الزيادة في المسند (ج4 ص296) وأبي داود ج4 كتاب السنة رقم (4753).
])

(120/1)

([3]) رواه الإمام أحمد في مسنده (ج4 ص287، 288) عن البراء بن عازب، وأبو داود (ج4) في كتاب الجنائز، باب الجلوس عند القبر (ص 337)، ورواه أيضًا في كتاب السنة (ج7 ص139 إلى ص142)، وإسناده صحيح.
([4]) هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني: صاحب السنن، ولد عام (202ﻫ) كان -رحمه الله- عالِمًا عابدًا إمامًا في الحديث، مات في اليوم السادس عشر من شهر شوال سنة (275ﻫ) تذكرة الحفاظ (ج2 ص252).
([5]) هو الشيخ الإمام العالم الرباني الحجة الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي -رحمه الله-: انظر مقدمة سننه (ص2).
([6]) هو الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجه: المولود عام (207ﻫ) المتوفى عام (275ﻫ) المقدمة (ج1/ص1).
([7]) رواه مسلم بِهذا اللفظ عن عائشة في كتاب الجنة (ج17) باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (ص192، 193) وثبت نحوه في سنن الدارمي في كتاب الرقائق (ج2) باب في صفة الحشر (ص327). وبمثل لفظ الدارمي ورد في البخاري في مواضع (ج4 باب 8 ص110) وفي كتاب التفسير سورة (5) باب (14): {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِم}. (ص191، 192) وفي (ج7) في كتاب الرقاق باب (45 ص93 ج8).
([8]) آدم: هو أبو البشر، أكرمه الله بعدة كرامات:
! أولاها: خلقه من تراب بيده، ونفخ فيه من روحه.
! ثانيها: أمر الملائكة بالسجود له.
! ثالثتها: علمه أسماء كل شيء.
! رابعتها: أدركه برحمته حينما غره إبليس فوقع في المحذور، حيث اجتباه وهداه إلى فعل ما يرضيه، وطرد عدوه من رحمته وجنته، فلا حظ له فيها ولا نصيب. البداية والنهاية لابن كثير (ج1/ص 10، 11).
])

(121/1)

9]) هو أول رسول بعث إلى أهل الأرض لما عبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله، فرحم به من شاء من خلقه، وأقام به الحجة على من خالف أمره منهم. انظر سورة نوح بكاملها، وغيرها من سور القرآن الكريم.

([10]) هو خليل الرحمن، الذي وصفه ربه بقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ -120, شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النحل:120، 121]. وهو الذي أمر محمد ج أن يتبع ملته، كما قال عز وجل : {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل:123]. وهو الذي اصطفاه ربه فآتاه رشده كما قص علينا سبحانه قوله الحق: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} [الأنبياء:51]. وهو الذي رسم الله لنا على لسانه أسلوب الدعوة وطريقة الحكم فيها كما في سورة مريم: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا -41, إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم:41،42]. إلى نهاية قوله: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} [مريم:48].

([11]) هو موسى بن عمران كليم الرحمن: صاحب النصيحة الرحيمة لنبينا محمد ج ليلة الإسراء والمعراج، حينما أخبر أن الله فرض على أمته خمسين صلاة في كل يوم وليلة. انظر قصته في سورة القصص وغيرها من سور القرآن الكريم.

])

12]) هو نبي الله عيسى بن مريم: الذي قال الله فيه: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران:59]. وقال فيه: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ} [المائدة: من الآية75].
سمي المسيح لأنه مسح بسياحته وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له، وافترائهم عليه وعلى أمه الصديقة، رفعه الله حيًّا إليه، وسينْزل في آخر الزمان إلى الأرض حكمًا عدلاً، كما صرحت بذلك النصوص الصحيحة، وأمه مريم التي نالت الثناء الدائم في القرآن الخالد حيث قال سبحانه: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [التحريم:12].

([13]) هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم: وهاشم من قريش، وقريش من

العرب والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل –عليه وعلى نبينا الصلاة وأتم التسليم– بعثه الله إلى الإنس والجن وتعبدهم بما جاء به من أصول الدين وفروعه فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه من ربه اليقين، فانتقل إلى الرفيق الأعلى في جوار أرحم الراحمين, وبقي فينا النور الذي جاء به، فمن تمسَّك به نجا، ومن زاغ عنه هلك.

])

(123/1)

14]) رواه البخاري (ج4) في كتاب الأنبياء، باب (3) قول الله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِه} [هود: من الآية25]. (ص105، 106). ورواه في (ج4) في كتاب التفسير باب (5): {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء:3]. تفسير سورة (77) عن أبي هريرة (ص 225, 226), ورواه مسلم بشرح النووي (ج3) باب الشفاعة عن أنس (ص61, 62, 64). ورواه أيضًا مسلم بسنده عن أبي هريرة باللفظ المذكور. (ص65، 69) من كتاب الإيْمان، والترمذي (ج4) في كتاب صفة القيامة باب (10) ما جاء في الشفاعة ، رقم الحديث (2434 ص622، 624). والإمام أحمد في مسنده (ج1 ص295، 296).

([15]) رواه البخاري بنحوه (ج7) في كتاب الرقاق باب (5 ص250) عن أبي هريرة. ورواه مسلم في صحيحه بشرح النووي (ج 3) في كتاب الإيْمان (ص25 حتى 34) بأطول من هذا. والترمذي (ج4) كتاب صفة الجنه باب (20 رقم 2557 ص 691) مع الاقتصار على بعض ألفاظ الحديث.

([16]) رواه البخاري (ج 3) في كتاب المظالم باب (1 ص 97). رواه أيضًا (ج7) في كتاب الرقاب باب (48 ص198) وأحمد في مسنده (ج3 ص13) كما أورده في (ص57) من هذا الجزء, وابن ماجه في المقدمة (ج1 باب 9 ص22).

([17]) (ج3 ص495). كما ذكر البخاري بعض ألفاظه في كتاب التوحيد (ج8 ص194).

([18]) رواه مسلم (ج16) باب تحريم الظلم (ص136) بشرح النووي. والترمذي (ج4) في كتاب صفة القيامة باب (2) حديث رقم (2420 ص614) 0 وأحمد في مسنده مقتصرًا على بعض ألفاظه انظر (ج1 ص72).

الجزء الثاني

أسباب النجاة

من كرب يوم القيامة وشدة أهواله

ولعل سائلاً يسأل عن أسباب المخرج من تلك الشدائد، والأهوال والكروب؟.

(124/1)

فنقول –وبالله التوفيق–: ليس المخرج من تلك الشدائد والأهوال والكروب التي ثبت وقوعها يوم القيامة بالنصوص الصريحة، ليس المخرج منها يا أخي المسلم أن تلازم الإقامة في مكان معين تقبع فيه لممارسة بعض الأوراد ونحوها وقد احتجبت عن الناس وهم يقعون في المخالفات والانحرافات والمنكرات وأنت قادر على تعليمهم وأمرهم ونَهيهم ولَم تفعل، كلا ليس هذا هو المخرج، وإنما المخرج الحق له أسباب أرشد إليها القرآن العظيم ودعا إلى الاعتصام بِها النبي الكريم ج وهذه الأسباب سأبينها لك في الفصول التالية من هذا الباب – إن شاء الله–.

****

الفصل الأول (السبب الأول)

إقامة أركان الإسلام والإيمان والإحسان على وجه التمام

ثم الانطلاق الجاد في أداء كل عمل صالح مبرور يقرب إلى الله, ثم الإيْمان بكل ما يجب الإيْمان به من أصول هذا الدين وفروعه، وفي مقدمة هذه الأصول الإيْمان بالله المتضمن للإيْمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، والإيْمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله عز وجل ، ثم الانطلاق الجاد والسعي المتواصل في أداء كل عمل صالح مبرور وكل كلم طيب يصعد إلى الله ويكون سببًا موصلاً لنيل محبته ورضاه، وليس بخاف على ذوي العلم والعقل الصحيح والبصيرة النافذة أن جميع الأعمال الظاهرة والباطنة هن الباقيات الصالحات عند الله وقد أشار إلى هذا المعنى في قوله –تبارك وتعالى–: {المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً} [الكهف:46].

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [سبأ:37].

فقد اعتبر المولى سبحانه في هاتين الآيتين الكريمتين الإيْمان الصادق والعمل الصالح سببين رئيسيين في الحصول على كل محبوب والنجاة من كل مكروه ومرهوب وبين أن ما يعطاه الإنسان من مال وبنين في هذه الحياة إنما هو متاع زائل وأن ثواب الباقيات الصالحات هو الباقي، وهو النافع للعبد يوم تحشر الخلائق إلى ربِّها، وتنصب الموازين لوزن الأعمال وعامليها، وتنشر الدواوين التي قد سجل فيها كل ما عمله الإنسان من خير وشر : {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ –7, وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة:7–8].

****

الفصل الثاني (السبب الثاني)

الإخلاص لله في العمل

والإخلاص: هو أن يقصد العبد في كل أعماله وجه الله والدار الآخرة والإخلاص هو أجل صفة يوصف بِها العبد، لذا فقد أمر الله –تبارك وتعالى– نبيه ج بإخلاص العبادة له وحده فقال عز و جل: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر:11].

كما أمر الأمة كلها أن تكون مخلصة في أعمالها لله رب العالمين فقال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ} [البينة:5].

وبجانب الأمر بالإخلاص، فقد حذر الله الناس الرياء لأنه مناف للإخلاص حيث جاء في الحديث القدسي الذي يرويه ج عن ربه –تبارك وتعالى– أنه قال: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه). ومما هو جدير بالذكر له والتنبيه عليه أن للإخلاص أهميته في الشرائع السماوية كلها إذ هو سمة كل رسول وصفة كل نبي، حيث قال تعالى في وصف كليمه ونجيه موسى عليه السلام : {إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا} [مريم:51]. وقال لمحمد –عليه الصلاة والسلام–: {فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ –2, أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِص} [الزمر: من الآية2، 3].

ثم إن الأعمال التي كلف بِها العباد أمرًا ونَهيًا، تحليلاً وتحريمًا، أدبًا وسلوكًا، لا تقبل منهم إلا

بشرطين.

أولهما الصواب: بحيث يكون العمل موافقًا لشرع الله المنَزل على أنبيائه ورسله.

وثانيهما الإخلاص: وهو أن يكون العمل الذي يقوم به العبد خالصًا لله لا رياء فيه ولا سمعة.

وحيث قد عرفنا أهمية الإخلاص، وأثره الطيب على أعمال العباد، فإنه ينبغي أن نعرف شيئًا من ثمراته النافعة، وفوائده العظيمة.

فأقول –وبالله تعالى التوفيق–:

من تلكم الثمرات والفوائد ما يلي :

العناية الربانية بالمخلصين لله في أعمالهم في كل زمان ومكان ذلك لأن الله يستجيب دعاءهم، ويقضي حاجاتِهم، ويفرج كرباتِهم ويكون معهم بنصره وحفظه وتأييده ورعايته، فقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي

عبد الرحمن عبد الله بن عمر y قال: سمعت ج يقول: (انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم.

(127/1)

قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً فنأى بي طلب الشجرة يومًا فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتُهما نائمين فكرهت أن أوقظهما، وأن أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج منه.

وقال الآخر: اللهم إنه كان لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي، كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فأردتُها على نفسها، فامتنعت مني حتى ألمت بِها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها، – وفي رواية: فلما قعدت بين رجليها– قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنَّهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد ترك الذي له

وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أد إلي أجري. فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والدقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: لا استهزئ بك فأخذه كله فاستاقه، فلم يترك منه شيئًا؛ اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يَمشون) متفق عليه.

قلت: ما أجل هذا الحديث وما أجمل القصة التي تضمنها، وما أعظم الأهداف التي جاء لتحقيقها كيف لا ؟! وهو كلام الصادق المصدوق الذي زكاه ربه بقوله: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى -3, إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: 3-4].

(128/1)

نعم، لقد تضمن هذا الحديث أمورًا جليلة واشتمل على مسائل مهمة أذكر منها ما يلي:

1. الدعوة إلى الإخلاص في العمل، إذ إن الإخلاص في العمل يعتبر أقوى سبب من أسباب النجاة من مخاوف الدنيا والبرزخ والآخرة.

2. الحث على البر بالوالدين والإحسان إليهما قولاً وفعلاً، إذ هو واجب عظيم من واجبات هذا الدين، وحق أصيل من حقوق أقرب الناس إليك وهما والداك، ولا غرابة أن يكون هذا الأمر كذلك، فلقد قرن الله عز وجل طاعة الوالدين بطاعته في كتابه العزيز حيث قال سبحانه: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [النساء: من الآية36]. كما قرن شكرهما بشكره في قوله تعالى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المَصِيرُ} [لقمان: من الآية14]. وبجانب الأمر ببر الوالدين جاء النهي عن عقوقهما وإيذائهما حيث قال سبحانه: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا -23, وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء:24].

3. الإرشاد إلى التحلي بفضيلة العفاف، والابتعاد عن المحرمات لاسيما بعد القدرة على فعلها، وأن يقصد بذلك وجه الله والدار الآخرة والرغبة فيما عند الله من الثواب لمن ترك شيئًا لله.

4. حصول الكرامات للأولياء والصالحين الذين اتصفوا بصفة الإيْمان الصادق والتقوى الحقيقية المعنيين بقول ربّهم سبحانه: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ -62, الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ -63, لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ} [يونس:62-64].

ولذا ما حصل من الأمور الخارقة للعادة على أيدي هذا الصنف من الناس فهو كرامة من الله عز وجل ، كما حصل لهؤلاء النفر، وكما حصل لأصحاب الكهف الذين جاءت قصتهم مفصلة في سورة الكهف من قوله I: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [الكهف:9] ... إلى نِهاية قوله: {فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: من الآية22].

وكما حصل لأسيد بن حضير. وعباد بن بشر y حينما خرجا من عند النبي ج في ليلة مظلمة، وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا فافترق النور معهم.

فهذا النور الذي أضاء لهما من خوارق العادات، ثم تفرقه بتفرقهما كذلك وهو إكرام من الله لهما، ولَم يكن ذلك بأيديهما ولا بحولهما ولا بقوتِهما، ولا بطلب منهما، وكان بعض السلف إذا حصلت له كرامة يستغفر الله عز وجل وغير ذلك كثير.

أما ما وقع ويقع من الأمور الخارقة للعادة على أيدي الفساق والسحرة والكهان وإخوان الشياطين، فهو من قبيل الابتلاء والامتحان لهم، ولمن ابتلي بالغرور بِهم من سذج الخلق الذين لَم يفرقوا بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان، ولَم يميزوا بين الكرامات الشرعية والأحوال الشيطانية, والله المستعان.

****

الفصل الثالث (السبب الثالث)

الصدق في المعاملة مع الله ومع عباد الله

الصدق: خلق إسلامي عظيم، وسبب من أسباب النجاة من عذاب الله متين.

وهو نوعان: صدق العبد في معاملته ومتاجرته مع ربه: وذلك بفعل طاعته وترك معصيته، ومتابعة رسله، والوفاء بالعهد الذي عاهد عليه ربه في عالم الذر المشار إليه بقوله سبحانه: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا} [الأعراف: من الآية172].

وصدق العبد مع الخلق، وذلك بصدق الحديث معهم وحسن المعاملة لهم في أي أمر من أمور الدنيا والدين امتثالاً لأمر الله سبحانه حيث قال: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة:119].

وامتثالاً لقول الرسول الكريم ج: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابً).

قلت: فلا استبعاد أن يكون الصدق من أسباب النجاة من كل سوء ومكروه في الدنيا وفي الآخرة، فلقد أرانا الله نتيجته الحسنة، وعاقبته الحميدة واضحة جلية في محكم القرآن في قصة الثلاثة الذين خلفوا حيث قال سبحانه: {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة:118].

(131/1)

وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وكان من خبرهم أنَّهم تخلفوا عن الرسول ج في غزوة تبوك، فلما قدم الرسول ج المدينة أقبل أهل النفاق يعتذرون إليه كذبًا، وكان رسول الله ج يقبل اعتذارهم ويكل سرائرهم إلى الله، فأنزل الله فيهم آيات بينات أوضح فيها كذبَهم وأظهر نفاقهم وأعلن جزاءهم الدنيوي والأخروي، حيث قال سبحانه: {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ -95, يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ} [التوبة: 95-96].

نعم ونحن نقول كما قال قرآننا: {إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة:95]. وإن كانوا يعلنون الشهادتين في كل وقت وحين ويصلون ويحجون ويجاهدون .. بيد أنَّهم لا يريدون بِهذه الأعمال وجه الله والدار الآخرة، وإنما يريدون من ورائها حقنًا لدمائهم، وسترًا ووقاية لأموالهم وذويهم، وفرارًا من بريق سيوف المخلصين في وجوههم وتسديد الرماح صوب صدورهم ونحوهم: {اتَّخَذُوا أيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [المنافقون: 2] وقوله: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون:4].

وسيعلم هذا الصنف من الناس في كل زمان ومكان يوم تبلى سرائرهم وتنطفئ أنوارهم أي منقلب ينقلبون.

(132/1)

فاللهم إنا نعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأعمال والأخلاق, وأما أولئك الثلاثة الذين تخلفوا عن الاعتذار الذي اعتذر به المنافقون فقد أخبروا عن تخلفهم بالواقع الصحيح والسبب الصريح، حملهم على ذلك إيْمانُهم الحق وخوفهم من ربِّهم ورجاؤهم في توبته عليهم، إنه هو التواب الرحيم.

فهجرهم الناس قريبهم وبعيدهم فعلاهم من الهم والغم والكرب الشديد شيء عظيم، كما أخبرنا الله عنهم وصور حالهم بقوله الحق: {حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ} [التوبة: من الآية118].

جاء فرج الله بقبول توبتهم ومغفرة ذنبهم والرضا عنهم وتخليد ذكراهم، وما ذلك إلا بفضل الله عليهم ثم بسبب صدقهم مع الله ومع رسوله ج، وبالتالي فلا غرابة أن يكون الصدق بأنواعه وشتى صوره من أقوى أسباب المخرج من شدائد القيامة وعظيم أهوالها، والله المستعان.

الفصل الرابع (السبب الرابع)

الصبر بجميع أنواعه

والصبر معناه: حبس النفس وكفها عن شهواتِها، وإلزامها بالإتيان بأسباب السلامة والنجاة، لتأخذ زادها في خضم هذه الحياة، ولأهميته وشدة الحاجة إليه فقد أمر الله نبيه محمدًا ج بالاعتصام به وجعله له خلقًا وطريقًا لتبليغ رسالة الله ليعمل بِها في أرض الله تعالى، فقال عز و جل: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: من الآية35].

حقًّا إنه توجيه رباني حكيم لنبي صادق كريم، اصطفاه الله لرسالته وخصه برعايته فاحتمل كل أذى في سبيل الله، وعانى من أعداء هذا الدين الشيء الذي لا يتحمله ويصبر عليه إلا من شملته رعاية الله وحظى بنصر وتوفيق وهداية من ربه خالقه ومولاه.

(133/1)

نعم لقد لقي رسول الله ج من عشيرته الأقربين أشد الأذى وأقسى المحن، وأسوأ المواقف، لا لشيء إلا لأنه قال لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، قولوا لا إله إلا الله كلمة تدين لكم بِها

العرب وتملكون بِها العجم، فقالوا: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص:5].

نعم صنعوا ما صنعوا، وقالوا ما قالوا، لا لشيء إلا لأنه قال لهم وهو الناصح لهم: (إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد).

فقالوا له: تبًّا لك، ألهذا دعوتنا؟ هذا قليل من كثير مما حصل من الأقربين من قومه، فما ظنك بالأباعد الذين لَم يعرفوا شيئًا عن خلق رسول الله ج وأمانته في جاهلية ولا إسلام .

لقد أغروا به سفهاءهم فرموه بالحجارة حتى أدموا قدميه الطاهرتين وأعجزوه عن المشي، وهو الوحيد الفريد الطريد المجرد من كل سند أو معين من أهل الأرض، ومع ذلك كله فقد كان محلقًا في قمة الصبر، وفي نفس الوقت كان منطرحًا بين يدي ربه يردد الدعاء المأثور في تذلل وخشوع –لمن يستحق التذلل والخشوع– قائلاً: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري، إن لَم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل علي غضبك أو ينْزل بِي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك).

ولئن كان الله سبحانه أمر النبي ج بالصبر خصوصًا فقد أمر به المؤمنين عمومًا، فقال: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران:200].

(134/1)

لقد ناداهم في هذه الآية الكريمة بلقب الإيْمان تشريفًا وتكريْمًا وحثًّا على امتثال تلك الأوامر الأربعة التي ابتدأها بالصبر، فقال: {اصْبِرُوا} وما ذلك إلا لأن الصبر زاد عظيم في درب الخير كله وطريق الدعوة إلى الله، ذلك الطريق الطويل الشاق الحافل بالعقبات المتعددة والابتلاءات المتنوعة والإيذاءات المؤلمة.

{اصْبِرُوا} على شهوات النفس ورغائبها وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وذلك بوضع العلاج الذي يكون مناسبًا لكل نوع من أنواع أمراضها في حالة ضعفها ونقصها، وفي حالة عتوها وطغيانِها وفي حالة غرورها والتوائها وانحرافاتِها، ثم اصبروا على صولة الباطل أيا كان نوعه ومصدره فإن للباطل طغيانًا وصولة، ولكنه لا يدوم، وليس له ولا لأهله عاقبة حميدة، إنما العاقبة الحميدة والنصر المؤزر لكل مؤمن مجاهد صابر.

{اصْبِرُوا} بكل ما تحمل كلمة الصبر من معنى.

{اصْبِرُوا} على طاعة الله فافعلوها وارجو ثوابَها.

و {اصْبِرُوا} عن معصية الله فلا تقربوها بل خافوا عقابَها.

و {اصْبِرُوا} على أقدار الله فلا تسخطوها بل قابلوها بالرضا والتسليم فإن أمر الله قدر مقدور.

{اصْبِرُوا} وابشروا فإن الله مع الصابرين، {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [الزمر: من الآية10].

وإن الإنسان في هذه الحياة لمبتلى، وكثيرًا ما توجه إليه سهام البلاء فهو بحاجة إلى شحنة كبيرة من مادة الصبر لاسيما في هذا الزمان الذي عمت فيه الفتن وكثرت فيه الشرور، وانتشرت فيه الملهيات والمغريات فأصبح الصابر غريبًا، ولا عجب أن يكون غريبًا، فقد روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن أبي أمية الشعباني. قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بِهذه الآية؟ فقال: أيَّةُ آية؟ قلت: قوله تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } [المائدة: من الآية105].

(135/1)

قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله ج فقال: (بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوى متبعًا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم).

وفي رواية: (قيل: يا رسول الله منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين منكم). قال الترمذي: حديث حسن غريب.

فما أعظم شأن الصبر وما أجمل ثمراته إذ هو أجمل صفة من صفات الكمال، حيث به تنال المطالب العالية، وتحل المشاكل المستعصية فما نجح الرسل الكرام، والأنبياء العظام في دعوة أممهم إلا بالصبر، وما نال الشهداء مرتبة الشهادة وشرفها وفضلها إلا بالصبر على منازلة الأقران في معارك القتال، وما ظفر العلماء بجمع العلوم وفهمها إلا بالصبر على سهر الليالي وشظف العيش، وما حصل ذوو الهمم العالية والمقاصد الشريفة على غاياتِهم النبيلة ومطالبهم المرضية إلا بالصبر على كل ما يواجهونه في سبيل ذلك مستشعرين معية الله الخاصة لعباده المؤمنين قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: من الآية153].

وكم من حديث صحيح أوضح لنا فيه نبينا محمد ج حقيقة الصبر في أعلى صورها، وأخطر أشكالها، فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: (شكونا إلى النبي ج وهو متوسد بردة في

ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه .. والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون).

(136/1)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كأني أنظر إلى رسول الله ج يحكي نبيًّا من الأنبياء – عليهم السلام– ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون).

وعن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب النبي ج، أن النبي ج قال: (المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم). وغير ذلك من النصوص كثير .

****

الفصل الخامس (السبب الخامس)

التقوى زادًا ولباسًا

وحقيقة التقوى في لسان الشرع الشريف هي:

أ– هي امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.

ب– وإن شئت فقل: هي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله.

جـ– وإن شئت فقل: هي مراقبة الله والشعور به عند الصغيرة والكبيرة والتحرج من إتيان ما يكره توقيرًا لذاته، وإجلالاً له سبحانه. وإن شئت فقل هي: مراقبة الله عند الصغيرة والكبيرة والخوف من إتيان ما يكره توقيرًا لذاته وإجلالاً له سبحانه.

د– وإن شئت فقل: هي الأعمال الصالحة أقوالها وأفعالها، باطنها وظاهرها، وقد ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب رضي الله عنه عن التقوى فقال له: (أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلى. قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت. قال: فذلك التقوى).

ولعظم شأنِها وأهميتها في كل شريعة من شرائع الله المختومة بِهذه الشريعة المحمدية فقد

وصى الله بِها جميع الأمم من أهل الكتاب وغيرهم وإيانا في هذا الكتاب العظيم، حيث قال سبحانه: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ } [النساء: من الآية131].

(137/1)

واعتبرها سبحانه زادًا لنا فقال: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ } [البقرة: من الآية197]. كما اعتبرها –تبارك وتعالى– لباسًا لنا فقال: {وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ } [الأعراف: من الآية26].

ولقد أحسن الذي قال:

إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر تزود من التقوى فإنك لا تدري

والذي قال:

تقلب عريانًا وإن كان كاسيا إذا المرء لَم يلبس ثيابًا من التقى

والذي قال:

ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

وأنك لَم ترصد كما كان رصدا إذا أنت لَم ترحل بزاد من التقى

ندمت على أن لا تكون كمثله

ورتب الله على حصولها واتصاف العباد بِها كل صلاح وفلاح وطهر كما قال عز و جل: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّر عَنْكُم سَيِّئَاتِكُم وَيَغْفِرْ لَكُم وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [الأنفال:29].

فجعل سبحانه التقوى شرطًا أساسيًّا في حصول الأمور التي يفرق بِها العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وذلك بأن يقذف في قلبه النور الذي تحصل به الهداية إلى طريق الحق والثبات عليه، كما رتب في هذه الآية الكريمة على التقوى خصلتين عظيمتين، وهما تكفير السيئات وسترها حتى لا تبقى ظاهرة، ولا باطنة، ومغفرة الذنوب جميعًا صغائرها وكبائرها، أقوالها وأفعالها، سرها وعلانيتها.

وما ذلك إلا أنه سبحانه هو صاحب الفضل العظيم والإحسان المتواصل والإكرام الدائم لمن

يستحق الفضل والإحسان والإكرام، ولقد جعل الله سبحانه لأهل التقوى سمات عديدة ذكرها الله في آيات محكمات من كتابه الكريم:

(138/1)

من هذه الآيات قوله سبحانه: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ –2, الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون –3, وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ –4, أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة:2–5]. فقد اشتملت هذه الآيات الكريمات على عدة صفات من صفات أهل التقوى منها:

الصفة الأولى: الإيمان بالغيب والمراد به ما غاب عن العباد حسًّا، غير أن الله أخبر به في كتبه الْمُنَزلة على رسله الذين لا ينطقون عن الهوى، فأما أهل الإيمان الحق فإنَّهم يصدقون بلا شك ولا ارتياب بما أخبرت به الكتب السماوية وجاء به الرسل الكرام من الأخبار عن وجود الله العلي الأعلى، خالق الكون ومالك يوم الدين، الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء والباطن الذي ليس دونه شيء الذي بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير ويصدقون كذلك بما ورد في الوحيين من الأخبار عن المغيبات مثل الحياة البرزخية والبعث والنشور والجزاء على الأعمال، والجنة والنار وغير ذلك مما سيكون مما أخبر الله ورسله عنه من أمور الغيب.

أما أهل الكفر والإلحاد وفي مقدمتهم الشيوعية والماركسية الملحدة فإنَّهم لا يؤمنون بالغيب؛ إذ لا رب عندهم ولا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ولا جزاء على الأعمال، بل مفتاح عقيدتِهم لا إله، والحياة مادة فقط، وأن صراع بني الإنسان عندهم في هذه الحياة إنما هو من أجل العيش والبقاء

فقط للتمتع بالملذات والشهوات التي يسرتْها قوانين الإلحاد، وهيأتْها لهم حضاراته المزعومة.

(139/1)

الصفة الثانية من صفات أهل التقوى: إقامة الصلاة: ومعنى إقامتها، الإتيان بِها على الوجه المشروع الذي أوضحه الله على لسان رسوله المبلغ عنه، من محافظة على الطهارة أولاً، ثم إتقان هيئاتِها قيامًا وقعودًا وقراءة وركوعًا وسجودًا وجهادًا للنفس كي تشعر بشعور الواقف

الخاشع بين يدي الله الذي ترجى رحمته ويخشى عذابه.

الصفة الثالثة: ومن تلك الصفات صفة القيام بالنفقات الواجبات والمستحبات تقربًا إلى الله وأداء لحقوق عباده وتطهيرًا للنفس من رذيلة الشح والبخل وتنمية المال الذي يزيد ويتكاثر بالإنفاق منه، ويتلف وتمحق بركته بالإمساك، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ج أنه قال:

(ينْزل كل يوم ملكان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط مُمسكًا تلفً).

الصفة الرابعة: الإيْمان الحق بِما أنزله الله على رسله الكرام وأنبيائه العظام، وأنه كله حق وصدق وهدى ونور، قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ -136, فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة:136، 137].

(140/1)

الإيمان باليوم الآخر أي بمحبته، وما سيكون فيه مما أخبر الله به ورسوله ج كما سبق الكلام عليه مفصلاً في هذا البحث المبارك ولأهل التقوى صفات غير هذه ذكرت في آيات قرآنية أخرى أذكر منها قوله عز و جل: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ -133, الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ -134, وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ولَم يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ -135, أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران:133-136]، فقد اشتملت هذه الآيات الكريمات على السمات التالية:

الأولى: الإنفاق في حالة الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض بل وفي جميع الأحوال بحيث لا يشغلهم شاغل عن طاعة الله والسعي في مراضيه والإحسان إلى خلقه بما يقدرون عليه من أنواع البر والخير، وقد تقدم الكلام على هذه الصفة قريبًا.

(141/1)

الثانية والثالثة: كظم الغيظ والعفو عن الناس، ومعنى كظم الغيظ كتمه له متى ثار وهم في حال كظمهم للغيظ لا ينتقلون إلى حقد دفين ولا إلى ضغينة غائرة في القلوب والصدور، ولكن ينتقلون إلى صفح النفس النقي وعفو القلب الطاهر البريء فيصبحون في عداد المحسنين، وركب المتقين، ومتى كانت جماعة تحب الله ويحبها الله، وقد شاعت فيها السماحة والسهولة واليسر وتخلصت بفضل الله من داء الإحن وشر الأضغان، فهي جماعة متآخية مترابطة، مترحمة متعاطفة، مثلها كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وكم من نص صريح وحديث صحيح جاء في الترغيب في كظم الغيظ والعفو عن الناس، قال الإمام أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ج قال: (من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء).

ومن حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: {الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ } [آل عمران: من الآية**134**] أن النبي ج قال: (من كظم غيظًا وهو يقدر إنفاذه ملأ الله جوفه أمنًا وإيْمَانً).

وجاء في حديث آخر أيضًا: (ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، ومن تواضع لله رفعه الله).

وروى الحاكم في مستدركه عن أبي بن كعب أن رسول الله ج قال: (من سره أن يشرف له البنيان، وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ويعط من حرمه ويصل من قطعه) فيه ضعف بسبب أبي أمية بن يعلى.

وعن ابن عباس y قال: قال رسول الله ج: (إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول: أين العافون عن الناس هلموا إلى ربكم وخذوا حوركم، وحق على كل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة)، وغير هذه النصوص في هذا الموضوع كثير .

(142/1)

الصفة الرابعة والخامسة والسادسة من صفات أهل التقوى: ذكر الله والاستغفار والتوبة النصوح وعدم الإصرار على الذنوب وهذه الصفات دل عليها قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ولَم يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران:**135**].

والمعنى: أن أهل التقوى إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار وإذا أمعنت النظر في

هذه الآية الكريمة، وجدت في طياتِها الرحمة بِهذا الإنسان البشري الضعيف الذي يعثر في حماة المعصية في كل وقت وحين ذلك لأنه كلما أغواه عدوه ألهمه الله ذكره فذكر وتذكر، وندم واستغفر فغفر الله له ذنبه، ورد كيد عدوه في نحره، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم} [آل عمران: من الآية135] أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ج قال: (إن رجلاً أذنب ذنبًا فقال: رب إني أذنبت ذنبًا فاغفره لي. فقال الله عز وجل : عبدي عمل ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي. ثم عمل ذنبًا آخر فقال: رب إني عملت ذنبًا فاغفره لِي. فقال –تبارك وتعالى– علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي. ثم عمل ذنبًا آخر فقال: رب إني عملت ذنبًا فاغفره لي. فقال الله عز وجل : علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي. ثم عمل ذنبًا آخر فقال: رب إني عملت ذنبًا فاغفره. فقال الله عز وجل : عبدي علم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء) أخرجاه في الصحيحين من حديث إسحاق بن أبي طلحة بنحوه –حديث آخر –.

(143/1)

وروى الإمام أحمد عن أبي المدله مولى أم المؤمنين سمع أبا هريرة: (قلنا: يا رسول الله، إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد. فقال: لو أنتم تكونون على كل حال على الحال التي كنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لَم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم. قلنا: يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابُها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس؛ ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، ثلاثة لا ترد دعوتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين) رواه الترمذي وابن ماجه من وجه آخر من حديث سعد به.

وقوله: {وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ} [آل عمران: من الآية135] أي لا يغفرها أحد سواه.

وقوله: {وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: من الآية135] أي تابوا من ذنوبِهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولَم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه كما روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن مولى لأبي

بكر عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة) ورواه أبو داود والترمذي من حديث عثمان بن واقد وهو حديث حسن والله أعلم.

(144/1)

وقوله: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أن من تاب تاب الله عليه وهذا كقوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [التوبة: من الآية104]. وكقوله: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:110]. ونظائر هذا كثيرة جدًّا.

وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسيره لقول الله عز وجل : {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ولَم يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون} [آل عمران:135]. أي إذا صدر منهم أعمال سيئة كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربَّهم، وما توعد به العاصين ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبِهم، والستر لعيوبِهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا قال: {وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون}.

قلت: ومثل هذا ما جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ج حديثًا نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيره استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ج قال: (ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

وعن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ج قال: (عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منها فإن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنَّهم مهتدون). وغير ذلك في هذا المعنى كثير.

(145/1)

تلك هي صفات أهل التقوى، فما هو جزاؤهم الدنيوي والأخروي؟

والجواب: هو أن الله ذكر جزاءهم في محكم القرآن العزيز، وعلى لسان الرسول ج، وسأذكر ما يحضرني من ذلك مستدلاً عليه من الكتاب العزيز والسنة المطهرة:

1- مغفرة الذنوب، وقد سبقت الأدلة في ذلك قريبًا.

2- دخول الجنات المشتملة على جميع أصناف النعيم كما قال تعالى:

{أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِين} [آل عمران:136].

تفريج ما بِهم من هم وغم وكشف ما يصيبهم من كرب وضيق، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا -2, وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: من الآية2، 3].

4- تسهيل أمورهم وتيسيرها لهم، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: من الآية4].

ويكفي أهل التقوى شرفًا وفضلاً أن الله معهم بنصره وتأييده وحفظه وتوفيقه ورعايته كما قال عز و جل: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:128].

****

الفصل السادس (السبب السادس)

العدل في جميع الحقوق

والعدل: هو حسن المعاملة بين العبد وربه، وكذا حسن المعاملة بين العبد وبين غيره من الخلق على اختلاف منازلهم قربًا وبعدًا، ولأهميته فقد

وصى الله سبحانه عباده به في محكم كتابه في آيات كثيرة منها قوله تعالى: {وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة: من الآية8].

وقال أيضًا: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: من الآية58].

وأخبر عز و جل أنه يحب أهله حيث قال: {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: من الآية9].

وجاء في الحديث عن النبي ج أنه قال: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم في أهليهم وما ولو) رواه أحمد ومسلم والنسائي.

ومن هذه النصوص الكريمة يتضح لطالب الحق ومبتغي الفضيلة أن العدل من الصفات الرفيعة التي لا ينالها إلا من عرف الحق وعزم على قبوله وصمم على تنفيذه في واقع حياته، يرجو من

وراء ذلك الظفر بمحبة الله له وما يترتب على تلك المحبة ثم الفوز بالوعد الكريم النازل على لسان النبي الصادق الأمين: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور).

ثم إن العدل له نواح متعددة، وجوانب كثيرة، من تتبعها وجدها كذلك فهو يكون في الأقوال: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا} [الأنعام: من الآية152].

وفي الأفعال والأعمال وجميع التصرفات الاختيارية الصادرة من البشرية قال تعالى: {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: من الآية9]،

أي العادلين.

(147/1)

ثم هو يكون في المعاملة مع أفراد الأسرة التي تعتبر النواة الأولى للمجتمع كالزوجة أو الزوجات، ومع البنين والبنات، ومع الآباء والأمهات وغير هؤلاء من سائر المخلوقات، وكذا مع الرعية سواء كان الراعي من ذوي الولايات العامة أو الولايات الخاصة، وهكذا تجري المعاملة بالعدل مع القوي والضعيف، والذكر والأنثى، والحر والعبد، والعدو والصديق، والقريب والبعيد، ومتى طبقت الأمة الإسلامية مبدأ العدل والتزمت به لها وعليها فإنَّها ستكون أمة حية حياة ربانية يأمن فيها الخائف الضعيف، ويتورع فيها المتمكن القوي، وستعيش حينئذ عيشة آمنة هنيئة مطمئنة في ظل العدل الذي أنزله الله من السماء ليتفيأ ظلاله أهل الأرض، والعكس، فمتى فقد قانون العدل في مكان ما وحل محله الظلم والجور فتنتشر الفوضى بين الأمة، ويتسلط قويها على ضعيفها ويتحكم الراعي في حقوق الرعية بدون ارعواء ولا خوف من عقوبة عاجلة أو آجلة.

وحينئذ تكون الحياة حياة قلق، واضطراب، وخوف، ورعب، وسلب، ونَهب، أشبه ما تكون بحياة وحوش ضارية قد اختلفت أجناسها وتباينت قواها في غاباتِها المخيفة وخلواتِها المنعزلة البعيدة.

ولقد ضرب رسول الله ج وصحابته الكرام وأتباعه الأمجاد أروع الدرجات في قانون العدل وتنفيذه في واقع الحياة بدون تفرقة عنصرية أو نظرة قومية.

فقد جاء في الحديث، أن امرأة من بني مخزوم سرقت وكبر على أهلها أن تقطع يدها، فتوسطوا إلى رسول الله ج، وقالوا: (ومن يتجرأ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ج، فكلمه أسامة، فغضب الرسول –عليه الصلاة والسلام– وقال: أتشفع في حد من حدود الله تعالى. ثم قام فخطب وقال: إنَّما أهلك الذين قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه،

وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايْم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطع محمد يده) رواه أحمد، والدارمي والبخاري، ومسلم، وأبو داود والترمذي.

(148/1)

ومثال آخر من أمثلة عدله ج: (أنه كان في غزوة بدر الكبرى يمشي بين الصفوف لتعديلها وفي يده قدح، فمر برجل خارج عن الصف فطعنه في بطنه بالقدح ليعتدل، فقال الرجل –وهو سواد بن غزية–: لقد أوجعتني يا رسول الله، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فاستخلص لي حقي منك. فقال له النبي ج: هذا بطني، فاقتص منه. فاعتنقه الرجل، وقبل بطنه. فقال له الرسول ج: ما الذي دفعك إلى هذا يا سواد؟ فقال: أحببت أن يكون آخر عهدي بالدنيا هو ملامسة جلدي لجلدك، فدعا له رسول الله ج).

ولقد تأسى برسول الله ج رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فترسموا خطاه في العدل وغيره من أحكام الشريعة الإسلامية .

فهذا عمر بن الخطاب، وقد جاء أحد المصريين يشكو إليه مظلمة من محمد بن عمرو بن العاص، حيث ضربه بسوط قائلاً له: (خذها وأنا ابن الأكرمين. فاستدعى عمر بن الخطاب عمرو بن العاص وابنه من مصر ولما حضرا، أمر عمر أن يقدم المصري على مرآى ومسمع من الجميع، وأن يضرب ابن عمرو بن العاص الذي ضربه ظلمًا، فضربه حتى أثخنه، ثم قال للمصري: اجلها فوق رأس عمرو فوالله ما فعل ابنه ما فعل إلا اعتمادًا على سلطة أبيه، ثم التفت الخليفة إلى المصري، وقال له: انصرف راشدًا فإن رابك ريب فاكتب إلي).

وهذا سعد بن معاذ الذي حكمه رسول الله ج في بني قريظة فحكم فيهم بقتل مقاتليهم وسبي نسائهم وذراريهم حكمًا بالعدل الذي شهد به له رسول الله ج، حيث قال: (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة). أي: سبع سموات. وغير ذلك من الأمثلة التي لا تدخل تحت الحصر في هذا المقام.

وحقًّا فإن شرائع الله كلها رحمة وعدل قام على تنفيذها والعمل بِها والدعوة إليها والجهاد في سبيلها رسل الله وأنبياؤه عبر تاريخ الأمم وتبعهم على ذلك في كل زمان ومكان أقوام اصطفاهم ربُّهم واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم.

(149/1)

وختام القول: فما أعظم العدل وما أجل ثمراته الدنيوية والأخروية وما أحرى المسلمين بالتمسك به كي يحيوا آمنين مطمئنين، ويوم القيامة يكونون مع الأنبياء والشهداء والصالحين.

****

الفصل السابع (السبب السابع)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب درجاته

المراد بالمعروف: ما عرف حسنه شرعًا وعقلاً.

والمقصود بالمنكر: ما عرف قبحه شرعًا وعقلاً.

ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركن عظيم من أركان هذا الدين القويم وفرض من فروضه، لا يستقيم إلا به، ولا يتم إلا بتطبيقه في صفوف الخليقة بحسب المراحل التي حددها الشارع الحكيم بقوله ج: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لَم يستطع فبلسانه، فإن لَم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيْمان)، ولأهمية هذا الركن العظيم في كل شريعة من شرائع الله فإن تاركه مع القدرة على القيام به يكون شريكًا لفاعل المعصية ومستحقًّا لغضب الله ومقته وانتقامه، وأما الأدلة على وجوبه وبيان فضله وبيان إثم تاركه فكثيرة جاءت في كتاب الله الكريم وسنة النبي الصادق الأمين أذكر منها ما يلي:

1- قوله تبارك وتعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه} [آل عمران: من الآية110].

2- وقوله سبحانه في وصف المؤمنين: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَر} [التوبة: من الآية71].

3- وقوله عز و جل فيما قصه علينا من وصية لقمان لابنه حيث قال: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور} [لقمان:17].

وغير ذلك من الآيات القرآنية كثير.

(150/1)

وأما الأحاديث فمنها ما جاء عن قيس بن أبي حازم قال: (قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وهي قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُم} [المائدة: من الآية105]، وإنكم تضعونَها على غير مواضعها، وإني سمعت رسول الله ج يقول: (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم

يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه).

ومنها ما جاء في مسند الإمام أحمد وصحيح البخاري وجامع الترمذي عن النعمان بن بشير y قال: قال رسول الله ج: (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها، إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا لَم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجو ونجو جميعً).

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم وسنن النسائي، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ج قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنَّها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيْمان حبة خردل).

وروى الإمام أحمد –رحمه الله– عن درة بنت أبي لهب –رضي الله عنها– قالت: قلت: (يا رسول الله من خير الناس؟ قال: أقرؤهم وأتقاهم وآمرهم بالمعروف وأنْهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم). وقال الهيثمي في المجموع (ج7/ص 266): رجاله ثقات وفي بعضهم كلام لا يضر وغير ذلك من نصوص السنة في هذا الباب.

(151/1)

ومن نظر بنظرة تأمل في نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتضح له الخطر العظيم والعقوبة الصارمة في الدنيا والآخرة التي تترتب على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتي ذكرها الله في كتابه الكريم بقوله: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ –78, كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُون} [المائدة:78، 79].

وذكرها النبي ج بقوله: (كلا، والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالِم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثُمَّ ليلعنكم كما لعنهم) حسن بشواهده. فأي عقوبة أعظم من هذه العقوبة، وأي وعيد أكبر من هذا الوعيد المترتب على ترك هذا الواجب العظيم من واجبات هذا الدين.

ومن هنا فإنه يجب على الأمة المسلمة العالمة بمعنى المعروف ومعنى المنكر أن تعتبره أحد أركان دينها، ودعامة أصيلة من دعائم شريعتها، وسهمًا فاضلاً من أسهم إسلامها، فإذا ما رأت

تقصيرًا في معروف أو وقوعًا في منكر وجب عليها أن تسارع إلى تغييره، غير خائفة ولا هيابة من موت أو أذى أو قطع رزق أو سلب حياة أو منصب، إذ إن ما كتب لابن آدم من خير في الأزل فلن يستطيع رده أحد من البشر مهما قوي سلطانه وانتفش باطله وعظم جبروته، وهكذا ما كتب من بلاء وفتنة وضر فلن يستطيع أن يرده أحد عنه كذلك، كما نطق بذلك كتاب الله، وصرح به في سنة رسول الله ج، قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ –17, وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام:17، 18].

(152/1)

وجاء في الحديث قوله ج: (واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لَم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لَم يضروك إلا بشيء، قد كتبه الله عليك).

وقوله ج في آخر هذا الحديث: (واعلم أن ما أصابك لَم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لَم يكن ليصيبك).

فهذه النصوص وأمثالها حملت كثيرًا من أهل العلم والدين والصراحة والغيرة على التضحية بأنفسهم عندما واجهوا الطغاة الجبارين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما فتنة الأئمة الأربعة والإمام ابن تيمية وغيرهم ممن وفوا بالبيعة مع الله عن الأذهان ببعيد.

ثم إنه يشترط في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروط ثلاثة وهذه الشروط هي:

الأول الإسلام: إذ إن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نصرة لدين الله فلا يقوم به من هو عدو للدين.

الثاني التكليف: وذلك لأنه شرط لوجوب سائر العبادات فلا يجب على من رفع عنه القلم كالصبي والمجنون حتى يبلغ الأول ويفيق الثاني.

الثالث الاستطاعة: فلم يكلف الله الإنسان إلا بما في وسعه وطاقته، كما قال عز و جل: {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [البقرة: من الآية286].

والحقيقة: أن من سائر أحوال كثير من الناس في هذا الزمان رأى وسمع وعلم من المنكرات ما تستوحش منه النفوس، وتتفطر منه القلوب وتدمع له العيون ويندى له الجبين وتقض له مضاجع أهل الإيمان، وهذه المنكرات تتجلى في الانحراف من كثير من الناس عن كثير من تعاليم الدين الإسلامي والتبني لكثير من الأمور الجاهلية المظلمة في شتى صورها، فتجد مثلاً:

(153/1)

1- الانحراف في العقيدة: حيث إن معظم الناس نبذوا عقيدة الطائفة المنصورة أهل السنة والجماعة واختاروا لأنفسهم مللاً ونحلاً ومذاهب شتى وذلك كالوثنية الضاربة طنبها في معظم بلدان المسلمين، الممثلة في عبادة أهل الأضرحة حيث يطلب منهم جلب المصالح، ودفع المضار كعادة الجاهلية الأولى، والممثلة أيضًا في عبادة زعماء الصوفية المنحرفين عن عقيدة المسلمين والذين ضلوا وأضلوا كثيرًا، وبدلوا دين الله وأظهروا في الأرض الفساد ومما يؤسف له أن المغيرين لهذا المنكر العظيم قليل، أما الساكتون والأتباع فهم كثير ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكذلك الجهمية والمعتزلة والأشعرية والمرجئة والصوفية والرافضة والخوارج والإسماعيلية والنصيرية والدرزية والوجودية والشيوعية الماركسية والاشتراكية والعلمانية العالمية وغير ذلك من الملل والنحل والمذاهب الضالة المضلة التي لَم تستمد من الأنوار الرحمانية، وإنما استمدت من الوسوسة والإيحاءات الشيطانية.

2- الانحراف في العبادات العملية: وذلك إما بتركها وإما بالتهاون والتلاعب بِها، وإما بإدخال البدع التي تخالف الهدي النبوي الكريم فيها.

3- الانحراف في المعاملات: بحيث يكون كسب المال وجمعه غاية من الغايات يتوصل إليه بأي وسيلة من الوسائل، ويسلك في سبيل تحصيله كل طريق من الطرق بدون تقيد بشرع الله أو التزام بحقوق الآخرين من عباد الله.

(154/1)

4- الانحراف في الأخلاق والسلوك: فقد تنكب معظم الناس القيم والمثل الإسلامية الأصيلة وطفقوا يقلدون أعداءهم من أهل الشرق الملحدين وأهل الغرب الإباحيين، وذلك في التشبه بِهم في أمور كثيرة، كالإسبال في الثياب، والخنافس فيها وفي الشعور الطويلة، ودبلة الذهب، وفي التسيب وقتل الأوقات في السهرات البغيضة على أنواع من الألعاب التي استوردها من لا خلاق لهم، ولا قيمة للأوقات عندهم، وذلك كلعبة النرد والشطرنج والضمنة والكيرم وبلوت الورق، التي تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وتعود لاعبها على السباب والكذب والمهاترات، وتدخله في نطاق الميسر غالبًا وكثيرًا ما يستعمل أهلها المخدرات والمفترات ظلمات بعضها فوق بعض ومن لَم يجعل الله له نورًا فما له من نور ولا حول ولا قوة إلا بالله.

5- الانحراف في الاتجاهات الفكرية: التي تنتج عنها الحروب المدمرة والعداوات المتبادلة

والاختلافات في الرأي، والتمزيق لوحدة الأمة الإسلامية والفشل الذريع الذي يريح نفوس الخصوم، ويثلج صدور الأعداء.

وإذ كان الأمر كذلك بلا شك ولا ارتياب، فما هو الواجب على طلاب العلم حيال هذه الأمراض والانحرافات والمنكرات؟

(155/1)

الجواب: إن الواجب على كل طالب علم أن يبذل قصارى جهده في تغيير تلك المنكرات بما أوتي من قدرات علمية وطرق تربوية بالكتابة والخطابة والمناقشة الهادئة وبكل وسيلة من وسائل التبليغ شارحًا للأمة محاسن دينها القويم، وداحضًا شبهات الضالين المضلين من أهل العقائد الفاسدة، والمذاهب الهدامة، والطرق الضالة، أعني الذين أصيبوا بتلك الانحرافات الخطيرة في عقيدتِهم وعبادتِهم ومعاملاتِهم وفي أخلاقهم وسلوكهم، فمن قام بتغيير ذلك من أهل العلم، وحملة الشريعة، ودعاة الهدى، براءة للذمة ونصحًا للأمة قاصدًا وجه الله والدار الآخرة، فقد نجا وسلم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، ودخل في عداد من قال الله فيهم: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه} [آل عمران: من الآية**110**].

ومن كتم وسكت وداهن وهو قادر على إنكار شيء من المنكرات فقد عرض نفسه للعذاب البئيس بتركه لأقدس واجب فرضه الله على كل مسلم ومسلمة، كما قال عز و جل: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُون} [لأعراف:**165**].

ومن هذه النصوص تعرف أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعوة إلى الله، وجهاد في سبيل الله، ونصر للحق وإحباط للباطل، لذا فإنه يجب على أهله الصدق فيه والصبر والإخلاص.

****

الفصل الثامن (السبب الثامن)

الإحسان في كل شيء كما كتبه الله عز وجل

(156/1)

والإحسان تولى تفسيره سيد الأنام ج بقوله: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لَم تكن تراه فإنه يراك). وهذا التفسير النبوي الكريم يدل على أنه يجب على العبد أن يكون مستشعرًا مراقبة ربه دائمًا في كل آونة وأوان، وفي كل لحظة من لحظات العمر فإنه سبحانه يعلم ويبصر ويراقب كل تحركات مخلوقاته وسكناتِهم، ويعلم جميع تصرفاتِهم الحسنة والسيئة، أقوالها وأفعالها، ظاهرها وباطنها، كما قال عز و جل: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: من الآية1].

وقال سبحانه: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد:10].

فإذا أيقن العبد أن ربه مطلع على جميع أعماله بل ومطلع على ما في نفسه من الوساوس والأحاديث والخطرات –وكان من أهل الهداية والعقل– فإنه سيكف نفسه عن الوقوع في معاصي الله التي تسبب له المقت والسخط، وتوجب له الغضب والعذاب الأليم، وثم إنه سيظل مستثمرًا أوقاته في تحصيل كل عمل صالح مبرور يوجب له رضا الله، ويدنيه من ربه خالقه ومولاه.

ولأهمية هذا الركن وجلالة قدره قد أمر الله عباده أن يطبقوه في واقع حياتِهم تطبيقًا عمليًّا، حيث قال –تبارك وتعالى–: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: من الآية195].

وجاء في الحديث عن النبي ج: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فاحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته).

ولقد أخبر الله عز وجل أن رحمته قريبة من أهل الإحسان فقال تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: من الآية56].

كما أخبر سبحانه بأن لأهل الإحسان الجزاء الأوفى وزيادة، قال:

{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: من الآية26].

(157/1)

أي الجزاء الحسن في الدار الآخرة وزيادة وهي النظر إلى وجه الله الكريم وبين سبحانه بأنه مع المحسنين بالنصر والهداية والتوفيق، وذلك بسبب ما اتصفوا به من صفة الإحسان الذي يعتبر أعلى درجة من الإسلام والإيْمان.

إذا فهم هذا فإن للإحسان مظاهره التي تتجلى في حسن المعاملة بين العبد وبين ربه، وذلك بأداء الواجبات، وفعل المستحبات في العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق والسلوك، وكذا في

ترك المعاصي على اختلاف أنواعها إذ إنه تتنافى مع الإحسان وأخلاق المحسنين، فإن الإحسان في العقيدة معناه أن يعلق العبد قلبه بخالقه الذي آمن بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن يتجه إليه بجميع أعماله الظاهرة والباطنة وأن يرجو منه وحده جلب المصالح، ودفع المضار كقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وشفاء المريض، ودفع جميع المكروهات، وبجانب هذا الاعتقاد الحق فإن صاحبه يرفض الاستجابة لنداء أهل الشرك والضلال من القبوريين وزعماء الصوفيين الذين يدَّعون أن لأصحاب الأضرحة اليد الطولى في إغاثة الملهوف، وجلب الرزق، وإنجاب الولد، ودفع المكروه، وغير ذلك من الأمور التي لا تطلب إلا من الله الذي انفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والهداية والإضلال والتدبير لجميع الأمور.

ومن المؤسف أن هؤلاء الذين غلو في حب الأولياء أصحاب الأضرحة أكثرهم يقرءون القرآن، ويلبسون عمائم العلماء، فازدادت فتنة الناس بِهم واتخذوهم قدوة واعتبروهم أئمة –ولا شك أنَّهم أئمة يدعون إلى النار– فصدوهم عن سبيل الله، وأنسوهم ذكر الله، ويوم القيامة ترى الأتباع والمتبوعين من هؤلاء القبوريين يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا وما لهم من ناصرين، إلا من يدركه الله برحمته قبل الممات فحقق التوحيد وتخلص من شوائب الشرك بالله.

(158/1)

وأما الإحسان في العبادة بقسميها المالية والبدنية فهو الإتيان بِها خالصة لله صوابًا على شرع الله الذي جاء به رسول الله ج وذلك كالصلاة والزكاة والصوم والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك من العبادات والطاعات التي شرعها الله تطهيرًا للقلوب، وتزكية للنفوس والجوارح، وتكفيرًا للخطايا والذنوب، وأما الإحسان في الأخلاق والسلوك فيتم بالتأسي برسول الله ج في خلقه العظيم وسلوكه الطاهر المستقيم، المستمد من كتاب الله الحكيم، ومن سنته عليه من ربه أزكى الصلاة وأتم التسليم.

ولَمَّا سئلت عائشة –رضي الله عنها– عن خلق الرسول ج قالت: (كان خلقه القرآن)، أي يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويؤمن بمحكمه، ويتعظ بمواعظه، ويعتبر بقصصه وأمثاله، ويتأثر بوعده ووعيده، ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار، ويقوم به كذلك، وإنه لجدير بأتباع هذا النَّبِي الكريْم بأن يتخذوا منه القدوة الحسنة والأسوة الصالحة الرشيدة فيجعلوا القرآن لهم إمامًا وقائدًا، ويحرصوا صادقين أن يكون لهم خلقًا وشفيعًا وشاهدًا.

وأما معنَى الإحسان إلى الغير فإنه يتجلى في الأمور التالية:

1- في التعاون معهم على البر والتقوى، اللذين هما جماع كل خير وصلاح.
2- في أمرهم بالمعروف ونَهيهم عن المنكر ودعوتِهم إلى طريق الهدى والرشد ليكونوا من الراشدين.
3- في إعانتهم على قضاء حوائجهم ونصرتِهم ظالمين أو مظلومين، رجاء في ثواب الله، ورغبة في نيل رضاه.

(159/1)

4- في تربية شبابِهم تربية إسلامية صحيحة لأن شباب الأمة هم رجال الغد وقادة المستقبل، فإن وجهوا توجيهًا إسلاميًّا، وربوا تربية إيْمانية، فإنَّهم سيكونون رجالاً صالحين ومصلحين، وقادة في الخير مجاهدين، ومرشدين، وإن أهملوا من قبل العلماء الربانيين احتضنتهم الشياطين، فغيرت فطرتَهم التي فطرهم عليها رب العالمين فنشئوا حيارى ضالين لا يبصرون طريق الحق، ولا يميزون بينها وبين سبل الغواية والضلال، فما ربحت تجارتُهم، وما كانوا مهتدين.

****

الفصل التاسع (السبب التاسع)
صلة الأرحام بكل ما تحمل من معنى
الأرحام: هم الذين يمتون إلى الشخص بصلة نسب من قريب أو بعيد وقد حث الإسلام على الصلة، وأثنى على الواصلين، وبجانب ذلك حذر من القطيعة وتوعد أهلها بأشد العقوبات الدنيوية والأخروية، كما جاء ذلك كله مفصلاً في الكتاب والسنة.
قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} [الرعد:21].
وقال سبحانه محذرًا من القطيعة: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ -22, أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم} [محمد:22، 23].
وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم أترضين، أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟

قالت: بلى يا رب. قال: فذاك). ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه : اقرءوا إن شئتم: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُم} [محمد:22].

(160/1)

وروى الإمام أحمد –رحمه الله– عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم).

وقال الإمام أحمد أيضًا: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصله).

وجاء في حديث قدسي، قال الله عز وجل : (أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسْمًا من اسْمي، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته). والنصوص في هذا الموضوع كثيرة جدًّا.

قلت: ومن أمعن النظر في هذه النصوص الكريمة وجدها صريحة في الحث على صلة الرحم، والتحذير من القطيعة كما هي صريحة أيضًا في ربط العلاقات الأسرية بين المسلمين بحيث يشعر بعضهم بحق البعض الآخر، ويقتنع به فلا يضيعه ولا يهضمه ولا يبخسه، مما يدل على أن شريعة الإسلام شريعة المحبة والتعاطف والتراحم والمواساة.

ومن خلال هذه الأسس الرفيعة، يحصل الوئام الخالص، والشعور الطيب المتبادل بين أفراد الأسرة التي تعتبر النواة الأولى للمجتمعات الإسلامية الفاضلة.

ومما ينبغي التنبه إليه: أن الصلة كما تكون بالزيادة الحسية تكون بالمال ولاسيما عند قدرة الواصل، وحاجة الموصول، وهكذا تقوم الصلة بالتعليم والنصح والتوجيه إلى أقوم طريق وخير زاد، وأفضل عمل.

الفصل العاشر (السبب العاشر)

أداء الأمانة بقسميها

(161/1)

بين يدي الموضوع: مما لا يرتاب فيه مسلم، ولا يتردد في أحقيته مؤمن أن أداء الأمانة على الوجه الأكمل والطريق الثابت الصحيح سبب عظيم من أسباب المخرج من شدائد يوم القيامة والأهوال العظام التي ستكون فيه، وحق إن فيه لشدائد وأهوال وكربات تذهل الخلائق وتشغل

كل قريب عن قريبه كما صرحت بذلك الآيات البينات والأحاديث الصريحات حتى إن الرسل الكرام والأنبياء العظام تطلب منهم الخلائق في ذلك اليوم الشفاعة، فكل واحد يعتذر ويعلن بأنه مهتم بنفسه كما في حديث الشفاعة الطويل الذي مر بك في البحث المبارك حتى ينْزل الطلب بمن ختم به الأنبياء والرسل، وختمت برسالته جميع الرسالات محمد ج الذي قال له ربه: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء:79].

فالمقام المحمود هو شفاعته للأمم كلها في فصل القضاء بعد المكث الطويل والهول الرهيب فينصرفون من مواقف القيامة، فريق في الجنة وفريق في السعير، ومن أراد أن يشاهد ذلك الهول وتلك الشدائد بعين البصيرة، فليقرأ بتدبر هذه الآيات الكريمات قال عز و جل: {يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ -1, يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [الحج:1-2].

وقال سبحانه: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ} [غافر:18].

(162/1)

وقال -تبارك وتعالى-: {يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [لقمان:33].

وقال -جل شأنه-: {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [فاطر: من الآية18].

وقال -عز من قائل-: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا -17, السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً} [المزمل:17-18].

وغير ذلك من الآيات في هذا المعنى كثير، وإن في هذه الآيات لبيانًا جليًّا عن شدة الأهوال في يوم القيامة، وتغير الأحوال وتراكم الأحزان والكروب على الخلائق كل بحسب ما جنى وقدمته يداه.

فاللهم يا فارج الكربات إنه بطأ بنا العمل، ورحمتك وسعت كل شيء، فتغمدنا بِها واجعلنا في ذلك اليوم في ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك، واجعل مقرنا جنتك الفردوس مع أنبيائك ورسلك والصديقين والشهداء، والصالحين من عبادك إنك جواد كريم، وبعبادك رءوف رحيم.

وبعد: فحديثي عن موضوع الأمانة، سيكون على النحو التالي:

1- تعريف الأمانة لغة وشرعًا.

2- بيان أقسام الناس بحسب قيامهم بِها وعدمه.

3- ذكر نموذج من الأمور التي اؤتُمن عليها المكلف.

4- أهمية الأمانة في كل شريعة من شرائع الله.

5- ثَمراتُها الدنيوية والأخروية.

1- أما تعريف الأمانة:

! فِي اللغة: فهي ما اؤتُمن عليه المكلف.

! وفِي الشرع: هي ما اؤتُمن عليه المكلف من وظائف الدين الإسلامي الحنيف سواء كان ذلك فيما بين الخلق وخالقهم، أو فيما بين الخلق بعضهم لبعض.

(163/1)

فقد أمر الله الخلق بأداء ذلك كله حيث قال: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء:58].

2- أقسام الناس فيها:

وقد انقسم الناس في الأمانة بحسب قيامهم بِها وعدمه إلى ثلاثة أقسام:

أ- قسم قاموا بِها ظاهرًا لا باطنًا: وهم المنافقون الذين فضحهم الله وأخزاهم في آيات بينات، وذكر الله فيها أعمالهم القبيحة وصفاتَهم الذميمة ومصيرهم السيئ الخطير، قال عز و جل: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [النساء:145].

ب- وقسم لَم يقوموا بِها لا ظاهرًا ولا باطنًا: وهم المشركون الذين ليس لهم حظ في رحمة الله ولا نصيب في مغفرته، لأنَّهم أشركوا بالله ما لَم ينْزل به سلطانًا، قالوا عليه بغير علم وافتروا عليه الكذب، فأولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصًا.

(164/1)

ج- وقسم قاموا بِها باطنًا وظاهرً: وهم المؤمنون الذين وصفهم ربُّهم بأزكى الصفات، ووعدهم جزيل الهبات، حيث قال سبحانه: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ -1, الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُون -

2, وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ –3, وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ –4, وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ –5, إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ –6, فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ –7, وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ –8, وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ –9, أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ –10, الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون:1، 11]. وغير ذلك من الآيات في صفاتِهم الحميدة كثير.

ولقد ذكر الله أعمال هذه الأقسام الثلاثة وجزاءهم في آية واحدة، حيث قال عز و جل: {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب:73].

ومِمَّا هو جدير بالمعرفة أن الأمانة قد عرضت على السموات والأرض والجبال قبل عرضها على آدم أبي البشر فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها آدم، كما قال عز و جل: {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً} [الأحزاب:72].

(165/1)

قال ابن عباس y في تفسير هذه الآية: (الأمانة هي الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابَهم، وإن ضيعوها عذبَهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله عز وجل أن لا يقوموا به، ثم عرضها على آدم وقبلها بِما فيه).

قال النحاس: وهذا القول الذي عليه أهل التفسير.

3– ذكر نَموذج من الأمور الَّتِي اؤتُمن عليها المكلف من الخلق:

اعلم أيها المسلم، أن الله الذي أسلمت وجهك له، وأقررت له بالخلق والرزق والفضل والإحسان، قد ائتمنك على أمور كثيرة داخلة تحت وسعك وقدرتك وسوف يسألك عنها، فإن أنت أديت الأمانة فيها، فلك من الله الحياة المباركة، حياة الأمن والطمأنينة والسلام في دار السلام، وإن أنت خنت الأمانة فيها فقد بؤت بالإثم والخسران والندامة والهوان.

من هذه الأمور:

أ– الاستقامة والثبات على الشهادة لله بالوحدانية، وأنه هو المعبود الحق وعبادة من سواه باطلة، والشهادة لرسول الله ج بالرسالة، وأنَّها هي الرسالة العامة الخاتمة، فلا نبي بعد محمد ج، ولا رسالة تحكم شئون العالم إلا رسالته، فمن ابتغى غيرها، وادعى صحة التعبد بسواها، فقد ضل سواء السبيل، واشترى الباطل بالحق، واستحب العمى على الهدى، فقال –تبارك

وتعالى-: {قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون} [الأعراف:158].

(166/1)

ب- القيام بجميع أركان الإسلام، والإيمان، والإحسان إذ إن العمل بِهذه الأركان كلها أمانة في عنق كل مكلف ذكرًا كان أو أنثى، فمن قام بِها علمًا، وعملاً، ودعوة إليها فقد أدى الأمانة، ومن بخسها فقد خان بقدر ما حصل منه من بخس من حقها، وسوف يسأل عن ذلك يوم الجزاء والحساب على الأعمال.

جـ- الطهارة بقسميها: طهارة الباطن، وطهارة الظاهر.

والمراد بطهارة الباطن: هي تزكية النفس وتصفيتها من كل انحراف عقدي أو خلقي أو سلوكي.

والمراد بطهارة الظاهر: هي الطهارة من الحدث والنجس، وقد جعل الله الماء طهور لذلك كله، كما قال عز و جل: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} [الفرقان: من الآية48].

وعند فقده، شرع الله التيمم بالصعيد الطيب رحمة بعباده وتيسيرًا عليهم لئلا يقعوا في حرج أو عنت حيث قال عز و جل: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ -6, وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [المائدة:6، 7].

(167/1)

فمن قام بالطهارتين وأداهما على مراد الله ورسوله فقد أدى الأمانة فيهما ومن أضاعهما أو بخس شيئًا فسوف يسأل عن ذلك كله يوم الجزاء والحساب على الأعمال.

د- جميع الجوارح أمانة في عنق صاحبها وسوف يسأل عنها جارحة جارحة:

1. فالفرج أمانة يجب على الإنسان حفظه من جعله في الحرام، إذ إن استعماله في الحرام

خيانة، توجب العقوبة الدنيوية والأخروية كما قال المولى الكريم سبحانه: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِين} [النور:2].

ورد في السنة المطهرة ما رواه مسلم وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ج قال: (خذوا عني خذوا عني البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم).

وما تلك العقوبات إلا بسبب تضييع أمانة هذه الجارحة، جارحة الفرج الذي أمر الله أن يحفظ من الحرام ويوضع في الحلال.

2. وجارحة السمع أمانة لدى صاحبها، فاستعمالها فيما يجب أداء للأمانة، وذلك كسماع قراءة القرآن وسماع السنة المطهرة اللذين يستمد منهما كل خير وبر وصلاح، هكذا سماع الخطب والمواعظ والوصايا وكل نافع يستفيد منه الإنسان في دينه ودنياه.

أما إذا استعملت هذه الجارحة في سماع ما يحرم على العبد كالتجسس على المؤمنين للإضرار بِهم أو سماع الغيبة والنميمة، وقول الزور وفحش القول أو سماع الأغاني الخليعة التي يجب على المسلم أن ينَزه سمعه عنها أو سماع ضرب الطبول والعود والرباب والمزامير، أو سماع أصوات النساء الأجنبيات على سبيل التمتع والتلذذ النفسي، فهذا ونحوه كله خيانة في استعمال هذه الجارحة التي اؤتمن عليها هذا المخلوق المكلف.

(168/1)

---

3. وجارحة البصر أمانة لدى صاحبها، فإذا استعملها فيما يحب النظر فيه كالنظر في كتاب الله وسنة رسوله ج وفي الكتب النافعة دينًا ودنيا، وكالنظر في مخلوقات الله للتفكر والاستدلال بِها على وجود خالقها وبارئها وغير ذلك مما ينبغي النظر فيه، وكذا النظر إلى كل ما يباح النظر إليه، فإن استعمال هذه الجارحة على هذا النحو حق وحلال ووضع للشيء في موضعه.

أما إذا استعملت جارحة البصر في النظر إلى ما لا يحل للإنسان النظر إليه، كالنظر إلى النساء الأجنبيات على أي صفة من الصفات على سبيل التلذذ، أو النظر إلى الشاب الأمرد لاسيما الوسيم من الشبان، أو النظر إلى أي منكر يفعل فإن ذلك خيانة لا يقرها عقل صحيح ولا يرتضيها الشرع الإلهي الشريف.

4. وجارحة اللسان أمانة وهي من أعظم الجوارح إما نفعًا أو ضررًا فإن استعمل هذا الجرم الصغير في قول الحق كقراءة القرآن الكريم والذكر لله بجميع أنواعه والاستغفار وتعليم الناس

أمور دينهم وأمرهم بالمعروف ونَهيهم عن المنكر وبذل النصح لهم، ونحو ذلك من كل كلم طيب، فإن صاحبه يجني ثمراته في دنياه وأخراه وكان حافظًا للأمانة فيه، أما إذا استعمل في غير وظيفته، كأن يستعمل في منكر القول وفحشه من كذب وسب وشتم وغيبة ونميمة وسخرية وغناء وقلب للحقائق لينصر الباطل ويغمط الحق فقد خان الأمانة وانحرف بِهذا العضو إلى غير ما خلق له.

5. والبطن أمانة، فلا تؤدى الأمانة فيه إلا إذا أودع فيه الحلال وحفظ به وأودع فيه الخير بحذافيره، فيكون وعاء لذلك الخير، أما إذا أودع صاحبه فيه الشر وجعله وعاء له فقد انحرف به وخان الأمانة في هذا العضو.

(169/1)

---

6. وهكذا اليد أمانة والرجل أمانة فإذا استعملهما العبد في كل ما ينفعه في دينه ودنياه، وزاول بِهما جلب المصالح ودفع المضار، وراقب الله في كل تحركاتِهما وسكناتِهما، فقد أدى الأمانة فيهما، وإن سلطهما فيما لا يحل له من سفك دم معصوم أو ضرب بريء أو سرقة أو نَهب أو مشي إلى محرم وفساد فقد خان الأمانة التي فرضت على هذه الأعضاء، وبالتالي فليعلم الإنسان أن هذه الجوارح من نعم المولى عليه وسوف يسأل عن استعمالها كما قال الله عز وجل : {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً } [الإسراء:**36**].

وهناك أمانات أخرى اؤتُمن عليها هذا الإنسان المكلف، وذلك كتربية الأولاد وبذل النصح للرعية وتبليغ الدعوة إلى الله، والقيام بحق القرابة والجوار وأداء ما أنيط به من عمل ما في جهة من الجهات وفي أي حقل من الحقول وفي أي نوع من أنواع العمل.

ومن هذا العرض المفصل يدرك القارئ الكريم مدى أهمية الأمانة في شرائع الله الْمنَزلة، إذ بِمراعاتِها توجد الحياة السعيدة، وبإضاعتها أو بخسها تختل موازين الحياة وتسوء العاقبة وتسود الفوضى، ويتسلط القوي على الضعيف بدون خوف أو حياء وبدون تفكير أو تأمل في نِهايات الأمور.

4– وأما ثَمرات الأمانة فمنها:

! الظفر بثواب الله العاجل والآجل.

! براءة الذمة والخروج من التبعة.

! الفوز برضا الله واتقاء سخطه.

! ارتفاع راية العدل فيما كان متعلقًا بحق الله، أو فيما كان متعلقًا بحقوق عباد الله.

****

الفصل الحادي عشر (السبب الحادي عشر)

خشية الله في السر والعلن

(170/1)

الخشية نوع من أنواع العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل وحقيقتها هي خوف المخلوق من خالقه خوفًا مقترنًا بالتعظيم والتقديس، ولما كانت الخشية من العبادات التي لا يستحقها إلا الله الخالق لكل شيء والمالك له والمتصرف فيه، فقد نَهى الله المؤمنين عن الخشية من الخلق وأمرهم بخشيته وحده دون سواه فقال سبحانه: {فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ} [المائدة: من الآية3].

ولعظم شأن الخشية واعتبارها من العبادات الفاضلة فقد وصف الله بِها ملائكته الكرام حيث قال: {وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون} [الأنبياء: من الآية28].

كما وصف بِها أهل تبليغ رسالاته فقال: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} [الأحزاب:39].

وكذا وصف الله بِها العلماء وحصرها فيهم على وجه الكمال فقال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: من الآية28].

ونعت بِها أهل الإيْمَان الحق والعقول الصحيحة حيث قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَاب} [الرعد:21].

(171/1)

وانطلاقًا من مدلولات هذه النصوص الكريمة فإن الواجب على العبد المسلم أن يقوم بالواجبات كلها استجابة لله، ومتابعة لرسول الله ج من أداء فرائض الله والدعوة إليه والجهر بكلمة الحق، و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير خائف ولا هياب، لا يخشى إلا الله ولا يخاف لومة لائم من أهل دنيا التراب؛ إذ إن أهل الخشية لله هم أهل الخير على الحق والثبات عليه هم أهل العدل فيما ولوا، وهم أهل الخير والإحسان فيما بينهم وبين ربِّهم، وفيما بينهم

بعضهم بعضًا، وهم أهل الإيْمان الصحيح والعمل الصالح القولي والفعلي الذي يريدون به وجه الله والدار الآخرة، وهم أهل الصدق والصبر، والإيثار والوفاء لكمال معرفتهم لحقوق الله وحقوق عباده وهم أهل التقوى والتمسك بالعروة الوثقى الذين أصلح الله حالهم، ورفع شأنَهم وأعلى قدرهم لتمسكهم بحبله المتين وسلوكهم صراطه المستقيم، صراط المنعم عليهم من الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين، وبغضهم طريق أهل الزيغ والفساد والانحراف من اليهود الماكرين، والنصارى الضالين، ومن سلك طريقهم، واقتدى بسنتهم، وتشبه بِهم من المقلدين المغرورين الراغبين عن تعاليم الدين القويم الذي قال الله في شأنه: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الأِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين} [آل عمران:85].

كما أن أهل الخشية لله هم أولياء الله حقًّا، وأحباؤه صدقًا: {إن أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُون} [الأنفال: من الآية34].

وهم أهل الجهاد في سبيل الله، والغيرة على محارمه، وأهل الحب فيه والبغض فيه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والتوكل عليه، والرجاء فيما في يديه، وما ذلك إلا لكمال خشيتهم له سبحانه، وتقديرهم له حق قدره، وعمق إيْمانِهم بأنه أحق أن يخشى، وخير من يحب ويرجى وهم أهل العبادة الصحيحة الخالصة والتوبة الشرعية الصادقة وأهل العلم النافع والعمل الصالح والحفظ لحدود الله.

(172/1)

وقصارى القول: فإن أهل خشية الله هم أصحاب العقيدة الصحيحة والصفات الزكية الحميدة، والأعمال الصالحة السديدة، والسلوك الحسن والأخلاق الفاضلة الرفيعة، ولا تثريب على من قال مفاخرًا بِهم ومعتزًّا بصنيعهم:

أولئك آبائي فجئني بِمثلهم إذا جمعتنا يا جرير الْمَجامع

ولعل سائلاً يسأل فيقول: إذا كانت تلك صفاتُهم، فما هو جزاؤهم؟

فيقال له: قد أوجزه الله –تبارك وتعالى– في آية واحدة قال: {جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [البينة:8].

****

الفصل الثاني عشر (السبب الثاني عشر)

اتباع سنن الهدى والسعي في إحيائها وذكر بعض منها بالتفصيل

وأعني بِها التي شرعت على لسان المصطفى ج، وهي في الواقع كثيرة ومتنوعة، لا يستطاع حصرها ولا يمكن استيفاؤها في مكان واحد غير أنني سأذكر بعضًا منها، وذلك بحسب الجهد وقدر الإمكان مراعيًا طريق الاختصار.

فأقول: من سنن الهدى:

-- صلاة الجماعة:

لقد شرعت صلاة الجماعة على لسان المصطفى ج رحمة بِهذه الأمة لما فيها من الخير الكثير، والأجر الوفير، والحياة الاجتماعية المباركة، فلقد أذن الله عز وجل أن تبنى لها المساجد في الحاضرة والبادية ويعلو صوت الحق داعيًا إلى كل فريضة من الفرائض الخمس، كي تؤدى كما أمر الله، وشرع رسول الله ج.

(173/1)

قال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ – 36, رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ –37, لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [النور:36، 38].

ونظرة سريعة إلى تاريخ السيرة النبوية العطرة نجد أن أول شيء بدأ به رسول الله ج حين قدم المدينة النبوية –مهاجره الكريم– هو بناء المسجد، وما ذلك إلا لأهمية صلاة الجماعة في شريعة الإسلام، إذ إنَّها تشتمل على كثير من المصالح الدينية والاجتماعية يندر وجودها في غيرها.

ولقد كان رسول الله, وأصحابه معه، ومن بعده يصلون الصلاة جماعة حضرًا وسفرًا لا يتخلف عنها أحد إلا من عذر شرعي، كالمرض والمطر والخوف ونحو ذلك من الأعذار المقبولة والمبررات المعقولة، وبلغ بِهم الحرص على إقامة الصلوات جماعة بأن صلوها وهم في وجوه أعدائهم في ميدان المعركة، كما هو موضح في سورة النساء، وفي أحاديث صلاة الخوف الثابتة عن رسول الله ج بصفاتِها المتعددة.

ومن هنا يدرك المسلم الذي ينشد الحق ويبتغي الفضيلة أن صلاة الجماعة واجبة على الأعيان البالغين، وأن تاركها بدون عذر شرعي آثم قد عرض نفسه للوعيد الشديد، وحرمها من الثواب العظيم الذي يترتب على إقام الصلاة جمعة وجماعة مع المسلمين في بيوت الله التي لا يعمرها

عمارة حسية ومعنوية إلا من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولَم يخش إلا الله.
ولقد جاء في الترغيب أحاديث كثيرة، منها حديث عبد الله بن عمر y أن رسول الله ج قال:
(صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة) متفق عليه.

(174/1)

ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه بخمس وعشرين جزءً. ومنها ما روى البخاري –رحمه الله– من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ج:
(صلاة الرجل في الجماعة تفضل عن صلاته في بيته وفي سوقه خمسًا وعشرين ضعفً).
قلت: ودلالة هذه النصوص وما في معناها صريحة في فضل صلاة الجماعة وكثرة ثوابِها بالإضافة إلى ما يكتسبه المصلي جماعة من ثواب الخطا إلى المساجد ذهابًا وإيابًا، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج:
(صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعًا وعشرين درجة، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة لَم يخط خطوة إلا رفع له بِها درجة وحط عنه بِها خطيئة، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه، يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لَم يؤذ فيه، ما لَم يحدث فيه) متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.
والحقيقة: أن هذا فضل كبير وخير كثير، حرم منه المتخلفون الذين ثبطهم الشيطان وزين لهم طرق الحرمان، والتقم قلوبَهم فتثاقلت رءوسهم فلا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، وإذا حضروها لَم يحضروها إلا دبارًا، ولقد ثبت الوعيد الشديد عن رسول الله ج لكل متخلف عن صلاة الجماعة بدون عذر، واستحق الغضبة المحمدية التي تتجلى في قوله ج:
(والذي نفس محمد بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتَهم، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء) أخرجه مالك والبخاري واللفظ له ومسلم والنسائي وابن ماجه.

(175/1)

قلت: وفي هذا الحديث النبوي الشريف دليل على أن التخلف عن صلاة الجماعة كبيرة من كبائر الذنوب لأن التحريق بالنار عقوبة غليظة لا يكون إلا على ذنب كبير. ولقد اعتبر النبي ج التخلف عن صلاة الجماعة من علامات النفاق كما ورد في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ج: (أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما من الأجر لأتوهما ولو حبوً) متفق عليه.

قال الحافظ –رحمه الله– في الفتح: "وإنَّما كانت العشاء والفجر أثقل عليهم من غيرهما لقوة الداعي إلى تركهما، لأن العشاء وقت السكون والراحة والصبح وقت لذة النوم" ا.ه.

قلت: ولقد أخبر الله عز وجل أن جميع الصلوات ثقيلة وشاقة على المنافقين فقال تعالى: {وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى} [التوبة: من الآية54].

كما بين سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم، أنه لا يحرص على الصلوات جمعة وجماعة في الحضر والسفر إلا من كان من أهل المحبة لها والخشوع فيها حيث قال سبحانه:

{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ –45, الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة:45–46].

وخلاصة القول: فإن صلاة الجماعة من سنن الهدى فمن أداها صادقًا مخلصًا كما شرعها نبي الرحمة والهدى، فقد سعد بالتوفيق، ومن لَم يُؤَدِّيها فقد أسره الشيطان والهوى، فضل وغوى، وسيندم على ما فرط يوم يجزي الله الذين أساءوا بما عملوا، وسيجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

(176/1)

وأخيرًا: فإن مما يؤسف المؤمن ويحزنه ويشغل باله ويقض مضجعه، ما يفعله كثير من الحمقى، وأصحاب الهوى، من سهر بالليل على الألعاب البغيضة كلعب الطاولة بجميع أشكاله، من ضمنة وكيرم ونرد وشطرنج ونحو ذلك، المقرونة غالبًا بالسباب والكذب والشتائم ولغو القول والضياع لفرائض الله، والإهدار لقيمة الوقت الغالي الذي وهبه الله للاستفادة منه دينًا ودنيا، ومن العكوف أيضًا على استعمال الشيشة الممقوتة المنتنة، المحفوفة بآلات اللهو الصاخبة الصادة عن ذكر الله وعن الصلاة.

هكذا تقضى آية الليل، الذي جعله الله لعباده لباسًا وسكنًا عند أولئك الحمقى حتى إذا اقترب وقت صلاة الفجر تفرقوا، وبئس ما تفرقوا عنه، فناموا بدون حساب لفريضة الفجر المقدسة التي تشهدها ملائكة الليل، وملائكة النهار، ولا مبالاة بصلاة الظهر والعصر، وهكذا يقضون آية النهار نومًا ينسيهم الأكل والشرب والصلاة وغيرها من الواجبات ومن متطلبات الحياة.

وما إخال هذا الصنف من المسلمين –والله أعلم بخلقه غير أن المؤمنين شهداء الله في أرضه– ما أظن هذا الصنف إلا أنه قد نزل بقلوبِهم مرض هم اشتروه مختارين، واستحبوه راضين به ومعجبين، أجسامهم أجسام الآدميين، وأرواحهم وقلوبُهم قد استحوذت عليها الشياطين، إذا وجهت إليهم نصائح الناصحين، كانوا عن جلها معرضين، وإذا هددوا بالتأديب كانوا غير مكترثين، فما موقف أهل الدعوة إلى الله والإيْمان من هؤلاء الذين استحوذ عليهم الشيطان.

والجواب: إن الموقف يجب أن يكون حازمًا، وحكيمًا ومخلصًا في دعوتِهم إلى الحق والفضيلة والأخذ على أيديهم على سبيل الاستمرار بدون يأس ولا تسويف طالبين لجميع الخلق الهداية من الله الذي يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته.

(177/1)

فإن حال بيننا وبينهم حائل لا سبيل إلى التغلب عليه، وقالوا لنا بلسان الحال أو المقال: هذه نصائحكم ردت إليكم، التمسنا التسلية لنفوسنا من قوله –تبارك وتعالى–: {قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُم فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ –108, وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِين} [يونس:108، 109].

ومن قوله سبحانه: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا –29, إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً – 30, أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف:29–31].

–– من سنن الهدى: سنن الصلاة الرواتب:

(178/1)

لقد شرع رسول الله ج سنن الصلوات الرواتب ورغب المصلين فيها، وحثهم على المواظبة عليها بقوله وفعله، والحقيقة أن العناية بِها والحرص عليها لدليل على الاهتمام الكبير بشأن

الفروض الخمسة التي جعلها الله على المؤمنين كتابًا موقوتًا، والعكس بالعكس، فإن التهاون بِها والتفريط فيها وسيلة إلى التقصير في الفرائض أو الإضاعة لها، لأن دعوة الشيطان دعوة مرحلية، ذلك بأنه يأتي إلى المصلي ويزهده في السنن الرواتب بحجة أنَّها لا يترتب على تركها عقاب، حتى إذا أقنعه بذلك واقتنع، انتقل به قطعًا إلى تأخير الفرائض عن أوقاتِها المحددة وصلاتِها في البيوت، ولا يزال به يترك بعض الفرائض أو كلها وذلك ما يريده الشيطان من الإنسان ليقطع الصلة بين العبد الضعيف وبين خالقه القادر على كل شيء، والغني عما سواه، ويوم القيامة يقال لمن ضيع: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ –42, قَالُوا لَم نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} [المدثر:42، 43].

والمحفوظ من السنن الرواتب عشر ركعات في اليوم والليلة كما جاء عن ابن عمر y قال: (حفظت من النبي ج عشر ركعات: ركعتين قبل الظهر وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب في بيته، وركعتين قبل

الصبح). متفق عليه.

غير أنه قد ثبت عن أم حبيبة أم المؤمنين –رضي الله عنها– قالت: سمعت رسول الله ج يقول: (من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بُنِيَ له بِهن بيت في الجنة) رواه مسلم.

وفي رواية تطوعًا، وللترمذي نحوه وزاد: (أربعًا قبل الظهر وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر). وقال الترمذي: حديث حسن وصحيح.

(179/1)

وعليه فعدد السنن الرواتب التابعة للفرائض تكون اثنتا عشرة ركعة قبلية وبعدية من حافظ عليها في حال الصحة والحضر كانت له سببًا عظيمًا من أسباب المخرج من شدائد يوم القيامة، وكروبِها، وأهوالها، ووسيلة كبرى من الوسائل النافعة التي تقرب العبد إلى ربه زلفى كما في حديث أم حبيبة الآنف الذكر: (من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بُنِيَ له بِهن بيت في الجنة).

ولقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ج: (إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بِها، ورجله التي يَمشي بِها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا

أكره مساءته).

والخلاصة: أن هذه السنن الرواتب التي حصرها الشارع الحكيم –عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم– في اثنتي عشرة ركعة في كل يوم وليلة لها من الفوائد الجليلة والمقاصد الحسنة الدنيوية والأخروية ما تعجز عن إدراكها أفهام كثير من أهل العلم والمعرفة، غير أنه يتضح من هذه النصوص النبوية الكريمة فائدتان عظيمتان.

أولهما: رعاية الله وحفظه ومعيته لمن أدى فرائض الصلاة تمامًا على الوجه الصحيح الحسن وتقرب إلى الله بالنوافل التي تجلب محبة الله لأصحابِها.

ثانيًا: نيل الرضا من الله ودخول جنته في تلك الرياض الناضرة والأنْهار الجارية والمآكل اللذيذة والقصور الرفيعة العالية، والزوجات الحسان، والخدم والولدان وفوق ذلك كله النظر إلى وجه الكريم الرحمن، جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه آمين.

–– ومن سنن الهدى: نوافل الصلاة بالليل والنهار:

(180/1)

ومن سنن الهدى التي توجب للعبد من ربه الرحمة والمغفرة والهدى وتكون سببًا متينًا من أسباب المخرج من شدة هول يوم القيامة نوافل الصلاة؛ إذ إنَّها من القربات التي ترفع العبد درجات، وتكفر عنه السيئات والخطيئات التي لا محيص ولا مفر للعبد من الوقوع فيها مهما كانت التقوى والورع والتحرزات وما ذلك إلا لضعف هذا الإنسان البشري أمام الشهوات والشبهات، وأمام تلك الأمور الملهيات والمغريات التي توجد عبر تاريخ الزمن وسائر الأوقات.

وإنه ليكفي المتقرب إلى الله عز وجل بنوافل العبادات ومنها:

نوافل الصلاة أن الله –تبارك وتعالى– يكون معه بالحفظ والتأييد والتوفيق والعناية والرعاية، كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بِها، ورجله الَّتِي يَمشي بِها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) البخاري.

(181/1)

ولعظم شأن نوافل الصلاة فقد رغب الله عباده فيها بأسلوب فاضل عظيم هو الثناء الحسن على المحافظين عليها ووعدهم الجزاء الأوفى حيث قال سبحانه: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ –15, آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ –16, كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ –17, وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات:15–18] وقال عز و جل: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ –16, فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة:16، 17].

فإن هذه الآيات الكريمات لتدل دلالة صريحة على فضل قيام الليل وإحيائه بنوافل الصلاة والذكر والدعاء والاستغفار التي تعتبر من أجل صفات المتقين ومن أبرز العلامات التي ترشد إلى إيْمَان المؤمنين، وإحسان المحسنين، كما تدل بوضوح على حسن الجزاء لهؤلاء الأبرار الذين آثروا الآجلة على العاجلة ولذات المناجاة الربانية على لذة النوم العاجلة، ولذة المتعة الحياتية الزائلة، فعلوا ذلك طمعًا ورجاء فيما أعد الله لهم من كرامة في دار الكرامة، ومن إحسان وفضل في دار الإقامة، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

حقًّا إن هؤلاء الأنقياء تلذذوا بمناجاة خالقهم وبارئهم لاسيما في جوف الليل الذي ينْزل فيه الرب إلى السماء الدنيا فيستجيب دعاء من دعاه، ويغفر ذنب من ذكره واستغفره، ويجيب سؤال من تضرع إليه وسأله، حتى يبرق الفجر كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ج قال: (ينْزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له).

(182/1)

فإن هذه الفضائل والكرامات والنفحات عرف قدرها أولئك الممدوحون في الآيات المذكورات، فحرصوا على إحياء لياليهم بالطاعات لينالوا ما وعدوا به في محكم القرآن وصحيح السنة الكريمة من قضاء الحاجات وإجابة الدعوات ومحو الذنوب والخطيئات، فهنيئًا ثم هنيئًا لمن كان قيام الليل دأبه وخلقه، وبشرى ثم بشرى لمن كانت خشية الله وتقواه سجيته وعادته، وسعادة بعد سعادة لمن كان خوف الله ورجاؤه، وصفًا ملازمًا في سره وعلانيته.

وبعد هذا العرض المتضمن لأزكى أوصاف المتقين، فإن لي ولك أيها القارئ الكريم وقفة قصيرة عند قوله سبحانه: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}. وعند قوله عز و جل: {كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ –17, وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}. لأسطر وتقرأ مقارنة مختصرة بين ما يسهر لأجله هؤلاء الأتقياء الأخيار أهل

الاستقامة على الحق والثبات عليه، وبين ما يسهر لأجله أهل اللهو والطرب والانحراف وذلك لأخذ العظة والعبرة.

فأقول مستعينًا بالله:

إن الفريق الأول يحيون لياليهم بذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتسعد به النفوس، وتقوى به الجوارح، وتحضره وتصغي إليه الملائكة الأطهار، وتفر منه شياطين الإنس والجن ما بقي الليل والنهار.

بينما الفريق الثاني يسهرون على سماع ضرب الطبول، وأصوات المزامير التي تميت القلوب وتبذر فيها النفاق فتمرض تلك القلوب وتنعكس عليها الأمور فلا تكاد ترى الحق إلا ما هي عليه، فيصدق عليها قول المولى سبحانه: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر:8].

(183/1)

وإن الفريق الأول يبيتون لربِّهم سجدًا وقيامًا ويتلون كتاب ربِّهم ويتدبرونه ليعملوا بما فيه، ويتخلقوا بِما يرشد إليه ويرغب فيه، قد جعلوه إمامًا لهم وقائدًا فلا يتقدمون بين يدي من أنزله ولا من جاء به بقول ولا فعل ولا أمر ولا نَهي ولا تحليل ولا تحريم، هذا شأن المتقين.

بينما الفريق الثاني قليلاً من الليل ما يهجعون ولكن على مشاهدة الرقصات المسعورة، والألعاب الشيطانية البغيضة، كالنرد، والضمنة، والكيرم، وبلوت الورق، وتبادل الكذب، وكلمات السب والشتم، ونحو ذلك من أخلاق الفاسقين، وعمل المفسدين حتى إذا ما اقترب الفجر انصرفوا من تلك المجالس العفنة والأماكن القذرة فينامون نومة أهل الفسق والنفاق، بدون مبالاة بفريضة الفجر المقدسة التي تشهدها ملائكة الليل والنهار، وهكذا يتعاملون مع صلاتي الظهر والعصر غالبًا بدون خوف من الله، ولا استحياء من خلق الله: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} [الكهف: من الآية17].

وإن الفريق الأول يبيتون ولهم دوي بالتهليل والتكبير والتوبة والاستغفار، ويفرحون إذا جن الليل كفرحهم بقدوم أعز غائب عنهم، وما ذلك إلا لأن لهم فيه غذاء روحيًّا تحيا به القلوب، وتزكو به النفوس، وتقوى به الجوارح، إذ إنه زادها في طريقها وهي مسافرة إلى الله خالقها ومولاها الذي بيده محياها ومماتَها، وإليه منقلبها ومصيرها ومنتهاها.

(184/1)

بينما الفريق الثاني يبيتون على سماع الأغاني الخليعة والتأوه بكلمات الحب والغرام والعشق والهيام، شأن الفساق في كل زمان ومكان، فلو أبصرت عيناك حلقاتِهم المشئومة وهم على شكل تدبيح الحمير تارة، وحين يرفسون بأقدامهم الأرض تارة، ويصرخون بأصواتِهم صراخ السكارى تارة، ويتمنون طول الحياة، وطول الليالي لتشبع بالتمتع بذلك نفوسهم الدنيئة، وترضى عنهم شياطينهم التي قد أخذت بنواصيهم والتقمت بخطومها قلوبَهم، وحطمت بالأماني أرواحهم، وأسرت بالشهوات جوارحهم، فأمسوا وأصبحوا لها طائعين وعن أمر الله وشرعه معرضين، وسوف يعلمون فيندمون إذا بلغت الروح الحلقوم وعاينوا جزاء ما كانوا يعملون: {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [النحل: من الآية33].

وإن الفريق الأول يقضون جزءًا كبيرًا من ليلهم مع نَهارهم في طلب العلم ومذاكرته وكتابته ونشره ليكسبوا الأجر الوفير، وليقوموا بواجب الدعوة إلى الله والتبليغ الحكيم لرسالات الله، لما وقر في قلوبِهم من أنَّهم ورثة الأنبياء وأن عليهم من المسئوليات العظام ما ليس على غيرهم من عامة الناس، فتراهم في نَهم شديد واهتمام جد أكيد في طلب العلم الشرعي الشريف الذي فضل الله أهله وأثنى عليهم بما لا مزيد عليه حيث قال سبحانه: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: من الآية28].

وقال عز و جل: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَاب} [الزمر: من الآية9]. وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

(185/1)

بينما الفريق الثاني قد قتلوا أوقاتَهم بلهوهم وغفلاتِهم، وأفسدوا حياتَهم بتسيبهم وضلالتهم، وأبلوا شبابَهم بطغيانِهم وقبيح فعالهم، وقد غفلوا عن الحكمة من إيجادهم فأساءوا التصرف في أوقاتِهم التي وهبت لهم رحمة من ربِّهم، فصيروها وبالاً وحسرة عليهم: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} [الزخرف:76].

أضف إلى ذلك ما ينفقونه من أموال في الملهيات والمسكرات على اختلاف مسمياتِها والمخدرات على اختلاف أشكالها، يفعلون ذلك تقليدًا منهم لأعداء الدين الذين لا يعرفون إسلامًا ولا إيْمانًا، ولا يؤمنون بجنة ولا نار، ولا يصدقون ببعث ولا نشور أو جزاء على الأعمال في دار البرزخ وفي دار القرار، فانظر أيها القارئ المنصف الكريم إلى الفرق بين الفريقين، ثم تأمل من منهم أحق بالأمن والهداية في الدنيا والبرزخ ويوم يبعثون؟ ومن منهم يوم القيامة خير

مستقرًّا وأحسن مقيلاً ؟: {الَّذِينَ آمَنُوا ولَم يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام:82]. {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} [الروم:16].

وأما بالنسبة لهدي النبي ج في قيام الليل ووتره، فقد ذكر ابن القيم –رحمه الله– أنواعًا استطاع حصرها بالتتبع لجميع الروايات التي وردت في هذا الموضوع، منها:

1– أنه ج كان يفتتح الصلاة بركعتين خفيفتين ثم يتمم وتره إحدى عشرة ركعة، يسلم من كل ركعتين ويوتر بركعة.

2– ومنها: أنه كان يقوم بثلاث عشرة ركعة كذلك.

3– ومنها: أنه كان يصلي ثمان ركعات يسلم من كل ركعتين ثم يوتر بخمس سردًا متوالية لا يجلس في شيء منها إلا في أخراهن.

(186/1)

4– ومنها: أنه كان يصلي ثمانيًا لا يجلس في شيء إلا في الثامنة يجلس يذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يصلي التاسعة، ثم يقعد ويتشهد ويسلم، ثم يصلي ركعتين جالسًا بعدما يسلم.

5– ومنها: أنه كان يصلي سبعًا كالتسع المذكورة، ثم يصلي بعدها ركعتين جالسًا.

6– ومنها: أنه كان يصلي مثنى مثنى ثم يوتر بثلاث. انتهى بتصرف من زاد المعاد – الجزء الأول صفحة (329).

قلت: كل هذه الأنواع ثابتة عن النبي ج ثم إن الأمر في قيام الليل كمًّا وكيفًا موسع، فأيما كيفية أو عدد فعله الإنسان فقد أصاب، طالما هو في حدود ما أرشد إليه النبي ج أو فعله، أو فعله أصحابه الكرام y وتبعهم عليه السلف –رحمهم الله–.

أما بالنسبة لصلاة التراويح في رمضان المبارك فقد ثبت عن عائشة –رضي الله عنها– أنَّها قالت: (ما كان النبي ج يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة).

وفي رواية: (على ثلاث عشرة ركعة).

ولكنه كان يطيل فيها القراءة والركوع والسجود ويكثر من الدعاء، فلما جاء الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ليلة رمضان، والناس يصلون جماعات متفرقون، ويصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط فقال عمر رضي الله عنه : (إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل ثم عزم فجمعهم علي أُبَي بن كعب).

وكان يصلي بِهم عشرين ركعة ويوتر بثلاث ثم إن بعض السلف كانوا يصلون التراويح أربعين ركعة ويوترون بثلاث وكان بعضهم يصليها ستًّا وثلاثين ويوتر بثلاث.

قال ابن تيمية –رحمه الله–: "وهذا كله سائغ فكيفما قام بِهم في رمضان من هذه الوجوه فقد أحسن".

(187/1)

أما من حيث الأفضل من هذه الكيفيات والوجوه التي لكل منها أصل في الشرع فقد قال الإمام ابن تيمية –رحمه الله–: "والأفضل يختلف باختلاف أحوال المسلمين، فإن كان فيهم احتمال لطول القيام بعشر ركعات وثلاث بعدها –كما كان النبي ج يصلي لنفسه– فهو الأفضل، وإن كانوا لا يحتملون فالقيام بعشرين أفضل فهو الذي يعمل به أكثر المسلمين فإنه وسط بين العشر وبين الأربعين، وإن قام بأربعين وغيرها جاز ولا يكره شيء من ذلك، وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره ومن ظن أن قيام رمضان فيه عدد مؤقت على النبي ج لا يزاد فيه ولا ينقص فقد أخطأ". انتهى من الفتاوى (ج**2**/ صفحة**401**).

قلت: وجمع ابن تيمية –رحمه الله– جمع حسن لأن الجمع بين النصوص عند الإمكان هو الطريقة المثلى التي يجب الأخذ بِها، ولأن الأمة لا تجتمع على ضلالة، والله يهدي من يشاء برحمته وفضله، ويضل من يشاء بحكمته وعدله فهو المسئول والمرجو أن يجمع شمل الأمة في كل شأن من شئونِها على درب الألفة والمحبة والهدى، وأن يعيذهم من شر الفرقة وداء الحسد والخلاف وطرق الهلاك والردى.

وأما نوافل الصلاة بالنهار فمنها صلاة الضحى التي بين وقتها رسول الله ج ورغب فيها، وكذا النوافل التي يوفق لها أهل اليقظة والمسارعة إلى الخيرات عقب الطهارة من ليل أو نَهار فإن ذلك من أفضل القربات وأقدس الحسنات.

فأما صلاة الضحى فقد جاءت الوصية لأبي هريرة رضي الله عنه حيث قال:

(أوصاني خليلي ج بصيام ثلاث أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام).

وجاء في فضلها عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ج قال: (يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تَهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونَهي عن المنكر صدقة، ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى) رواه مسلم.

وفعلها النبي ج على الأصح كما في حديث عائشة –رضي الله عنها– وأم هانئ فاختة بنت أبي طالب.

فأما حديث عائشة ففي صحيح مسلم قالت: (كان رسول الله ج يصلي الضحى أربعًا ويزيد ما شاء الله).

وأما حديث أم هانئ –رضي الله عنها– قالت: (ذهبت إلى رسول الله ج عام الفتح فوجدته يغتسل، فلما فرغ من غسله صلى ثمان ركعات وذلك ضحى). وهذا مختصر لفظ روايات مسلم.

ومن هذه النصوص يتضح لنا أن أقل صلاة الضحى ركعتان، وأن أكثرها ثمان وأوسطها أربع ركعات.

أما بالنسبة لوقتها فيبدأ من طلوع الشمس قيد رمح ويمتد إلى دخول وقت النهي، غير أن أفضل وقتها حين يرتفع الضحى ويشتد الحر كما في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه رأى قومًا يصلون من الضحى فقال: (أما لقد علموا أن الصلاة في غير هذه الساعة أفضل، وأن رسول الله ج قال: صلاة الأوابين حين ترمض الفصال) ورواه مسلم.

والمراد بذلك حيث يشتد الحر فتحرق أخفاف الفصال من شدة حر الرمل بسبب وقع الشمس عليه.

وهكذا من نوافل الصلاة التي تكون تارة بالليل وتارة في النهار الصلاة عقب الطهور كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ج قال لبلال: (يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت خف نعليك بين يدي في الجنة. قال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لَم أتطهر طهورًا في ساعة من ليل أو نَهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي) متفق عليه.

والحقيقة: أن هذه النوافل من الفضائل التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم فيستفيد من ليله ونَهاره اللذين جعلهما الله خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا.

قال قتادة –رحمه الله–: "فأروا الله من أعمالكم خيرًا في هذا الليل والنهار فإنَّهما مطيتان يقمحان الناس إلى آجالهم، ويقربان كل بعيد ويبليان كل جديد، ويجيئان بكل موعود إلى يوم القيامة".

وقال شقيق –رحمه الله–: "جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: (فاتني الصلاة الليلة. فقال: أدرك ما فاتك في ليلتك في نَهارك فإن الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورً).

والله سبحانه هو الموفق والهادي والمعين.

-- ما أكثر أبواب الخير التي فتحها الرب الرحيم لهذا الإنسان الضعيف الذي طالما كثر ظلمه لنفسه، وتناهى تقصيره في السعي في إكرامها وإسعادها في دنياها وأخراها إلا من رحم الله من عباده وقليل ما هم في كل زمان ومكان والله المستعان .

ومن جملة تلكم الأبواب التي أنعم الله بفتحها نوافل الصدقة: فهي لا تزال مفتوحة ليلج فيها فيكسب حسنات ترفع بها درجاته وتحط بها خطيئاته، وهأنا سأذكر إن شاء الله بعضًا من النصوص الكريمة التي تحث على نوافل الصدقة على اختلاف أنواعها، وسأبين باختصار ما دلت عليه من المعاني، قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة:245].

وقال عز وجل : {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:261].

وقال سبحانه: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة:265].

ففي هذه الآيات الكريمات وما في معناها من آيات أخرى حث عظيم للمؤمنين على الإنفاق من مال الله الذي امتَن به على كثير من عباده في كل زمان ومكان، وترغيب كريم لهم كذلك، وقد جاء هذا الحث وذلكم الترغيب بأساليب مختلفة كعادة القرآن الكريم الذي فاقت أساليبه جميع الأساليب العربية، وتسامت تراكيبه فوق جميع تراكيب ألفاظها وجملها، فلم يطمع بليغ من بلغاء النثر والنظم في محاكاة هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، وأنى له ذلك؟ وقد قال منزله: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء:88].

نعم جاء الحث على الإنفاق في وجوه الخير والترغيب في ذلك بأساليب متنوعة فتارة بأسلوب الترغيب في الإنفاق، والتصريح بذكر مضاعفة ثواب الصدقة إلى أضعاف كثيرة، فتدفع النفوس الطيبة عند سماعها إلى البذل والعطاء في سبيل الله، كما في قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ

اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة:245].
ولقد سمع أبو الدحداح الأنصاري رضي الله عنه هذه الآية الكريمة وكان له حائط يحتوي على ستمائة نخلة، فقال: يا رسول الله، أرني يدك. فناوله رسول الله ج يده، قال: إني قد أقرضت ربي عز و جل حائطي. وكانت زوجته أم الدحداح فيه ومعها عيالها، فناداها، وقال لها: اخرجي يا أم الدحداح فقد أقرضت ربي حائطي. فبادرت إلى الخروج مباركة صنيع زوجها الذي لا يفعله إلا الأسخياء الأتقياء. فرضي الله عنهما وأرضاهما.

(191/1)

وتارة يضرب المثل الذي يصور المعقول في صورة المحسوس، كما في قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:261].
ففي هذا المثل الكريم تشويق للنفوس وترغيب لها في الإنفاق في سبيل الله والإحسان إلى عباد الله، وذلك أنه إذا كان المتصدق بدرهم واحد يضاعف له إلى سبعمائة ضعف بل وإلى أكثر من ذلك، فإنه سيندفع إلى مواصلة السير في الإنفاق وسيكون طويل اليد في البذل والعطاء في سبيل الخير، إذا عافاه الله من رذيلة الشح وداء البخل ووعود الشيطان الماكر اللئيم.
وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في شأن عبد الرحمن بن عوف وعثمان ابن عفان y، وذلك أن رسول الله ج لَمَّا حث الناس على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم، فقال: (يا رسول الله كان لي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها ربي. فقال رسول الله ج: بارك لك فيما أمسكت وفيما أعطيت. وقال عثمان: يا رسول الله علي جهاز من لا جهاز له. فنَزلت هذه الآية فيهم).

(192/1)

قلت: وفي الختم بقوله سبحانه: {وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ}. ما يدل على أن المضاعفة تكون إلى سبعمائة ضعف، كما فسرت ذلك السنة الصحيحة وإلى أكثر من ذلك، وذلك بحسب نية المتصدق وحبه للمال وشدة حاجته إليه وكذا بحسب الكسب الطيب إذ لا يقبل من النفقة إلا ما كان من كسب طيب، وبحسب الإخلاص في الصدقة، كما تحصل المضاعفة أيضًا بحسب

الزمان والمكان والمناسبات والأحوال والحاجات كما هو معروف من قواعد الشرع الشريف، وكرر سبحانه ضرب المثل لثواب أصحاب الصدقات، والإنفاق في سبيل الله لسد حاجة الإسلام والمسلمين حيث قال سبحانه: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَم يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة:265].

فأنت ترى أيها القارئ الكريم كيف شبه الله نمو صدقات أهل الإخلاص الذين يربي الله صدقاتِهم، ويضاعف حسناتِهم بنمو نبات الجنة الكائنة بالربوة الموضوعة بكرم الأرض وطيبها وصلاح تربتها فهي لذلك تؤتي أكلها ضعفي ثمر غيرها سواء سقيت بماء المطر الغزير، أو نزل عليها رذاذ ضعيف فإنه يكفيها لطيب تربتها.

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ج: (لا يتصدق أحد بصدقة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تكون مثل الجبل أو أعظم) أخرجه مالك في الموطأ.

(193/1)

وكم من حديث صحيح ورد في الترغيب في الصدقات والحث على الإنفاق رجاء ثواب الله وخشية عقابه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (كل عمل ابن آدم له يضاعف الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله يقول الله: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جنة الصوم جنة).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله فقال النبي ج: (لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة).

وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ج يقول: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بِها وَيُعَلِّمُهَ).

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ...) وذكر منهم: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يَمينه).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج:

(دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار

أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك).

وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ج قال له:

(وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بِها وجه الله إلا أجرت بِها حتَّى ما تَجعل فِي فِيِّ امرأتك). متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ج قال: (ما من يوم يصبح العبد فيه إلا ملكان ينْزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفً) متفق عليه.

وغير ذلك في هذا الباب كثير لا يمكن حصره في هذا البحث المختصر.

(194/1)

قلت: وهذه النصوص النبوية الكريمة فيها أعظم ترغيب في احتساب الصدقات وفيها أكرم وعد وأصدقه بالجزاء الأوفى عليها حتى ولو كانت النفقة على من تجب نفقتهم عليك، وهذا فضل من الله عظيم وإحسان كبير يحتاج إلى فهم صحيح، وشكر لله بالقول والعمل: {وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ} [لقمان: من الآية12].

وكما تكون الصدقة بالمال فإنَّها تكون أيضًا بذكر الله على اختلاف أنواع الذكر، كقراءة القرآن، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير والاستغفار وغير ذلك من ذكر القلب واللسان، فإن ذلك كله صدقات مضاعفة، لا كلفة فيها ولا إرهاق ولا مشقة، وإنما هي خفيفة وسهلة وميسرة على القلب واللسان معًا، ومع ذلك فهي ثقيلة في الميزان وحبيبة إلى الرحمن.

ولا غرابة أن تكون الصدقة بذكر الله كذلك فقد أمرنا سبحانه بذلك في مواضع كثيرة من كتابه، وما ذلك إلا لعظيم فضله وكثرة فوائده ونفعه حيث قال سبحانه: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم}. وقال عز و جل: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}. وقال تعالى: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

ومدح الله الذاكرين وأثنى عليهم فقال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ ِ الأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ –190, الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}.

(195/1)

وقال –تبارك وتعالى–: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال:2]. وقال عز و جل: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}. وغير ذلك كثير.

وأما الأحاديث التي جاءت في فضل الذكر وكثرة فوائده الدنيوية والأخروية وأنه من الصدقات التي ترفع الدرجات وتحط الخطيئات فهي كثيرة جدًّا أذكر منها ما يلي:

1– ما جاء في صحيح مسلم عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (الطهور شطر الإيْمان، والحمد لله تَملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تَملأ ما بين السماء والأرض).

2– قوله ج: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان خفيفتان على اللسان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم).

3– وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ج قال: (قال موسى عليه السلام : يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بِهن لا إله إلا الله).

4– وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن أناسًا من أصحاب رسول الله ج قالوا للنبي ج: (يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم !! قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون، إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تَهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة، ونَهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر. قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر).

5– وفي الصحيحين عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا النبي ج فقالوا: (ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ج: أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم. قالوا: بلى يا رسول الله. قال: تسبحون، وتكبرون، وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة). قال أبو صالح: (فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله،

فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بِما فعلنا ففعلوا مثله. فقال رسول الله ج: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

قلت: وبالتأمل في مدلولات هذه النصوص الشرعية، نعلم علم اليقين أن المحافظة على الذكر المطلق والذكر المقيد حسنات من العبد على نفسه سيجد ذخرها عند الله الذي وفقه لها، وسهلها على لسانه، وحببها إلى روحه وقلبه فينبغي المحافظة عليها على أي حال من الأحوال، وفي كل من الأحيان كما كان رسول الله ج يذكر الله على كل أحيانه طلبًا لنيل رضا ربه، ولرفع درجاته عالية في رحابه، وإن لنا فيه للأسوة الحسنة والقدوة الرشيدة، إذ هو رسولنا ومعلمنا والمشرع لنا، والحريص على إسعادنا في دنيانا وبرزخنا وآخرتنا.

وكما تكون الصدقة بالمال وبذكر الله –تبارك وتعالى– فإنَّها قد تكون بأمور أخرى كثيرة منها:

1– الإصلاح بين الناس كما قال عز و جل: {لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:114].

(197/1)

2– عزل الشوكة والعظم والحجر عن الطريق، ودلالة الأعمى، وإرشاد الأصم والأبكم، وإعلام المستدل على حاجة له قد علمت مكانَها، وإغاثة اللهفان، ومساعدة الضعيف، ونحو ذلك مما هو مثله، فقد ورد عن الإمام أحمد بسنده عن النبي ج قال: (إن من أبواب الصدقة التكبير، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وأستغفر الله، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتزيل الشوكة عن الطريق والعظم والحجر، وتَهدي الأعمى، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانَها، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع ذراعيك مع الضعيف، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك).

3– حسن الخلق وطلاقة الوجه وإفراغك من إنائك في إناء أخيك لك صدقة فقد خرج الترمذي من حديث أبي ذر عن النبي ج قال: (تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونَهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلالة لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة). حديث صحيح.

4– كف الشر عن الناس صدقة، كما ورد في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيْمان والجهاد في سبيل الله. قلت: فأي

الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها عند أهلها وأكثرها ثَمنًا. قلت: فإن لَم أفعل؟ قال: تعين صانعًا وتصنع لآخر. قلت: يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: تكف شرك عن الناس، فإنَّها صدقة منك على نفسك).

5- ما أكلت الطيور والسباع، وما أخذ على المسلم من ماله بدون إذن ولا علم كما جاء في الصحيحين عن أنس عن النبي ج قال: (ما من مسلم يغرس غرسًا فيأكل منه الطير أو إنسان أو بَهيمة إلا كان له صدقة).

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ج قال: (ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع منه له صدقة، ولا ينقصه أحد إلا كان له صدقة).

(198/1)

وفي رواية أيضًا: (فلا يأكل منه إنسان ولا دابة ولا طائر إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة).

6- تعليم العلم أيضًا، فإن ثوابه يكون عاجلاً وآجلاً كما جاء في الحديث: (من علَّم بِما علم أورثه الله علم ما لَم يعلم)، ولما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ج قال: (أفضل الصدقة أن يتعلم الرجل علمًا ثم يعلمه أخاه المسلم).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : (ما تصدق عبد بصدقة أفضل من موعظة يعظ بِها إخوانًا له مؤمنين، فيتفرقون وقد نفعهم الله بِه) وغير ذلك في هذا المعنى كثير.

ولما كانت الأعمال الصالحة أقوالها وأفعالها عرضة لما قد يهجم عليها فيبطلها أو ينقص ثوابَها، فإن جميع الصدقات على اختلاف أنواعها إذا صحبها أو تبعها مَنّ أو أذى أو رياء أو عجب أو غرور فإن ذلك يحبط ثوابَها، ويرجع صاحبها بصفقة خاسرة تتبعها حسرة وندامة يوم القيامة يوم يكون كل مسلم أخلص في صدقته في ظلها.

ومن أجل المحافظة على بقاء ثواب الصدقات جاء التحذير الإلهي من الوقوع في أسباب إحباطها حيث قال عز و جل: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ} [البقرة: من الآية**264**]. وقال سبحانه: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: من الآية**110**].

وروى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب).

وهنا أمر خطير قد يمحق الحسنات محقًا وينسفها نسفًا، ألا وهو الوقوع في أعراض المسلمين، وأخذ أموالهم بالباطل، وسفك دمائهم بغير حق فقد روى البخاري –رحمه الله– من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لَم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه).

قلت: فليرحم العبد المسلم نفسه وليحافظ على حسناته، وليجعل تحذير ربه ووصية نبيه في قلبه ونصب عينيه، فإنَّهما يحملان الرحمة به والشفقة عليه لئلا تذهب حسناته هباءً منثورًا فيصبح غدًا في دار الجزاء يقلب كفيه على ما كان يرجو ثوابه فإذا هو يؤخذ منه جهرة لغيره عدلاً من الله وإنصافًا: {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: من الآية49].

-- نوافل الصوم:

ومن سنن الهدى التي تكون سببًا في النجاة من أهوال يوم القيامة، صوم التطوع، والمراد بصوم التطوع هو الذي لَم يجب على الإنسان بأصل الشرع ولَم يوجبه على نفسه كالنذر ونحوه، بل هو ما ينويه العبد بقلبه ليجد ذخرها عند الله يوم لقائه.

ولا ريب أن صوم التطوع من القرب العظيمة، والمستحبات الفاضلة التي تكون سببًا من أسباب النجاة من أهوال يوم القيامة وشدة كروبِها، وقد جاء الترغيب فيه من قول النبي ج وفعله:

أما من قوله ج فقد روى مسلم وغيره من حديث أبي أيوب عن رسول الله ج قال: (من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال فذاك صيام الدهر). وصيام ست من شوال إنَّما هي تطوع وليست فريضة، ولكن لفضل صوم التطوع فقد ثبت فيها ذلك الأجر الكبير.

كما جاء الترغيب أيضًا في صيام يوم عرفة لمن لَم يكن بعرفة، فقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه : أن رسول الله ج قال: (صيام يوم عرفه كفارة سنتين). وفي بعض الروايات الثابتة في السنن أنه يكفر السنة التي قبله والسنة الَّتِي بعده.

قلت: وهذا فضل عظيم، حيث يظفر هذا العبد الضعيف بتكفير ذنوب سنتين بسبب التقرب إلى الله بصيام يوم واحد .

كما ورد عن النبي ج الحث على صيام يوم عاشوراء فقد روى مسلم في صحيحه أنه لما قيل

للرسول ج: (إن يوم عاشوراء يوم تعظمه اليهود. قال: لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع).
وفي رواية: (صوموا التاسع والعاشر خالفوا اليهود).
كما جاء في الترغيب في صيام ثلاث أيام من كل شهر حيث قال رسول الله ج لأبي ذر: (يا أبا ذر إذا صمت من الشهر ثلاثة أيام فصم ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة).
وأما فعل النبي ج فقد حبب إليه قيام الليل وظمأ الهواجر لكمال معرفته بربه وعظيم رغبته فيما عنده من جزيل الأجر والثواب فهو بحق قدوة الأمة وأسوة من أراد التأسي به من البشرية، وهو القائل: (من صام يومًا في سبيل الله باعد الله بذلك اليوم النار عنه وجهه سبعين خريفً).
إذا علم هذا، فمن شاء فليكثر ومن شاء فليقلل، ففضل الله عظيم وخيره على العباد كثير، وأسباب مغفرته لا تعد، رحمة منه بعباده، وإحسانًا منه إليهم.
والخلاصة: فإن صوم التطوع من جملة النوافل التي من حافظ عليها ظفر بِمحبة الله له ورعايته، ومن أحبه الله أحبته ملائكته ووضع له القبول في الأرض.
كما ثبت عن النبي ج أنه قال في الحديث القدسي: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بِها، ورجله الَّتِي يَمشي بِها، ولئن استعاذني لأعيذنه، ولئن سألني لأعطينه).

(201/1)

فحري بالمسلم أن يقوي علاقته بالله وصلته به وذلك بحفظه لفرائضه والحرص على النوافل التي تعتبر من أقوى أسباب محبة الله ونيل رضاه، حقًّا إن اختيار المسلم لصوم التطوع وتركه لمألوفات النفس من مأكل ومشرب ونحوهما لدليل صادق وبرهان قاطع على حبه لله وإحيائه لسنة رسول الله ج، نعم إنه لعلامة من علامات السعادة، وقربة من أعظم القرب التي يرجى ثوابُها عند الله يوم يشتد بالأمة العطش، وتنْزل بِهم الكروب، وتعظم بِهم الخطوب، وتدهش الخلائق كلها من هول المطلع، ويتحقق أمامهم ما كانوا قرءوه وما سمعوه في هذه الحياة من إخبار الله في كتبه عن هول ذلك اليوم وعظيم شدائده يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء و{يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [الحج:2].
فهنيئًا لمن تقرب إلى الله بأداء فرائضه وأتبع ذلك بفعل النوافل التي تكمل الفرائض ليكون الكل سببًا في تخفيف ما سينْزل بالخلائق في يومها المشهود، الذي أخبرنا الله عنه بقوله:

{ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ –103, وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ –104, يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ –105, فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ –106, خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ –107, وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود:103–108].

(202/1)

تنبيه: ومما ينبغي التنبيه عليه أن هناك أيامًا نَهى الشارع الحكيم عن التقرب بصيامها، لأن المصلحة في الفطر فيها، من ذلك:

1– صوم يوم السبت: فقد روى عبد الله بن بشرحيث قال: قال رسول الله ج: (لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم، فإن لَم يجد أحدكم إلا عود عنب أو لحاء شجرة فليمضغه).

2– صوم يوم عرفة لمن كان بعرفة: فقد جاء عن عكرمة قال: دخلت على أبي هريرة في بيته فسألته عن صوم يوم عرفة بعرفات فقال أبو هريرة: (نَهى رسول الله ج عن صوم عرفة بعرفات).

3– صوم يوم الجمعة على انفراده: فقد جاء النهي عن ذلك صريحًا، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: (نَهى رسول الله ج عن صوم يوم الجمعة إلا بصوم يوم قبله أو بعده).

4– صوم يومي عيد الفطر والأضحى: فقد ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (نَهى النبي ج عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى).

5– أيام منى: كما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (أيام منى أيام أكل وشرب). إسناده صحيح على شرط الشيخين.

6– صوم يوم الشك: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (لا تقدموا صيام رمضان بيوم ولا بيومين، إلا رجل كان يصوم صومًا فليصمه).

كما جاء النهي عن صوم الدهر كله فقد دعا رسول الله ج على فاعل ذلك حيث قال: (لا صام من صام الأبد).

قلت: ولله حِكَم عظام في أوامره ونواهيه التي يشرعها لعباده على لسان نبيه محمد ج منها: المعلومة لأولي العلم، ومنها غير المعلومة، وذلك هو مقتضى اسمه الحكيم سبحانه.

-- الاعتكاف:

(203/1)

ومن سنن الهدى الَّتِي يرجى ثوابُها ويؤمل ذخرها يوم القيامة، سنة الاعتكاف الَّتِي شرعها لنا رسول الله ج بقوله وفعله وتقريره ومعنى الاعتكاف: هو المقام في مسجد ما من شخص مخصوص على صفة مخصوصة وحكمه مسنون بإجماع علماء المسلمين، ولا يشترط على الصحيح من أقوال أهل العلم فيه صوم ولا طهارة من حدث أصغر ولا مكث طويل، بل لو مكث بعض يوم أو بعض ليلة بنية الاعتكاف لكان قد أتى بِهذه السنة الشريفة.

والاعتكاف عبادة تندرج تحتها عبادات كثيرة منها:

1- كثرة ذكر الله الذي يعتبر من أفضل القربات وأجل الصدقات على النفس وذلك لأن الملازم للمسجد كثيرًا ما يشتغل بالذكر من قراءة للقرآن وتسبيح وتحميد وتكبير وتَهليل وتوبة واستغفار .

2- التفرغ لأداء الصلوات الفرائض والنوافل في أوائل الأوقات بخلاف من كان خارج المسجد فقد تحول بينه وبين صلوات التطوع أمور كثيرة لا تخفى على ذوي الفهم والبصيرة.

3- كثرة الإقبال على الله بفعل طاعته وترك معصيته ومجانبة الوقوع في الشرور والآثام التي يقع فيها من يباشر الضيعات ويعافس النساء والأولاد، ويختلط بالجماهير من البشر، ولفضله فقد فعله النَّبِي ج وداوم عليه هو وأزواجه من بعده، كما جاء في البخاري ومسلم -رحمهما الله تعالى- عن عائشة -رضي الله عنها-: (أن النَّبِي ج كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتَّى توفاه الله تعالى ثُمَّ اعتكف أزواجه من بعده) فهذا فعله.

(204/1)

أما قوله وتقريره فقد جاء في صحيح البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : (أن رسول الله ج كان يعتكف في العشر الأوسط من رمضان، فاعتكف عامًا حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين، وهي الليلة التي يخرج من صبيحتها من اعتكافه قال: من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر، فقد أريت هذه الليلة ثم أنسيتها، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين من صبيحتها فالتمسوها في العشر الأواخر والتمسوها في كل وتر. فمطرت السماء تلك الليلة وكان المسجد على عريش فوكف المسجد فبصرت عيناي رسول الله ج وعلى جبهته أثر الماء والطين من صبح إحدى وعشرين).

تنبيه: ومما يجب التنبيه عليه هو أن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد، وأن المعتكف لا يجوز له الجماع أثناء اعتكافه، ولا الخروج من معتكفه إلا لما لابد منه حتى ينتهي من اعتكافه، لقول الله عز وجل : {وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ } [البقرة: من الآية187].

وكذا لا يجوز له الخروج من المسجد إلا لما لابد منه، كما أنه لا يعود مريضًا ولا يشهد جنازة ولا يباشر امرأة، لما ثبت عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: (السنة على المعتكف أن لا يعود مريضًا، ولا يشهد جنازة، ولا يمس امرأة ولا يباشرها، ولا يخرج إلا لما لابد منه).

قلت: وهذه الأمور التي وصى الشارع الحكيم المعتكف بالامتناع منها تدل على أهمية هذه السنة الشريفة والعبادة الفاضلة التي تتجلى فيها محبة العبد لسنن الهدى الَّتِي شرعها ورغب فيها نبي الرحمة والهدى، كما يتجلى فيها صدق المحبة لخير البقاع في الأرض وهي المساجد التي أذن الله أن ترفع ويذكر اسمه فيها.

ورحم الله فريد عصره الشيخ حافظ بن أحمد بن علي الحكمي الذي قال في هذا الباب نظمً:

في أي وقت وبأي مسجد
بالليل ونَهار نصًّا يعتمد
لاسيما العشر الأواخر أجهدا
لكي بذا تنال غاية الأمل
إلا لأمر ليس بد منه يشرع الاعتكاف في المساجد
وليس فيه الصوم شرطًا بل ورد

(205/1)

لكنه في رمضان آكدا
فيه بجد واجتهاد في العمل
وما لعاكف خروج عنه

-- الاهتمام بإحياء خصال الفطرة :

وليعلم القارئ الكريم أن إحياء خصال الفطرة سبب عظيم من أسباب النجاة من أهوال يوم القيامة، ومدخل كريم من المداخل التي يلج العبد منها إلى رحاب الله خالقه ومولاه في جنته التي أعدها لجنده وحزبه ومن والاه، وسعى لنيل رحمته وكسب رضاه .

وخصال الفطرة كثيرة لا يستطاع حصرها في مثل هذا البحث المختصر غير أنني سأذكر منها ما جاء في صحيح مسلم –رحمه الله– عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله ج: (عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء). قال زكريا: قال مصعب بن أبي

شيبة: (ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة ...) انتهى. وقيل: الختان.

وبالنظر في هذا الحديث قد تضمن عشر خصال من خصال الفطرة:

الأولى: قص الشارب:

والمراد بقصه أخذه حتى يبدو طرف الشفة بحيث لا يبقى متدليًا فيؤذي صاحبه، ولعله يدعو صاحبه إلى التكبر والتجبر والغرور وتصعير الخد كما يفعل الأعاجم بشواربِهم، وكذا مقلدوهم من المسلمين ممن اختاروا لأنفسهم عكس الفطرة فتراهم يعفون شواربَهم ويسبلونَها ويحلقون لحاهم في كل وقت وحين، وفيهم قال شيخن –رحمه الله– نظمًا:

تشبهًا ومجاراة وما اتأدوا

تفضون منه إلى سجين مؤتصد وللشوارب أعفو واللحى نتفوا

قالوا رقيًّا فقلنا للحضيض نعم

الثانية: إعفاء اللحية:

وإعفاؤها واجب بنص الأمر النبوي الكريم، ولا صارف للأمر من الوجوب إلى الندب، وأما حلقها أو قصها فهو من عادات الفرس واليهود والمشركين الذين لا يجوز لنا تقليدهم في بدعهم ولا ينبغي لنا الاغترار بصنيعهم والوقوع في انحرافاتِهم، وسنة نبينا ج تنادينا نداء شفقة ورحمة: (أحفوا الشوارب واعفو اللحى ولا تشبهوا باليهود)، وفي رواية البخاري: (أنْهكوا الشوارب واعفو اللحى).

(206/1)

وإن باغي الخير ليدرك أن الأمر في هذه النصوص وما في معناها يقتضي الوجوب، ويدل على إكرام اللحية بتركها كلها وعدم أخذ شيء منها، ومن ناحية أخرى فإن حلقها تشبهًا بالنساء، والتشبه بالنساء كبيرة من كبائر الذنوب، كما روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس y قال: (لعن رسول الله ج المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال).

إذا علم هذا فإنه يجب أن تكون لدى المسلمين قناعة بأن الخير والسداد والكمال والجمال فيما شرع لهم نبيهم محمد ج، لا فيما غرهم به الغرب الكافر أهله، فانخدعوا به وطفقوا يقلدونَهم في كل شيء تَهواه نفوسهم المريضة بدعوى أن الغرب عالم مثقف ومتحضر وراق ونحو ذلك من الألقاب التي لا ينبغي أن يطلقها مسلم على أولئك الفساق المفلسين من كل خير وفضيلة، والمتلبسين بكل شر وفضيحة ورذيلة، ويا أسفي على حالنا نحن المسلمين، متى

نعي الفرق بين الفضائل والرذائل وبين دعاة الخير والسعادة، ودعاة الشر والشقاوة .
حقًّا يا أخي المسلم القارئ المتبصر، والسامع المستفيد، إن حلق اللحية أمر قبيح وفعله من طلاب العلم كبارًا وصغارًا أقبح، وما ذلك إلا لأنَّهم عصاة على بصيرة، ومنحرفون عن الحق بعد علم، هذا أمر.
والأمر الثاني: فإن الناس ينظرون غالبًا إلى طالب العلم فيقلدونه ويعتبرونه قدوتَهم، وإنني لأخشى أن ينطبق عليهم قول الله عز وجل :
{ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ } [النحل:25]. وقول النَّبِي ج: (ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بِها إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيء).
الثالثة: السواك:

(207/1)

والسواك هو ما يدلك به الفم ليطيبه ويزيل به الصفرة التي تلصق بالأسنان وغيرها مما يعلق بالفم، والسواك هو العود من الأراك أو البشام ونحوهما مما يستعمل في تنظيف وتطيب الفم وتنقية الأسنان وتطيبها .
وقد تقوم الوسائل الحديثة من فرشة ومعجون ونحوهما مقام عود الأراك غير أن عود الأراك هو أجود أنواع ما يستاك به لما يحتوي عليه من منافع وما يمتاز به من ميزات لا توجد في غيره، فمن خواصه أنه يقتل الجراثيم الموجودة في الفم والتي تسبب كثيرًا من أمراض الفم والأسنان على اختلاف أنواعها.
ومن خواصه أنه توجد به أملاح معدنية ومواد عطرية ذات رائحة ذكية ومواد سكرية مختلفة ومواد أخرى توجد بعود الأراك ولا توجد بغيره مما يستعمل لتنظيف وتطيب الفم والأسنان، ولأهمية السواك في شريعة الإسلام فقد جاءت الأحاديث النبوية الصحيحة ترغب فيه وترشد إلى استعماله في كل الأحيان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبِي ج قال: (لولا أن أشق على أمتِي لأمرتُهم بالسواك مع كل صلاة) متفق عليه.
وجاء في البخاري عن أنس بن مالك قال: قال ج: (أكثرت عليكم في السواك).
وفي سنن النسائي عن عائشة –رضي الله عنها– أن النَّبِي ج قال: (السواك مطهرة للفم مرضاة للرب).
وعنها –رضي الله عنها– قالت: (كنا نعد لرسول الله ج سواكه وطهوره فيبعثه الله من الليل

فيتسوك ويتوض).

ولَمَّا سئلت –رضي الله عنها– عن الشيء الذي يبدأ به رسول الله ج إذا دخل بيته؟ قالت: (بالسواك).

قلت: والمستفاد من هذه النصوص الكريمة أن السواك خصلة عظيمة من خصال الفطرة، ومستحب في جميع الأوقات وذلك بحسب القدرة والإمكان والحاجة غير أنه لَم يكن واجبًا.

قال النووي –رحمه الله–: السواك مستحب في جميع الأوقات، ولكنه في خمسة أوقات أشد استحبابًا:

1– عند الصلاة.

2– عند الوضوء.

3– عند قراءة القرآن.

4– عند الاستيقاظ من النوم.

5– عند تغير الفم.

الخصلة الرابعة والخامسة هما: الاستنشاق والمضمضة:

(208/1)

فأما الاستنشاق: فهو جذب الماء داخل الأنف وأما إخراجه فيسمى استنثارًا وبِهذه العملية تزول الأوساخ التي تتجمع داخل الأنف، سواء كانت من الداخل أم من الخارج، إذ إنَّها لو بقيت داخل الأنف لنتج عنها رائحة كريهة تؤذي صاحبها وتؤذي غيره من الناس لاسيما من له بِهم علاقة جنسية كزوجته أو زوجاته أو علاقة عاطفية كبنيه ونحوهم، لذا فقد حرص الإسلام على نظافة أعضاء المسلم الظاهرة والخفية مما يدل على كمال التشريع الإلهي الذي يعتبر دائمًا في المقام الأول في كل جانب من جوانب الكمال البشري ومتطلبات روحه وجسده المحاطة بقانون الشرع الشريف.

وأما المضمضة: فهي أن يجعل الماء في الفم ثم يديره فيه ثم يمجه، وذلك ثلاث مرات مع الاستنشاق بثلاث غرفات، إذ إن بينها وبين الاستنشاق تلازمًا فعليًّا والأحسن المبالغة فيهما إلا لمن كان صائمًا فإن الأفضل عدم المبالغة لئلا يتسرب الماء إلى داخل الجوف فيقع في المحذور.

وبفعلهما يكون الكمال في الطهارة سواء من الحدث الأكبر أو الأصغر فيقف العبد أمام ربه طاهرًا نقيًّا بل ويحيا كذلك.

وهما من السنن المشروعة التي ينبغي أن يحرص المسلم والمسلمة على استعمالهما على الكيفية الموضحة آنفًا، أما حكمهما من حيث الوجوب أو الاستحباب فللفقهاء مذاهب وتفصيلات في ذلك فلتراجع في مظانِّها، أما هنا فحسبي أن أبين أنَّهما من خصال الفطرة التي من أحياها فقد أدلى بأعظم الأسباب التي توجب له من الله المحبة والرضا والرحمة العظيمة يوم فصل القضاء .

الخصلة السادسة من خصال الفطرة: قص الأظافر:

(209/1)

والمراد بقص الأظافر قطع ما طال منها لأنَّها إذا تركت بدون قطع حملت الأوساخ الَّتِي تتنافى مع قانون النظافة الذي يرمي الإسلام إلى تحقيقه أضف إلى ذلك أن بقاءها بدون قطع فيه ضرر عظيم قد يلحق صاحبها، وقد ينال غيره سواء بقصد أو بغير قصد، مع ما في ذلك من مشابَهة أهل الانحراف في عصرنا الحاضر، أعني الذين يتركون بعض أظافرهم بدون قطع تقليدًا لأعداء الإسلام الذين ترتاح نفوسهم المريضة لمخالفة تعاليم الإسلام ذات الأهداف السامية، وتضيق صدورهم إذا قيل لهم: هذا حلال، وهذا حرام، هذا وكم لأهل التقليد الخاطئ من مخالفات عن سنن الهدى، فقد أسبلوا الإزار المحرم إسباله على لسان محمد ج، وقد حلقوا اللحى الَّتِي نَهى رسول الله ج وأصحابه الكرام وأتباعه –بإحسان والتزام إلى ساعة لقاء الملك العلام– عن حلقها وحلقوا القزع الذي نَهى عنه رسول الله ج نَهيًا صريْحً، ومارسوا ألعاب القمار المفسدة للأموال والأديان والعقول وسموها بأسماء أخرى وانتحلوا لأنفسهم في ممارستها الأعذار، فعلوا ذلك كله وأكثر منه مجاراة للكفار وشبه الكفار، بدون خوف ولا حياء من الله الواحد القهار وكم من بليات جرى فيها التقليد بدون تبصر ولا تعقل وإنما اتباع للهوى ورغبة فيما يعمله خصوم الإسلام الألداء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أعود إلى الموضوع الذي هو تقليم الأظافر، فأقول: إنه يستحب في كيفية تقليمها البدء بالميامن من اليدين والرجلين وكذا الأصابع، لما ثبت عن رسول الله ج: (أنه كان يعجبه التيمن في تنعله، وترجله، وفي طهوره، وفي شأنه كله).

الخصلة السابعة من خصال الفطرة: نتف الإبط:

(210/1)

وهو إزالة الشعر الذي ينبت فيه والأفضل في إزالته النتف، كما قال الإمام النووي –رحمه الله– استنادًا إلى لفظ الحديث، وإن أزاله بالنورة أو القص فلا تثريب عليه لاسيما إذا كان لا يقدر على النتف، كما قال يونس ابن عبد الأعلى: دخلت على الشافعي –رحمه الله– وعنده المزين يحلق إبطه، فقال الشافعي: علمت أن السنة، النتف ولكن لا أقوى على الوجع. ويشرع فيه البدء باليمين اقتداء بالنَّبِي الكريْم ج الذي حبب إليه التيمن في شأنه كله.

الخصلة الثامنة: غسل البراجم:

والمراد بالبراجم عقد الأصابع ومفاصلها كلها، ويلحق بِها المواضع الَّتِي يمكن أن تتجمع فيها الأوساخ من معاطف الأذن وداخل الأنف وغيرها من مواقع الغبار والعرق من البدن فإنه ينبغي تعاهدها بالماء والعناية بِها بصورة خاصة فإن ذلك من خصال الفطرة الهادفة إلى الطهارة الكاملة والنظافة البدنية العامة.

الخصلة التاسعة: حلق العانة:

والمراد بِها جميع الشعر الذي ينبت فوق قُبل الرجل والمرأة ودبرهما وما حولهما وتكون إزالتها بالموس وهو الأفضل، وهكذا يصح النتف والنورة، ونحوهما من كل شيء يؤدي الغرض الذي هو تنظيف المحل المذكور.

وأما وقت حلق هذه الشعور فبحسب الحاجة وحسب الطول فمتى طالت أزيلت، وأما حديث أنس بن مالك الذي رواه مسلم في صحيحه قال: (وقت لنا في قص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة أن لا تترك أكثر من أربعين ليلة) فمعناه لا يترك تركًا يتجاوز به أربعين، لا أنه وقت لهم الترك أربعين، كما أفاده النووي –رحمه الله– في شرحه لصحيح مسلم.

الخصلة العاشرة: انتقاص الماء:

والمراد به على القول الصحيح الاستنجاء، والمعلوم من الدين بالضرورة أن الاستنجاء يكون بالماء، ويكون بالأحجار، وما يقوم مقامها مِمَّا لَم ينه عنه كالعظم والروثة والرجيع وكل محترم ككتب العلم ونحوها.

(211/1)

وأخيرًا: فهذا حديث مختصر عن بعض خصال الفطرة التي دلت عليها واستوعبتها نصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة، عرف ذلك ويعرفه من رزقه الله فهمًا جيدًا في كتاب ربه وسنة نبيه محمد ج من أول قرون هذه الأمة وآخرها وذلك كالخلفاء الراشدين المهديين

وإخوانِهم من المهاجرين الكرام والأنصار الكرماء الأمجاد، وكالفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة التوحيد والتفسير والتاريخ ورجال الحديث والفقه وأصولها، وقادة الجهاد والدعوة إلى الله، وممن جاء بعدهم الذين جعلهم الله أنوارًا ساطعةً وحججًا ثابتة قاطعة ومنارات للخير والهدى والصلاح يدعون بدعوة الله ويبلغون رسالاته استجابة منهم لنداء ربِّهم ومسارعة إلى أسباب مغفرته ورحمته واقتداء بالنبي العظيم والرسول الناصح الأمين عليه من الله أكرم تحية وأزكى صلاة وأعظم تسليم.

-- التفرغ لطلب العلم والسعي في تحصيله ومذاكرته:

ومن سنن الهدى التي فيها النور والهدى والسلامة من الزيغ والضلالة والردى التفرغ لطلب العلم والسعي في تحصيله ومذاكرته.

اعلم يا أخي المسلم أن طلب العلم والتوسع فيه والعمل به ونشره هو دأب عباد الله المتقين، ومأدبة حزبه المفلحين، وغاية أوليائه الصالحين، وما ذلك إلا لما عرفوا له من اللذة والفضل في هذه الحياة، ومن الأجر والذخر يوم يحشر العلماء في زمرة الأنبياء، ويفوزون بأعلى الجنان لأنَّهم أئمة الأولياء وكفى بطلب العلم فضلاً وبأهله شرفًا ونبلاً أنَّهم ورثة الرسل الكرام والأنبياء العظام والأئمة الأعلام عبر مرور السنين والشهور والليالي والأيام.

ولقد قال رسول الله ج: (وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لَم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنَّما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر).

وقال أيضًا ج: (من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض وكل شيء حتى الحيتان في جوف الماء وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لَم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنَّما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر).

فهذان النصان الكريمان يدلان أكبر دلالة على فضل طلب العلم والتضحية في سبيل تحصيله، ونشره وقضاء العمر الغالي في كل ذلك إذ إن هذه الفضائل الراقية لا تحرز ولا تنال إلا ببذل الجهد في تحصيل العلم النافع الذي يمتد أجره في حال الحياة وبعد الممات، كما قال ج: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).

وقال حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس y: (لَمَّا قبض رسول الله ج وأنا شاب قلت لشاب من الأنصار: يا فلان هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ج ونتعلم منهم فإنَّهم كثير. قال: العجب لك يابن عباس أترى الناس يحتاجون إليك وفي الأرض من ترى من أصحاب رسول الله ج. قال: فتركته، وأقبلت على المسألة، وتتبع أصحاب رسول الله ج، فقد كنت آتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله ج، فأجده قائلاً فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح على وجهي حتى يخرج فإذا خرج قال: يابن عم رسول الله ما لك؟ فأقول: بلغني حديث عنك أنك تحدثه عن رسول الله ج فأحببت أن أسمعه منك. قال: فيقول: فهلا بعثت إلي حتى آتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك. فكان الرجل الأنصاري بعد ذلك يراني وقد ذهب أصحاب رسول الله ج واحتاج الناس إلي، فيقول: كنت أعقل مني).

(213/1)

وقال جابر بن عبد الله y: (بلغني حديث عن رجل من أصحاب رسول الله ج فابتعت بعيرًا فشددت عليه رحلي ثم سرت إليه شهرًا حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أنيس الأنصاري، فأتيت منْزله وأرسلت إليه أن جابرًا على الباب فرجع إلي الرسول فقال: جابر بن عبد الله. فقلت: نعم. فخرج إلي فاعتنقته واعتنقني، قال: قلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله في المظالم، لَم أسمعه أنا منه، قال: سمعت رسول الله ج يقول: يحشر الله –تبارك وتعالى– العباد، أو قال: الناس –شك همام– وأومأ بيده إلى الشام حفاة عراة غرلاً بُهمًا. قال: قلنا: ما بُهمًا؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد ويسمعه من قرب، أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بِمظلمة حتى اللطمة. قال: قلنا له: كيف وإنَّما نأتي الله عز وجل حفاة عراة غرلاً؟! قال: بالحسنات والسيئات).

كما رحل أبو أيوب الأنصاري من المدينة إلى مصر ليأخذ حديثًا واحدًا من عقبة بن عامر فخرج إليه عقبة فقال له: (أبو أيوب حدثنا ما سمعته من رسول الله ج في ستر المسلم. قال: سمعت رسول الله ج يقول: من ستر مسلمًا على خزية ستره الله يوم القيامة)، فأتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة وما حل رحله.

وغير ذلك من هذا الصنف كثير، فانظر أيها القارئ الكريم كيف كانت العناية بالعلم وتحمل المشاق في تحصيله لله ومن أجله، لا لأعراض دنيوية زائلة من منصب أو عرض من متاع هذه الحياة كلا، ولا لقصد مباهاة العلماء، ولا مماراة السفهاء واحتياز المجالس، بل ليكسبوا الأجر

الوفير بتعليمه لمستحقيه، ومذاكرة ذويه فقد روى ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبِي ج قال: (أفضل الصدقة أن يتعلم الرجل علمًا ثم يعلمه أخاه المسلم).
وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : (ما تصدق عبد بصدقة أفضل من موعظة يعظها إخوانًا له مؤمنين فيتفرقون وقد نفعهم الله بِهِ).

(214/1)

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : (عليكم بالعلم فإن طلبه عبادة، وتعلمه لله حسنة، وبذله لأهله قربة وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، والبحث عنه جهاد، ومذاكرته تسبيح).
وبجانب حرص سلفنا الصالح وعلمائنا الأوائل على جمع العلم والعمل به ونشره فإنَّهم يخافون أشد الخوف ويتحرجون أعظم التحرج من كتمان العلم، ذلك لأن الله –تبارك وتعالى– توعد من كتم علمًا شرعيًّا يحتاج إليه العباد حيث قال سبحانه: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ – 159, إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة:159، 160].
ففي هاتين الآيتين تحذير بليغ ووعيد شديد لمن يكتم العلم والناس يسألونه بلسان الحال أو بلسان المقال في أي زمان وأي مكان وعلى أي حال.
وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: (لولا آيتان في كتاب الله ما حدثت). يعنِي: الآيتين السالفتي الذكر في سورة البقرة رقم: (159، 160).
وقد ثبت عن النَّبِي ج الوعيد الشديد لمن يكتم العلم الذي أكرمه الله به وأنعم به عليه حيث قال: (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة).

(215/1)

ومن المعلوم الذي لا ينكره عاقل أن الناس في زماننا هذا قد فشا فيهم الجهل بنوعيه البسيط والمركب، سواء كانوا من أهل المدن أم من أهل البوادي والقرى، وقد بخل العلماء بالتعليم في المساجد ومجامع الناس إلا القليل ممن لديهم قناعة بوجوب الدعوة إلى الله، وتفقيه الخلق في دين الله، ولقد كثرت وسائل موت القلوب وضعف الإيْمان في النفوس –أعنِي: وسائل اللهو واللعب والغفلة– فلا تكاد تمر ببيت في مدينة أو قرية أو بادية أو متجر أو مصنع أو مقهى في

عالمنا الإسلامي –إلا من خاف مقام ربه– إلا وأنت تسمع الأغاني الخليعة التي يرتاح لها أصحاب النفوس المريضة والقلوب السقيمة، وكذا التمثيليات الصاخبة بالأصوات المغرية بالفاحشة والحركات الفاتنة، التي لا تدخل السرور النظيف على هواتِها ولا تحقق أدنى مصلحة دينية أو دنيوية وإنما هي كذب صريح وفساد كبير وشر مستطير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير.

ولقد تم استبدال كثير من الناس الذي هو أدنى بالذي هو خير حيث استبدلوا العكوف في ألعاب قد اختلفت أنواعها وثبت ضررها دينًا ودنيا وذلك: كلعب النرد والشطرنج والضمنة والكيرم وبلوت الورق ونحوها من الألعاب التي يعكف عليها جل الأنام ليلاً ونَهارًا، نعم استبدلوا ذلك وغيره بحلقات الذكر النافعة، والفقه في دين الله القويم، والسير على الصراط المستقيم، الذي يوصل إلى رضا الله وإلى دار كرامته يوم لقاه.

ونظرًا لحال الناس في هذا الزمان الذي تكاثرت فيه الشرور وتتابعت فيه الفتن وتحققت فيه غربة الدين، وانتشرت فيه وسائل الزيغ والانحراف عن طريق الحق المبين وهدي رب العالمين، فإنه يجب على كل طالب علم أن يجند نفسه ويبذل جهده في سبيل إيصال الخير والهدى والنور إلى البشرية كلها لتحيا بعد موتِها حياة طيبة مباركة، ويستيقظ الغافل من غفلته وسباته، ويرشد الجاهل بعد جهله وضلاله.

(216/1)

وأن يستعمل الداعي إلى الله في ذلك أنجح الطرق وخير الوسائل وأسهل الأساليب التي تكون عونًا له على انتشال أهل الجهل والغواية مما هم عليه من ذلك الجهل والضلال والغواية إلى نور العلم والفقه في الدين والهداية، فإن نحن فعلنا ذلك رجاء ثواب الله، وخشية عقابه، وخروجًا من التبعة وبراءة للذمة ونصحًا للأمة فقد سلكنا طريق الهداية والرشد والبلاغ، وهذا الصنع يسير على من يسره الله عليه من أهل العلم النافع، والعمل الصالح، والفقه في الدين، الذين يحبون إيصال الخير إلى خلق الله أجمعين.

أما من اتخذ العلم حرفة كغيرها من الحرف التي يتخذها أهلها وسيلة لكسب المال وإحراز الجاه ووصولاً إلى كراسي الرئاسة والسلطان، فإنه لن يهتم بنشر العلم بين محتاجيه، ولن يفكر أن عليه لله واجبًا فيه وسيتحمل مسئولية عظمى ويندم ندامة كبرى يوم يسأل كل ذي علم عما عمل فيه.

وقد جاء في الحديث عن النَّبِي ج أنه قال: (من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا

ليصيب به عرضًا من الدنيا لَم يجد عرف الجنة يوم القيامة). أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(217/1)

قال ابن عبد البر النمري القرطبي تعليقًا على هذا الحديث الذي تضمن الوعيد الشديد لمن يطلب الدنيا بعلمه، حيث قال –رحمه الله–: "وسبب هذا –والله أعلم–: أن في الدنيا جنة معجلة وهي معرفة الله ومحبته والأنس به والشوق إلى لقائه وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل على ذلك، فمن دل علمه على دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا، دخل الجنة في الآخرة، ومن لَم يشم رائحتها، لَم يشم رائحة الجنة في الآخرة، ولهذا كان أشد الناس عذابًا في الآخرة من لَم ينفعه الله بعلمه، وهو أشد الناس حسرة يوم القيامة حيث كان معه آلة يتوصل بِها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها، فهو كمن معه جواهر نفيسة لها قيمة فباعها ببعرة أو شيء مستقذر لا ينتفع به، فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه".

وثبت عن جابر بن عبد الله عز وجل عن النَّبِي ج قال: (لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتحيزوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار) رواه الترمذي، وابن ماجه بِمعناه، والحاكم في المستدرك بلفظه.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله فهو يبقى ويفنى ما سواه).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (يا حملة العلم اعملوا به فإنَّما العالم من عمل بِما علم فوافق عمله علمه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف سريرتُهم علانيتهم يجلسون حلقًا حلقًا فيباهي بعضهم بعضًا حتى إن الرجل ليغضب على جليسه إذا جلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل).

قلت: وانطلاقًا من مدلولات هذه النصوص الصحيحة والآثار الحكيمة فإنه يجب على طلاب العلم في كل عصر ومصر وفي كل حاضرة وبادية:

(218/1)

1- أن يعملوا بعلمهم ظاهرًا وباطنًا.

2- وأن يهتموا بنشره وبيانه للناس اقتداء بأنبياء الله ورسله والصالحين من عباده.

3- وأن يخلصوا لله في طلبهم للعلم وتعليمه للناس بحيث لا يرجون الثواب إلا من الله، ولا يخشون أحدًا من الخلق سواه.

4- وأن يتعلموا للعلم التواضع، والحلم والسكينة والوقار طاعة لله ومتابعة لرسول الله ج به وبأولي العلم والنهى والزهد والورع والتقى، الذين حفظ الله بِهم فنون العلم الشريف، أعني الصحابة والتابعين وتابعيهم في كل زمان ومكان من أئمة العلم والفضل والدين أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده حتى يأتيك من ربك اليقين.

5- وأن يصبروا على الأذى الذي لابد منه لطالب العلم لاسيما عند القيام بحقه الذي هو تطبيقه في ميدان هذه الحياة على الوجه الشرعي ودعوة الخلق إلى ذلك بجد واجتهاد وصدق وإخلاص.

ثُمَّ إنه يطيب لي أن أختم هذا الموضوع الجليل القدر العظيم الفائدة بأبيات من المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية لشيخنا الفاضل/ حافظ بن أحمد ابن علي الحكمي – قدس الله روحه ورفعها في عليين مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين-.

قال -رحمه الله- في وصف العلم ووصية طلابه:

أذن وأعرب عنه ناطق بفم
العليا فاسعوا إليه يا ذوي الهمم
لله أكرم من يمشي على قدم
أهل السعادة والجهال في الظلم
أهل الجهالة أموات بجهلهم

****

ميراث يشبهه طوبى لمقتسم
وما سواه إلى الإفناء والعدم
قوامه وبدون العلم لَم يقم
إلى الهدى وإلى مرضات ربِّهم
العلم الذي فيه منجاة لمعتصم
أهل السموات والأرضين من لمم
من البحار له في الضوء والظلم
مجاهد في سبيل الله أي كمي

لطالبيه رضا منهم بصنعهم
إلى الجنان طريقًا بارئ النسم
مؤديًا ناشرًا إياه في الأمم
بذا بدعوة خير الخلق كلهم
من أجله درجات فوق غيرهم
الأملاك بالعلم من تعليم ربِّهم
للعالمين بغير العلم والحكم
أعظم بذلك تقديْمًا لذي قدم

(219/1)

وأضحت الآي منه في صدورهم
قولاً وفعلاً وتعليمًا لغيرهم
وعقل أمثاله في أصدق الكلم
حيث استجابوا وأهل الجهل في صمم
كالبدر فضلاً على الدري فاغتنم
فقد ظفرت ورب اللوح والقلم
في القول والفعل والآداب فالتزم
لو يعلم المرء قدر العلم لَم ينم
في السر والجهر والأستاذ فاحترم
وفيهم احفظ وصايا المصطفى بِهم
إن البناء بدون الأصل لَم يقم
أخسر بصفقته في موقف الندم
يوم القيامة من حظ ولا قسم
كذا مباهاة أهل العلم لا ترم
إلى الإله ألد الناس في الخصم
أعمال صاحبه في سيله العرم
وقدم النص والآراء فاتَّهم
يبين نَهج الهدى من موجب النقم

والكسر في الدين صعب غير ملتئم
يجلو بنور هداه كل منبهم
منه استمد ألا طوبى لمغتنم
في لعنة الله والأقوام كلهم
من الجحيم لجامًا ليس كاللجم
ماذا بكتمان بل صون فلا تلم
من مستحق له فافهم ولا تَهم
سبيل ربك بالتبيان والحكم
فيه وفي الرسل ذكرى فاقتده بِهم
خير غدًا لك من حمر من النعم
تعدل وقل ربي الرحمن واستقم(1)

العلم أعلى وأحلى ما له استمعت
العلم غايته القصوى ورتبته
العلم أشرف مطلوب وطالبه
العلم نور مبين يستضيء به
العلم أعلى حياة للعباد كما
****

العلم والله ميراث النبوة لا
لأنه إرث حق دائم أبدا
العلم ميزان شرع الله حيث به
وسلطة العلم تنقاد القلوب لها
ويذهب الدين والدنيا إذا ذهب
العلم يا صاح يستغفر لصاحبه
كذاك تستغفر الحيتان في لجج
وخارج في طلاب العلم محتسبا
وأن أجنحة الأملاك تَبسطها
والسالكون طريق العلم يسلكهم
والسامع العلم والواعي ليحفظه
فيا نضارته إذ كان متصفا

كفاك في فضل أهل العلم أن رفعوا
وكان فضل أبينا في القديْم على
كذاك يوسف لَم تظهر فضيلته
وقدم المصطفى بالعلم حامله
كفاهمُ أن غدوا للوحي أوعية
وإن غدوا وكلاء في القيام به
وخصهم ربنا قصرًا بخشيته
ومع شهادته جاءت شهادتُهم
والعالمون على العباد فضلهم
يا طالب العلم لا تبغي به بدلا

(220/1)

وقدر العلم واعرف قدر حرمته
واجهد بعزم قوي لا انثناء له
والنصح فابذله للطلاب محتسبًا
ومرحبا قل لمن يأتيك يطلبه
والنية اجعل لوجه الله خالصة
ومن يكن ليقول الناس يطلبه
ومن به يبتغي الدنيا فليس له
إياك واحذر مماراة السفيه به
فإن أبغض كل الخلق أجمعهم
والعجب فاحذر إن العجب مجترف
وبالمهم المهم ابدأ لتدركه
قدم وجوبًا علوم الدين إن بِها
وكل كسر الفتى فالدين جابره
ما العلم إلا كتاب الله أو أثر
ما تم علم سوى الوحي المبين وما
والكتم للعلم فاحذر إن كاتِمه

ومن عقوبته أن في المعاد له
وصائن العلم عمن ليس يحمله
وإنما الكتم منع العلم طالبه
واتبع العلم بالأعمال وادع إلى
واصبر على لاحق من فتنة وأذى
لواحدٌ بك يهديه الإله لَذَا
واسلك سواء الصراط المستقيم ولا

---

(1) المنظومة الميمية في الوصايا والآراء العلمية [ص3] وما بعدها.

اَلْمَنْهَجُ الْقَوِيمُ
في التأسي بالرسول الكريم
الجزء الثالث
في بيان خطر المعصية وشؤمها
وبيان عواقبها الوخيمة

ولما كان الحديث في الأبواب السابقة، وما اندرج تحتها من فصول يدور على الحث على الالتزام بأسباب فلاح العبد في آخرته ودنياه، والترغيب في ذلك، كما كان يدور على وجوب الأخذ بقوة بأسباب السعادة والنجاة من الأهوال والشدائد والكروب التي ستكون يوم القيامة حيث قد جمعت فيها شيئًا كثيرًا من تلك الأسباب التي يعتبر الالتزام بِها وتطبيقها تطبيقًا عمليًّا في حياة الإنسان طريقًا موصلاً إلى رضا الله والسعادة في رحابه في دار البرزخ والقرار كما يعتبر أمانًا وضمانًا وحصنًا حصينًا بإذن الله من الشقاء الدنيوي والأخروي، فإنني أحب أن يكون هذا الباب في بيان خطر المعصية وشؤمها وبيان عواقبها الوخيمة في الدنيا والبرزخ والآخرة بشيء من التفصيل وضرب الأمثلة التي تبين الشؤم وتبرهن على سوء العواقب فأقول مستمدًّا العون والتوفيق من الله:

****

الفصل الأول

في بيان أخطار المعاصي الدنيوية والأخروية

إن اقتراف المعاصي وانسياق النفس والجوارح وراءها والتلذذ بِها هو السبب الأكبر في شقاء ذويها وهلاكهم وحرمانِهم من سعادة الدارين.

نعم إن اكتساب المعاصي والسقوط في حمأتِها الآسنة سبب في أخذ الله لأصحابِها بأصناف البلايا والمحن والعقوبات المتنوعة، وسبب أيضًا في نقص الأديان ودمار البلاد والعباد والأعمال والأعمار والأرزاق، وسبب في انتشار الشر المستطير والفساد الكبير في أرض الله العلي الكبير .

وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة ما يدل على ذلك بجلاء ووضوح وإليك بعضه:

1- قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [الشورى:30].

2- وقال سبحانه: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: من الآية79].

3-وقال عز و جل: {أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:165] .

4-وقال -تبارك وتعالى-: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} [القصص:58].

5- وقال -عز من قائل-: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا} [الطلاق:8].

6- وقال سبحانه: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [الروم: من الآية41].

! وأما في السنة :

1- فقد روى الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ج: (إذا اتخذ الفيء دولاً، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته، وعق أمه، وأدنى صديقه، وأقصى أباه وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وشربت الخمور، ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء

وزلزلة وخسفًا ومسخًا وقذفًا وآيات تتتابع كنظام بال قطع سلكه)([1]) قال الترمذي حديث غريب .

2- وروى الإمام أحمد([2]) وابن ماجه([3]) عن ثوبان([4]) عن النبي ج أنه قال: (إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه).

3- وعن عبد الله بن عمر y قال: كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ج فأقبل علينا بوجهه فقال: (يا معشر المهاجرين، خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بِها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لَم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لَم يَمطروا، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم، وما لَم تعمل أئمتهم بِما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم)([5]).

4- وعن ابن عباس y قال: قال رسول الله ج: (ما طفف قوم كيلاً ولا بخسوا ميزانًا إلا منعهم الله عز وجل القطر، وما ظهر في قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت، وما ظهر في قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون، وما ظهر في قوم القتل، يقتل بعضهم بعضًا إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا ظهر في قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لَم ترفع أعمالهم ولَم يسمع دعاؤهم)([6]).

(223/1)

وغير ذلك من النصوص في هذا المعنى كثير، وكلها تدل على أن المعصية هي السبب الوحيد في تغيير حال الفرد والجماعة والأمة من نعمة إلى نقمة ومن سعادة إلى شقاوة، ومن رخاء إلى شدة، ومن يسر إلى عسر، مما يدل على شؤمها وسوء مغبتها وتحقق عقوبتها العاجلة والآجلة .

وصدق الله عز وجل : {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: من الآية11].

ويقول أيضًا: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال:53].

ومن أراد أن يعرف خطر المعصية جيدًا ليزحزح نفسه عن دروبِها ويبتعد عن عناصرها ووسائلها، فليقرأ القصص القرآني الكريم بتأمل واعتبار فإنه حينئذ سيستبين له الأمر على أكمل وجه، وتظهر له الحقيقة واضحة جلية أن المعصية سبب في رفع النعم وتدمير الأجيال

والأمم، ومسخها وترديها في الحضيض والدركات في دورها الثلاث، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم .

واسمح لي أيها القارئ الكريم –وأرجو الله أن يجعلنا جميعًا كرماء لنسمع القول فنطيع، ونقرأ المفيد فنعمل به وننشره– اسمح لي أن أسأل وأجيب:

! ما الذي سبب لإبليس الطرد والإبعاد والنفي من محل الملأ الأعلى، وقد كان أشد اجتهادًا في العبادة مع الملائكة ؟

والجواب: إنَّها المعصية، ذلك أن الله الحكيم خلق آدم بيده من تراب ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعله بشرًا سويًّا، وعلمه الأسماء كلها، وأمر الملائكة –وإبليس فيهم– بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس الحسود أبى أن يكون مع الساجدين معتزًّا بأصله، ومفتخرًا بعنصره، ومحتقرًا لمن أمر بالسجود له، فصار بتلك المعصية الواحدة ملعونًا أثيما، وشيطانًا رجيمًا، ومحرومًا من رحمة الله جزاء ما فعل، وكان الله عليمًا حكيمًا والآيات التالية تقص علينا نبأ القصة بالتفصيل:

(224/1)

قال عز و جل: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ –11, قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ –12, قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} [الأعراف:11–13].

وحقًّا لقد أهبط إبليس من قمة العز وشرف الطاعة إلى حضيض الذل والحقارة والهوان بسبب عصيانه لأمر الله الذي يجب أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، فلما يئس اللعين من رحمة الغفور الرحيم التي لَم تكتب لإبليس ولا لحزبه، وإنما كتبت لأهل الإيمان والطاعة والتقوى، طلب المهلة من ربه إلى يوم الدين: {قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الأعراف:14].

فأنظره الله لما له في ذلك من الحكمة التامة والمشيئة النافذة والإرادة التي لا تتخلف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، فأنظره إلى يوم الوقت المعلوم فلجَّ في العتو والتمرد والنفور: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ –16, ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف:16، 17].

وبالفعل لقد قعد اللعين لبني آدم بكل صراط، فتراه يثبطهم عن فعل الفضائل والطاعات، ويزين لهم فعل الرذائل وارتكاب المعاصي والمنكرات لا يفتر ولا يمل ولا يستريح، بل هذا دأبه في جميع الأوقات وسائر اللحظات.

(225/1)

ونظرًا لخطره الكبير وتسلطه على بني الإنسان فقد علمنا ربنا الرحيم بنا، دعاء نافعًا نتحصن به من وسوسته وفتنته، وندفع به مكره وكيده وتضليله وخديعته، قال عز و جل: {وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ –97, وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ} [المؤمنون:97، 98].
وعلمنا نبينا محمد ج الناصح لنا والحريص على سلامتنا من خطر هذا العدو الماكر كما جاء عن ابن عمر y قال: (لَم يكن رسول الله ج يدع هؤلاء الدعوات حيث يصبح وحيث يمسي: اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يَميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي) رواه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد([7]). حديث صحيح .
! ما الذي أخرج الأبوين الكريْمين من الجنة التي أباحها الله لهما ليأكلا من جميع ثِمارها إلا شجرة واحدة نَهاهما ربُّهما عن الأكل منها لينظر طاعتهما من معصيتهما، ويقضي أمرًا كان قدرًا مقدورًا، فحسدهما الشيطان وسعى في المكر بِهما والخديعة لهما لسلبهما ما هما فيه من نعمة المأكل والمشرب واللباس والراحة الحسية والمعنوية، إذا قال لهما: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}.

(226/1)

أي لئلا تكونا ملكين أو خالدين هاهنا، فادعى لنفسه صفة الإخلاص في المحبة والنصح، وادعى لربه –تنَزه وتقدس– صفة الحسد: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}، أي حلف لهما أثناء الحوار الخادع والمراودة الماكرة بأنه صادق في قوله ناصح في رأيه ومشورته مبررًا ذلك بأنه قد خلق قبلهما وعنده من العلم ما ليس عندهما: {فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ}.

فلما وقعا في المعصية وحلت العقوبة بادرا إلى التوبة من الذنب رحمة بِهما من ربِّهما، إذ توجها إليه بِما ألهما به: {قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

فتاب عليهما إنه هو التواب الرحيم، ثم اقتضت حكمته سبحانه وهو الحكيم لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه أن يهبط إبليس وآدم وحواء إلى الأرض لتكون فيها حياتُهم وفيها مماتُهم ومنها يخرجون، كما قال عز و جل: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}.

ما سبب ذلك؟ إنَّها المعصية .. فيابن آدم، إن لك لأكبر عظة وأعظم عبرة وأقوى مزدجر في قصة الأبوين، ومكر إبليس بِهما وخديعته لهما حتى أوقعهما في المعصية التي سببت لهما عقوبة انكشاف العورة والخروج من جنة الخلد إلى دار النصب والتعب والفناء .

(227/1)

فاحذر الشيطان يا عبد الله فإنه كان عدوًّا لأبويك من قبل كما علمت وهو عدو لك عبر حياتك الدنيوية، واعلم أنك لن تنجو منه إلا برعاية الله وحفظه ولن يحصل لك حفظ من الله أو رعاية إلا إذا قويت صلتك به بفعل طاعته وترك معصيته، وراقبته في جميع تصرفاتك، وحفظت التكاليف كلها طيلة حياتك وأنت واثق بالله معتصم به مستقيم على هدي رسوله، بعيد عن مخالفته امتثالاً لقوله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: من الآية63].

! وما الذي سبب الهلاك بالغرق لقوم نوح، فاستأصلهم إلا أصحاب السفينة التي جعلها الله آية للعالمين؟

إن الذي سبب ذلك هو الوقوع في معصية لا ككل المعاصي، ألا وهي الشرك بالله الذي لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

! وما الذي دمر قوم هود وهم ذوو عدد وعدة، ومكانة وقوة، إلا الوقوع في المعاصي؟ كما قص الله خبرهم بقوله: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ -15, فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ} [فصلت:15-16].

!

وعلى العموم فما الذي سبب هلاك الأمم الماضية بأنواع من العذاب مختلفة وألوان من التدمير مدهشة ومفزعة إلا الوقوع في المعصية. قال –تبارك وتعالى– بعد أن ذكر عددًا من الأمم وبين نوع معاصيهم: {فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت:40].

****

الفصل الثاني

في بيان أقسام المعصية إلى كبيرة وصغيرة

وبعد هذا العرض المختصر لخطر المعصية وشؤمها فإنني سأنبه على جانب آخر لا يقل أهمية عن الكلام السابق في هذا الباب، ذلكم الجانب هو أن المعصية من حيث هي معصية تنقسم إلى كبيرة وصغيرة .

وقد قال ابن عباس y في ضابط الكبيرة: (هي كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب). وهي بِهذا التعريف الواسع لا تنحصر في السبع أو التسع الواردة في الحديث، وإنما هي كثيرة ولكن بعضها أعظم

من بعض .

ويروى أن ابن عباس سئل عن الكبائر: أسبع هي؟ فقال: (هي إلى السبعين أقرب). وقال لسائل آخر: (هي إلى السبعمائة أقرب). غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار، وقد وعد الله عز وجل مجتنبي الكبائر من عباده أن يكفر عنهم سيئاتِهم ويدخلهم مدخلاً كريْمًا فقال: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيْمًا} [النساء:31].

ومن ناحية أخرى فقد مدح الله قومًا اجتنبوا كبائر الإثم والفواحش فقال عز و جل: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى –31, الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ}.

وجعل سبحانه اجتناب الكبائر من صفات أهل الإيْمان بالله والتوكل عليه حيث قال: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ -36, وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [الشورى:36-37].

وقد جاء في الحديث الصحيح ذكر تسع من الكبائر لشدة خطرها وكثرة ضررها فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ج قال: (اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)([8]).

وفي حديث ابن عمر عند البخاري في الأدب المفرد ذكر السبع، وزاد: (والإلحاد في الحرم، وعقوق الوالدين).

****

الفصل الثالث

في ذكر شيء من الكبائر إجمالاً وتفصيلاً

إن العلماء -رحمهم الله- ذكروا معاصي جمة، عدوها من الكبائر، فذكروا القمار والسرقة، وشرب الخمر، وسب السلف الصالح، وعدول الحكام عن الحق واتباع الهوى، واليمين الفاجرة، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، والزنا، واللواط، وشتم الرجل والديه، وإيواء المحدث، وذكروا غير ذلك مما يكثر تعداده، ويتعذر حصره في مثل هذا البحث المختصر([9]).

ومن أراد استيفاء ذلك والحصر التقريبي فليقرأ كتاب ربه الذي أنزله تبيانًا لكل شيء وهدى وبشرى للمسلمين، وليكثر من قراءة كتب الشريعة التي عنيت بذلك من تفسير، وحديث، وتوحيد، وفقه، وأصول، ونحوها من العلوم النافعة سائلاً الله أن يفتح له الفتح المبين، ويرزقه الاستقامة على هدي سيد المرسلين متوخيًا الصدق والصواب في القول، والإخلاص في الاعتقاد والعمل راجيًا الأجر والمثوبة ممن يبدل سيئات التائبين حسنات، ويمحو بفضله وإحسانه بعد أن ذكر جملة المعاصي: {إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ

اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات} [الفرقان: من الآية70].

قلت: ولا غرابة أن يأتي النص النبوي الكريم بذكر التسع من الكبائر ولا غرابة أيضًا أن يذكر علماء الشريعة منها ما سطرته لك آنفًا إجمالاً، لأن تلك المذكورات لها أضرارها البليغة في الدين والعرض والمال، ولها خطرها الجسيم على الفرد والجماعة والأمة .

1- فأما الشرك بالله: فهو أعظم ذنب عصي الله به، وكفى به خطرًا وضررًا أن صاحبه خالد مخلد في النار بنص القرآن الكريم: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: من الآية48].

2- وأما السحر: فإن العمل به وتشجيع أهله وتصديقهم ذنب قبيح وكفر صريح، كما قال عز و جل: {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: من الآية102].

3- وأما قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق: فهو بغي وظلم وعدوان حذر الله من الوقوع فيه في محكم القرآن، فقال تعالى: {وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الأنعام: من الآية151].

كما رتب عليه أشد الوعيد وهدد فاعله أبلغ تَهديد، فقال سبحانه:

}

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء:93].

4- وأما أكل الربا: فجريْمة منكرة ومعاملة جاهلية فاجرة توجب العقوبة في الدنيا والآخرة، قال عز و جل: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} [البقرة: من الآية275].

ولعن رسول الله ج آكله وموكله وكاتبه وشاهديه كما ثبت ذلك في النص الصحيح([10]).

5- وأما أكل مال اليتيم: بأي وسيلة من الوسائل، وبأي طريقة من الطرق فعار ونار ومحق لبركة الأموال، والأعمال، والأعمار في الدنيا ودار البرزخ والقرار بدليل قول المولى I: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء:10].

6- وأما التولي يوم الزحف: فموجب لغضب الله الواحد القهار، ودليل على الرضا بالهوان

والخور، وتخل عن العزة التي وهبها للمؤمنين العزيز الغفار بدليل قول الله عز وجل : {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ –15, وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال:15–16].

7– وأما قذف الْمُحصنات الغافلات المؤمنات: فقد عظم الله شأنه في محكم الآيات، فقال –عز من قائل كريم–: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النور:23].

(232/1)

8– وأما الإلحاد في حرم الله: الذي قد قدسه واصطفاه وجعله مكانًا لركن عظيم من أركان الإسلام، فما أعظم إثمه وأشد عقوبته، كيف لا يكون الأمر كذلك وقد رتب الله العقوبة على الهم بفعل الذنب فيه ولو لَم يفعله صاحبه كما قال تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج: من الآية25].

9– وأما عقوق الوالدين: بالإساءة إليهما، وعدم القيام بحقوقهما في حال الحياة وبعد الممات فعقوبة صاحبه معجلة ومؤجلة لأن العاق لوالديه لئيم الطبع سيئ الخلق، سفيه النفس، بعيد من الرحمن، مستجيب لدعوة الشيطان قد اشترى الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فما أحراه –إن لَم يتب– بالذل والخزي والخسران، قال تعالى: {فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا} [الإسراء: من الآية23].

10– وأما القمار: وهو الميسر فقد أمر الله باجتنابه وقرنه في التحريم مع ما يعبد من دون الله، فقال تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة:90].

11– وأما السرقة: التي هي أخذ المال من حرزه –وحرز كل شيء بحسبه– فهي جريمة يبعث على تعاطيها خسة النفس وعدم التقوى، وغمط حق الغير وحب التسول والبطالة غالبًا، واختيار الفوضى، فجاءت عقوبتها حاسمة ورادعة: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة:38].

فتبقى اليد المقطوعة دلالة عار على صاحبها جزاء ما فعل وفي نفس الوقت عظة وعبرة لمن تحدثه نفسه بجريمة الاعتداء على أموال الغير التي اكتسبوها بقسم الله لهم ثم بعرق الجبين منهم.

(233/1)

12– وأما شرب الخمر: فإن ضررها ثابت في الدين والمال والعرض والبدن، ويكفي في شؤمها وخبثها أنَّها سميت أم الخبائث فقد قال عثمان رضي الله عنه : (اجتنبوا الخمر فإنَّها أم الخبائث)([11]). ولعنها رسول الله ج وتسعة معها كما في حديث ابن عمر y يقول: قال رسول الله ج: (لعنت الخمر على عشرة وجوه: لعنت الخمر بعينها، وشاربِها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والْمَحمولة إليه، وآكل ثَمنه)([12]).

13– وأما سب السلف الصالح –رحمهم الله ورضي عنهم–: فإثم كبير، وبُهتان عظيم، وقبل إصدار الحكم على فاعلي هذه الجريمة الماكرة والجرأة الفاجرة نريد أن نعرف من هم السلف الصالح؟

فنقول: المراد بالسلف الصالح هم أصحاب رسول الله ج من المهاجرين والأنصار وفي مقدمتهم الخلفاء الأربعة، ثم المبشرون بالجنة، ثم أصحاب بدر ثم أصحاب بيعة الرضوان، ثم من أسلم من قبل الفتح بالنسبة لمن أسلم بعد الفتح ومن تبعهم في نَهجهم وتَمسك بِهديهم ممن جاء بعدهم إلى يوم الدين فهو منهم على تفاوت بينهم: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً} [الفتح:23].

فأما من سب أحدًا من أصحاب رسول الله ج أو طعن فيه مستحلاً لذلك، وهو من المسلمين فما إخاله يعود إلى الإسلام سالِمًا ولا من لعنة الله وغضبه آمنًا لاسيما الخلفاء الراشدين منهم –رضي الله عنهم وأرضاهم– ذلك لأن الله –تبارك وتعالى– الذي اختارهم واجتباهم لصحبة نبيه والجهاد في سبيل الله تحت لوائه، قد شهد لهم بالصدق والفلاح والرضا عنهم كما قال عز و جل: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح:18].

(234/1)

وقال سبحانه: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} [الأحزاب:23].

وقال –عز من قائل–: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} [الفتح: من الآية29] إلى آخر السورة.

وشهد رسول الله لأصحابه بالخيرية ومعهم قرنان أو ثلاثة كما جاء في البخاري ومسلم وأبي

داود([13]) عن عمران بن حصين y([14])]: قال رسول الله ج: (خير أمتي قرني، ثُمَّ الذين يلونَهم، ثُمَّ الذين يلونَهم. قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثًا. ثُمَّ إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتَمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن)([15]). كما رواه الترمذي عن ابن مسعود .

وقال أيضًا: (لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا لَم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه)([16]).

وغير ذلك من النصوص التي تشهد بفضلهم وصدقهم وعدالتهم وإيْمانِهم فإذا جاء منافق سليط اللسان مريض القلب فاسد العقيدة فخاض في أعراضهم بالسب والتكذيب لهم فقد رد شرع الله المنَزل، وكذب نصوص الكتاب والسنة وخالف إجماع الأمة.

ذكر رجل عند الإمام مالك ينتقص أصحاب رسول الله، فقرأ مالك قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...} حتى بلغ: {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} فقال: "من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ج فقد أصابته هذه الآية"([17]).

(235/1)

وقال عمر بن حبيب([18]) –رحمه الله–: "حضرت مجلس هارون الرشيد([19]) فجرت مسألة تنازعها الحضور، وعلت أصواتُهم، واحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ج فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم: لا يقبل هذا الحديث عن رسول الله ج لأن أبا هريرة متهم فيما يرويه، وصرحوا بتكذيبه ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم، فقلت أنا: الحديث صحيح عن رسول الله ج وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن رسول الله ج وغيره، فنظر إلي الرشيد نظر مغضب، وقمت من المجلس وانصرفت إلى منْزلي، فلم ألبث حتى قيل: صاحب البريد بالباب. فدخل فقال لي: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنط وتكفن، فقلت: اللهم إنك تعلم أني دافعت عن صاحب نبيك وأجللت نبيك أن يطعن على أصحابه فسلمني منه، فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي من ذهب حاسر عن ذراعيه بيده السيف، وبين يديه النطع، فلما بصر بِي قال لي: يا عمر بن حبيب ما تلقاني أحد من الرد والدفع لقولي بمثل ما تلقيتني به، فقلت: يا أمير المؤمنين إن الذي قلته وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول الله ج وعلى ما جاء به، إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة، والفرائض والأحكام والصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كله مردود غير مقبول. فرجع الرشيد إلى نفسه، ثم قال: أحييتني يا عمر بن حبيب

أحياك الله، وأمر لي بعشرة آلاف درهم"([20]).

قلت: ومن هذه النصوص الكريمة والآثار الصحيحة المستقيمة ندرك أن أصحاب رسول الله ج كلهم عدول، وأنَّهم أولياء الله حقًّا وأصفياؤه وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله صدقًا، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة في كل عصر ومصر وفي كل زمان ومكان .

(236/1)

ثم ندرك بجانب ذلك فساد معتقد أهل الزيغ والانحراف في أصحاب رسول الله ج على اختلاف مذاهبهم، وفي مقدمة المنحرفين الرافضة الضالة الذين يستحلون سب الشيخين أبي بكر وعمر وَزِيرَي رسول الله ج والخليفتين من بعده بإجماع أمة الإسلام.

كما يسبون الخليفة عثمان الذي كان يستحيي منه الرسول ج وتستحيي منه ملائكة الرحمن، وهكذا يسبون كثيرًا من أصحاب رسول الله من سبقت لهم من الله الحسنى، كل ذلك بدون مسوغ مقبول أو معقول بل استجابة لما تمليه عليهم شياطينهم، ويقرره ساداتُهم وكبراؤهم: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [الفرقان:44].

وأما سب السلف من غير أصحاب رسول الله ج ممن جاء بعدهم لاسيما أصحاب القرون المفضلة بعد الصحابة فهو اعتداء أثيم ومحاربة للحق، ودليل على فقدان الحكمة التي تقتضي وضع الشيء في موضعه، ومن أبغض أولياء الله وطعن عليهم فقد وضع الطعن في غير محله، الأمر الذي يتنافى مع مقتضى الحكمة التي أمر الإنسان أن يكون عليها في جميع أعماله وكافة تصرفاته أسوة بربه الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويحكم لا معقب لحكمه، كما أن سب أولئك السلف فسق صادر عن خبث الطوية وضعف الإيمان وداء الحسد.

ومتى وجدت هذه الأمراض القاتلة في عبد من عباد الله، انعكست عليه الأمور وتغيرت أمامه الأحوال بسبب فساد قلبه وسوء قصده، فتراه يبغض من تجب محبته وموالاته، ويوالي ويحب من يتعين بغضه ومعاداته: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} [الكهف: من الآية17].

(237/1)

14- وأما عدول الحكام عن الحق في الأحكام: فقد تولى الله تبيانه في مواضع كثيرة من كتابه العزيز وبالأخص في ثلاث آيات من سورة المائدة، وهي قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: من الآية44]. {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة: من الآية45]. {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [المائدة: من الآية47].

وللعلماء الأعلام تفاصيل في هذا المقام، غير أنه من المعلوم بداهة أن العدول عن أحكام الله العادلة والرغبة عن شريعته الكاملة واختيار قوانين بشرية وضعها أئمة الكفر ومردة الإلحاد سخافة وحماقة وضلالة يمقتها الله والصالحون من عباده.

قال ابن عباس y في تفسير هذه الآيات: (كفر دون كفر). و: (ظلم دون ظلم). و: (فسق دون فسق). فهو ظلم أكبر عند استحلاله، وعظيمة كبيرة عند من فعله غير مستحل له:

وقال العلامة الجليل عبد الرحمن بن ناصر السعدي –غفر الله لنا وله– في تفسير هذه الآيات الثلاث ما نصه: "ومن لَم يحكم بِما أنزل الله من الحق المبين، وحكم بالباطل الذي يعلمه لغرض من أغراضه الفاسدة فأولئك هم الكافرون، فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفرًا ينقل عن الملة وذلك إذا اعتقد حله وجوازه، وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ومن أعمال الكفر قد استحق من فعله العذاب الشديد"([21]).

قلت: ومن سبر حال العالم الإسلامي اليوم الذي يبلغ تعداده ألف مليون مسلم تقريبًا وعلم مواقفهم المنحرفة عن هذا الدين تبين له يقينًا أن أكثرهم أعداؤه وليسوا أنصاره .

وحينئذ حق للمسلم الذي يهمه شأن الإسلام والمسلمين وليس له من الأمر شيء أن يبكي بدل الدموع دمًا إن كان في العين طاعة، وأن يتفتت قلبه ويعتصر فؤاده إن كان في القلب حياة وفي الفؤاد استيقاظ، ولسان حاله ومقاله يردد:

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان فِي القلب إسلام وإيْمَان

وإنني لأعلم صنفين من الأمة إذا صلحا صلح الناس إلا من غلبت شقوتُهم عليهم:

الصنف الأول: رؤساء وملوك الأمة الإسلامية الذين مكنهم الله في الأرض وجعلهم خلفاء فيها لينظر كيف يعملون، وجعلهم أمناء على شرعه ليعلم ماذا يصنعون.

الصنف الثاني: هم العلماء الذين جعلهم الله ورثة الأنبياء، وسادة الدنيا، وصفوة الخلق بعد الأنبياء والرسل وما ذلك إلا ليقوموا بمهمة الأنبياء والرسل في نشر العلم للخلق وبذل النصح

لهم على اختلاف طبقاتِهم، حكامًا ومحكومين، والصبر على ما يصيبهم من أذى، فلهم في ذلك الأسوة الحسنة والقدوة الرشيدة في كل داعية إلى الله صادق صابر مخلص جعل منهاج الأنبياء سبيله وأدب المرسلين خلقه فإلى أولئك وهؤلاء أوجه نصيحتي المتواضعة من خلال هذه السطور طالبًا منهم أن ينظروا بتبصر وتأمل ويتفكروا بإخلاص وتعقل .

كيف سمح ويسمح بعبادة الموتى في كثير من بلدان المسلمين حيث بنيت الأضرحة على الموتى وزخرفت قبابُها وكسيت بأفخر اللباس وتطيب بأفخر الطيب، ويدعى أهلها لجلب كل مصلحة، وتنفيس كل كرب، وتفريج كل هم، باعتبارهم الواسطة بين الله وخلقه، ومع الأسف أن هذا الصنيع الشنيع، والشرك الفظيع كان ويكون على مرأى ومسمع ممن حملهم الله مسئولية الأمة وحسن رعايتها من علماء وحكام وعقلاء !!.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه يجب على الدعاة إلى الله في كل مكان وبالأخص في البلدان التي يوجد فيها هذا الشرك الأكبر، والانحراف العقدي أن يبدءوا في دعوتِهم بتحذير الناس من الوقوع في ضروب الشرك وبيان ما يترتب عليه من خسران الدنيا والآخرة ويشرحوا للناس عقيدة التوحيد الصافية السليمة عقيدة أهل السنة والجماعة هذا هو منهج الرسل الكرام والأنبياء العظام في دعوتِهم لأممهم عبر القرون والأجيال .

(239/1)

ثم كيف تركت أحكام الإسلام، وأهملت شرائعه، وعزلت عن دنيا البشر في كثير من دول العالم الإسلامي، ولم يسمح لها بالتدخل في شئون الخلق إلا في الأحوال الشخصية فقط، أما السياسية والحكم والحرب والسلم والمعاملات والأخلاق والسلوك فلا دخل لدين الله فيها، وإنما الحكم فيها أولاً وأخيرًا للقانون العلماني البغيض، الذي أسسه أئمة الكفر، ومردة الملحدين، وتقبله تلاميذتُهم الأغبياء ظنًّا منهم أنه تنظيم فريد لشئون أمم الأرض ومبدأ كفيل بحياة سعيدة تسمى حياة التقدم والتطور والرقي والانفتاح إلى غير ذلك من الألقاب التي هي في ظاهرها كلمات عِذَاب، وفي كنهها وحقيقتها خزي وشقاء وعذاب .

ليسمح لي المعنيون –أحياهم الله حياة الإيمان وجنبهم حياة الغفلة والعصيان– أن أذكرهم –إذ لا مانع في ديننا أن يذكر صغير القوم كبيرهم، وقليل العلم كثيره، وألفت الأنظار للنظر في أوضاع عالمنا الإسلامي وما فيه من الانحرافات في العقيدة والخلق والسلوك– الأمر الذي يحتاج إلى عقد المؤتمرات الجادة إثر المؤتمرات وعلى أعلى المستويات من أجل أن يطبق الإسلام في ديار المسلمين تطبيقًا كاملاً، وهذه خطوة أولى.

وخطوة ثانية جديرة بالاهتمام وهي التخطيط الحكيم لنشر الإسلام في أمم الأرض الذين لا سبيل لهم إلى فهم الإسلام إلا من طريقنا نحن المسلمين .

نعم ليسمح لي المعنيون أن أذكرهم بما هم أكثر به علمًا مني من تاريخ أسلافهم الأوائل من خلفاء وأمراء وعلماء وما كان لهم من فتوحات واسعة في شرق الدنيا وغربِها وشمالها وجنوبِها .

(240/1)

وإن المسلمين اليوم ليملكون من القوة ما لم يكن لدى المسلمين آنذاك غير أنَّهم في حاجة ضرورية إلى تحقيق كلمة التوحيد، وتحقيق وحدة الكلمة على الحق والعمل به، والدعوة إليه ثم وحدة الصف في ميدان الجهاد الشريف المقدس الذي يظفر أهله بإحدى الحسنيين، إما النصر والغنيمة وإما الشهادة التي هي غاية المطالب، وأشرف الأماني، وتلك هي القوة المعنوية التي لا تقف أمامها قوة من قوى الأرض المادية مهما تعددت وتنوعت وطنطنت فأخافت وأرهبت، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، والعاقبة للمتقين: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}. [آل عمران: من الآية126] .

ألا وإنني لمتفائل خيرًا ومنتظر فرجًا ومخرجًا، متمثل بقول القائل:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

15- وأما اتباع الهوى: فمعناه الاندفاع السريع إلى تحقيق متطلبات النفس الأمارة بالسوء وعدم التثبت في الأمور مما ينتهي ويفضي بالإنسان إلى الضلال الذي يبعد صاحبه عن فضيلة الحق وينسيه ما وراءه من العذاب الشديد، قال عز و جل محذرًا عبده ورسوله داود عليه السلام من خطر اتباع الهوى وما يترتب عليه من السوء والمكروه: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص:**26**] .

ولقد نَهى الله سبحانه نبيه محمدًا ج عن طاعة عباد الهوى لأنه يعمي ويصم فقال: {وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: من الآية**28**]. وإذن فالحق أحق أن يتبع، والهوى أحق أن يتقى ويجتنب.

(241/1)

16- وأما اليمين الفاجرة: فإنَّها ليست من خلق المؤمنين، ولا من صفات المتقين وإنَّما هي من صفات النفعيين الماديين، والباعث لهم على الانتكاس فيها عدم الخوف من الله شديد العقاب، والبعد عن خشيته ومراقبته والأمن من بطشه ومكره: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: من الآية30] .

وقال عز و جل: {وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ} [القلم:10]. أي كثير الحلف استخفافًا بحق الله وعدم مبالاة بعظمته وجلاله.

وقال ج: (من حلف على يَمين صبر يتقطع بِها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان)([22]).

وحقًّا إن من غضب الله عليه أناله من شديد عذابه وأليم عقابه ما لا تطيقه الأرواح ولا تقوى عليه الأبدان .

17- وأما القنوط من رحمة الله: فمعناه انقطاع الأمل والرجاء من كل خير وهو دليل قاطع على سوء الظن بالله، وعدم الثقة به والتوكل عليه، وذلك من صفات أهل الكفر والفسق والضلال. قال عز و جل: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ} [الحجر:56]. أي لا ييئس وينقطع رجاؤه وأمله من رحمة ربه خالقه ومولاه إلا المخطئون طريق الحق والصواب، الجاهلون بعظمة رب الأرباب، وأما القلوب العامرة بالإيمان والمملوءة بمحبة الكريم المنان والمتعلقة بجلال الرحيم الرحمن، فلا سبيل لليأس والقنوط إليها، ولا سلطان لعدو البشرية عليها .

18- وأما الأمن من مكر الله: فلا شك في اعتباره كبيرة عظمى من كبائر الذنوب ومزلقًا خطيرًا يوجب السخط والمقت من علام الغيوب .

ومعنى المكر من الله الذي لا ينبغي أن يؤمن هو استدراجه سبحانه للعبد المستحق لذلك بالسراء، والنعيم، والإمهال وهو مقيم على المعاصي بدون خوف من الله، ولا استعداد للقاء الله وذلك جهل بالله عظيم وغرور من الشيطان الرجيم، وثقة بالنفس الأمارة بالسوء التي تميل دائمًا إلى الذميم، وتجمع إلى الانحرافات عن الصراط المستقيم.

(242/1)

قال قتادة -رحمه الله-: "ما أخذ الله قومًا قط إلا عند سلوتهم وغرتهم وغفلتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون".

قلت: وعلى المسلم أن يجمع بين الخوف والرجاء، وأن يجعلهما كجناحي طائر السماء وتلك

هي صفة الأنبياء والصديقين ،كما قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} [الإسراء:57] .

وهذا أعلى مقام وأحسن حال ينبغي أن يكون عليه العبد في حياة العمل، والله المستعان .

19- وأما الزنا: فهو كما وصفه الله بقوله: {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً} [الإسراء:32]. ولفحشه وقبحه وسوء عواقبه فقد رتب الله على فعله عقوبة رادعة، وذلك أن من وقع في جريمته من ذكر وأنثى من الأحرار فعليه مائة جلدة وتغريب عام بلا رأفة ولا رحمة كما قال عز و جل: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النور:2] .

هذا حكمهما إذا كانا بكرين، وأما إذا كانا محصنين، فإن عقوبتهما أعظم وأغلظ كما جاء في صحيح السنة عن رسول الله ج أنه قال:

(خذوا عني خذوا عني البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)([23]).

وهذه الجريمة التي تضيع بسببها الأنساب، وتقطع الأرحام، وتعطى المواريث لغير مستحقيها، ويلحق الرجل بنسب من ليس منهم، وتوءد الفضيلة وتنتشر الرذيلة ويحطم العفاف، ويعلن الخناء .

(243/1)

هذه الجريمة السيئة التي تنتج عنها هذه الأخطار لها أسباب كثيرة ومتنوعة وما إخالها إلا قد توفرت في هذا العصر، وإن كانت توجد في كل مجتمع غالبًا، ومنها:

1- هتك الحجاب الشرعي الذي أمر الله به، واختيار السفور والتبرج باسم التقدم والحضارة، وباسم حرية المرأة ووجوب الثقة بِها ومحاربة الشك فيها كما يزعم أنصار المرأة ومنصفوها !!.

2- فقد لباس التقوى التي تبعث على الخوف من العقوبة الأخروية وتبعث على الحشمة والحياء والعفة .

إدمان السمر سواء في نواديه أو على أفلامه المصورة الرخيصة التي تعنى بإثارة غرائز الجنسين بواسطة الوسائل الإعلامية على اختلاف أنواعها التي لا تتقيد بشرع، ولا تلتزم بفضيلة، ولا تتورع من رذيلة، بسبب المسخ الذي أصاب أهلها وما أكثرها في هذا الزمان في دنيا البشر، وهذا أمر لا يستغرب وقوعه في دول الغرب المنحلة، نعم لا يستغرب في فرنسا والسويد

وإنجلترا وأمريكا ونحوها ولكن تكاد نفس المؤمن أن تذهب حسرات على وقوعه فيمن وممن دستورهم الإسلام واسمهم المسلمون ونساؤهم المسلمات!!.

4- التعليم المختلط بين المدرسين والمدرسات، والطلاب والطالبات، في المتوسطات والثانويات والجامعات، وما أكثر هذا النمط في العالم الإسلامي وما أعظم ما نتج عنه من فساد وانحلال خلقي وتدهور صحي ودمار اجتماعي، تدمع له عينا كل غيور وتقشعر من تصوره الجلود .

5- مشاركة المرأة للرجل في العمل الوظيفي أو الصناعي أو التجاري بدعوى أن المرأة شريكة الرجل في العمل وأن عزلها عن محيطه تعطيل لطاقة نصف المجتمع وإضعاف للاقتصاد الذي تتطلبه الحياة .

6- إلغاء العقوبات الشرعية في كثير من بلدان المسلمين، وتحكيم قانون العقوبات الوضعية التي وضعها البشر الذين يدعون أنَّهم أصحاب الرحمة البشرية والستر عليهم، بينما يتهمون الشريعة الإسلامية الرحيمة الحكيمة بالجور والقسوة وعدم الملاءمة لإنسان العصر .

(244/1)

7- الدعايات المغرضة ضد تعدد الزوجات الذي أباحه الله الحكيم لما فيه من جلب المصالح العامة والخاصة ودفع المفاسد كذلك .

8- تعقيد الشباب من الجنسين من الزواج المبكر بالدعوى القائلة: إن في الزواج المبكر تحطيمًا للشباب وقضاء على المستقبل، وتعقيدًا للحياة .

9- كثرة وسائل منع الحمل وكثرة وسائل الإجهاض من العقاقير الطبية مما جعل أهل العهر يمارسون الجريمة بدون خوف من نتائجها الدنيوية وسوء عاقبتها الاجتماعية .

هذه معظم الأسباب التي انتشرت بوجودها جريمة الزنا السيئة المنكرة، وهبطت المجتمعات من قمة العفاف التي أرادها لها الإسلام إلى حضيض التهتك الفاجر والانحلال الخلقي الأثيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وبالتالي فإنه لن يقضى على هذه الجريمة -جريمة الزنا- قضاء صحيحًا إلا بقطع دابر أسبابِها التي أمليتها آنفًا، ولن يتم قضاء على أسبابِها إلا أن توجد القناعة التامة والإيمان الصادق لدى حكام المسلمين وعلماء المسلمين أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، والذين كانوا يحكمون شريعة الله كاملة في أنفسهم وفيمن ولاهم الله أمرهم وجعلهم فتنة لهم.

وفي الحقيقة فإنني لست بأول قائل ذلك، ولا أول مناد به فكم من عالم نحرير ومؤلف مخلص

صادق قدير قد نادى العالم الإسلامي أجمع من فوق منبر الدعوة الإسلامية فتحمل صوته موجات الأثير فتبلغ به الآفاق البعيدة وتطرق الأسماع على اختلاف طبقات أهلها قائلاً بأعلى صوت وأوضح عبارة: يا أمة الإسلام ويا زعماء المسلمين وقادتَهم، إنه لا عز لكم إلا بتحكيم دينكم الذي ارتضاه لكم ربكم، فأودعه خير كتاب أنزله، وكلف بتبليغه خير رسول، قال له: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [النور:54].

(245/1)

ولا نصر من عند الله لكم على عدوكم إلا بطاعتكم لربكم ومتابعتكم لعبده ورسوله محمد ج، ولا سعادة لكم في آخرتكم ودنياكم إلا بتطبيق شرع الله، أمرًا ونَهيًا وحلالاً وحرامًا، وأخلاقًا وسلوكًا، وإقامة لحدوده في كل ذلك، وكم من مفت أمين ناصح للإسلام والمسلمين نادى بذلك، وكم من كاتب مبدع ومؤلف متبحر في العلوم الشرعية بقلمه السيال وبيانه البليغ نادى كذلك .

وقصارى القول: فما أكثر النداءات والصيحات بالحق، ولكن أهل الاستجابة والقبول قليل، أما الكثرة الكاثرة فإنه يصدق عليهم قول القائل :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نارًا نفخت بِها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رماد

20– وأما اللواط –وهو المعروف بالشذوذ الجنسي–: فهو فعلة قبيحة وعادة دنيئة منكرة، ابتدعها في غابر الأزمان قوم لوط الذين كانوا يسكنون في وادي الأردن في قرى متعددة، فقد كانوا يأتون تلك القبيحة والرذيلة على إجماع واتفاق وتعاون وعلانية، بدون استحياء من الله، ولا من نبي الله، ولا من خلق الله، ولا خوف من عقوبة عاجلة أو آجلة فوعظهم نبيهم فهددوه بأصناف الأذى ووبخهم بما حكاه الله على لسانه: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ –165, وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} [الشعراء:165، 166] .
وكرر توبيخهم لعلهم يرعوون فقال: {أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ} [العنكبوت: الآية 28 ومن الآية29] .

(246/1)

وكلما كرر لهم النصح وعرض عليهم البديل الطيب الحلال لجوا في طغيانِهم يعمهون, فجاءهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، إذ جاء دور العقوبة العاجلة حينما نزل جبريل عليه السلام وحمل تلك القرى الظالمة وما فيها ومن فيها حتى بلغ بِها عنان السماء ثم قلبها فجعل عاليها سافلها كما وصف الله تعالى ذلك بقوله: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ –82, مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود:82، 83] .

ونجى الله لوطًا وأهله أجمعين إلا عجوزًا في الغابرين وهي امرأته وكانت امرأة سوء توافق قومها على انحرافهم وتعينهم على شذوذهم وتدلهم على أضياف لوط بأساليب الغدر والمكر والخيانة فكانت بذلك إحدى الخائنتين اللتين سماهما الله في سورة التحريم، وضربَهما مثلاً للكفار حيث قال عز و جل: {وضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} [التحريم:10] .

ولقد توارث هذه الجريمة المنكرة من لا خلاق لهم ممن أتى بعدهم من أهل المجتمعات الجاهلية، وفي هذا العصر اهتمت الدول الغربية بتنظيم عمل قوم لوط بصور علنية ومدروسة، وأباحته فقرة من فقرات القانون الذي تعيش في جحيمه جماهير تلك الدول التي لا دين لها يحميها ولا خلق يردعها عن رذائلها ومخازيها .

(247/1)

والجدير بالعلم أن الباباوات يعلمون عن قضية اللواط المنتشرة في الدول الأوربية والغربية، ويطالعون القرارات التي يصدرها حكام تلك البلدان بإباحة اللواط هناك، ولَم ينبس أحد منهم ببعض كلمة استنكار، بينما نجدهم يحذرون من تعدد الزوجات الذي أباحه الإسلام، بل رغب فيه القادرين عليه بعد أن جعله على خير نظام، كما يحاربون مبدأ الطلاق، ويعتبرونه ضد الإنسانية مهما كانت الظروف والملابسات، وكذبوا في ذلك كله وفتحوا أبواب الزنا واللواط والسحاق على مصاريعها، ليغرقوا البشرية في بحار الرذائل ويزجوا بِها في أودية الهلاك والدمار، ويسلكوا بِها سبل التدني والانحطاط الخلقي والصحي, وبالتالي: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [النحل:25] .

ألا فساءت زعامتهم، وضل سعيهم فحبطت أعمالهم، وإن ماتوا على ذلك وأما عقوبة هذه

الجريمة فللعلماء فيها آراء، أرجحها عندي هو ما رآه عامة أصحاب رسول الله ج من أن مرتكب هذه الجريمة الذي يرتضي لنفسه أن ينكح كما تنكح النساء أن يقتل سواء كان بكرًا أم ثيبًا، بدليل أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه جمع الناس في شأن رجل ينكح كما تنكح النساء فسأل أصحاب رسول الله ج عن ذلك فكان أشدهم يومئذ قولاً علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قال: (هذا ذنب لَم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة، صنع الله بِها ما قد علمتم، نرى أن تحرقه بالنار فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار). أخرجه البيهقي وثبت عن علي أنه رجم من عمل هذا العمل .

(248/1)

ولا يفوتني أن أسجل في نِهاية هذا الحديث عن الشذوذ الجنسي وما ينتج عنه من الأخطار ما جاء في كتاب "القرآن والعلم" قول مؤلفه: أهم الأسباب التي حرم اللواط من أجلها بقاء الجهاز التناسلي عند الرجل وعند المرأة سليمًا، إذ إن لسلامته تأثيرًا كبيرًا في سلامة كل عضو من أعضاء الجسم، فمن المعروف أن الإفرازات التي يفرزها الجهاز التناسلي ترتبط بأوثق الصلات بإفرازات الغدة النخامية، تلك الغدة الصغيرة الحجم العظيمة الشأن والتي في أسفل المخ والتي تتحكم في نشاط أعضاء الجسم وأجهزته المختلفة كالقلب وسائر الأعضاء الأخرى والجهاز الهضمي والجهاز التنفسي والجهاز العصبي .

والجهاز التناسلي في الرجل والمرأة جهاز خال من الجراثيم تمامًا بعكس نِهاية الأمعاء الغليظة، فإن الفضلات التي تخرج منها يتكون معظمها من جراثيم ضارة، جراثيم معروف علميًّا أنَّها هي التي تسبب القيح ولا يحتاط لها الجسم إلا في هذا المكان فحسب بحيث لو وجدت في مكان آخر لأدت إلى أعظم الضرر، فتسربُها إلى الجهاز التناسلي للرجل أو المرأة أو كليهما معًا عن طريق اللواط يفقد هذا الجهاز صفة طهارته من الجراثيم فيصبح مرتعًا لهذه الجراثيم التي تحدث التهابًا وتقيحًا تزاد خطورته كلما ازداد عدد هذه الجراثيم، ويترتب على هذت ضعف الحيوانات التناسلية، وربما أدى ذلك إلى القضاء عليها، وبما أن الجهاز التناسلي والغدة النخامية مرتبطان ارتباطًا وثيقًا، فإنه يترتب عليه التهاب الجهاز التناسلي واضطراب إفرازات الغدة النخامية، فيتأثر باضطرابِها الجسم كله .

هذه الحكم البالغة تحيطنا بسياج يحمينا من الوقوع فريسة لأمراض قد يستعصى علاجها، كما أن هذه الإجازة التي فرضها الله I على الرجال مدة الحيض إنما هي فترة استجمام للرجل أيًّا كانت قوته يكون بعدها أشد رغبة في المباشرة وأكثر إقبالاً عليها. انتهى .

قلت: فسبحان ربي ما أحكمه وأرحمه بعباده أوضح لهم طريق الرشد وحثهم عليها، وأبان لهم طريق الضلالة وحذرهم من الارتكاس فيها لئلا يضلوا في دنياهم ويصيبهم الشقاء في أخراهم .

21- وأما شتم الرجل والديه: فهو نوع عظيم من أنواع العقوق الذي نَهى الله عن قليله وكثيره، فقال: {فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا} [الإسراء: من الآية23] .

وقد جاء في صحيح الإمام مسلم والإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ج بأربع كلمات: (لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من آوى محدثًا, ولعن الله من غير منار الأرض)([24]).

وجاء تبيان لعن الوالدين في قوله -عليه الصلاة والسلام-: (إن من الكبائر شتم الرجل والديه. قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه)([25]) حديث صحيح .

ومن هنا وجب على كل مسلم ومسلمة أن يصونوا ألسنتهم من إطلاق السب والشتم مع الغير إذ إنَّهما ليسا من صفات أهل الإيمان ولكنهما من صفات أهل الفسوق والعصيان، كما قال ج: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء)([26]).

اللهم إلا ما كان من نوع لعن الفساق والفجار على طريقة القرآن مثل: {أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: من الآية18] .

ومثل قوله ج: (لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه)([27]) فهذا لا شيء فيه كما ترى .

أما إيواء المحدث: ففيه إثم كبير وشر مستطير، ذلك لأن الحدث إما أن يكون بجناية على الغير، وقد حرم الله دم المسلم وعرضه وماله وأمر بنصرته إن كان مظلومًا بدفع الظلم عنه، وإن كان ظالمًا بردعه عن تعاطي الظلم .

وإما أن يكون الحدث ببدعة في دين الله، سواء فيما يتعلق بالعقيدة أو العبادة أو السلوك، فهذا أشد ضررًا على الأمة إذ إنه لابد أن يكون داعية إلى بدعته بقوله وفعله، وحينئذ يضل بِها أممًا كثيرة من الخلق كما عرفت فيما مضى من هذا البحث عن كثير من أهل البدع كالجهمية والمعتزلة والأشعرية والصوفية وغيرها من بدع الضلال، ولخطر البدع فإنه يجب على طلاب العلم في كل زمان ومكان أن يردوا على أصحابِها بالحجج التي تدحض شبههم، وتزهق

باطلهم، وتظهر ضلالاتِهم للناس لئلا يغتروا بِهم فيقتنعوا بما يملون عليهم من مخالفات وأباطيل .

أما إيواؤهم والدفاع عنهم وانتحال الأعذار لشخصياتِهم فهو نصر للباطل على الحق، وتعاون على الإثم والعدوان، وتمهيد لطرق الفساد والإفساد ولقد اشتهر عن السلف الصالح هجر أهل البدع، والتحذير من موالاتِهم وعدم الركون إليهم.

فجاء عن أيوب السختياني([28]): "ما ازداد صاحب بدعة اجتهادًا إلا ازداد من الله بعدًا".

وقال سفيان الثوري([29]): "من سمع من مبتدع لَم ينفعه الله بما سمع، ومن صافحه فقد نقض الإسلام عروة عروة ".

وقال الفضيل بن عياض([30]): "من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه".

وقال أيضًا: "إذا رأيت مبتدعًا في طريق فخذ في طريق آخر، ولا يرفع لصاحب بدعة إلى الله عز وجل عمل، ومن أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام"([31]).

وقال رجل للإمام مالك: {الرَّحْمَن عَلَى العَرْشِ اسْتَوى} كيف استوى؟ فقال له: "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا مبتدعًا فأمر به أن يخرج"([32]).

(251/1)

إلى غير ذلك من المواقف الصريحة الحازمة التي وقفها ويقفها دائمًا السلف أهل الحديث من أهل البدع والانحراف عن خط الاستقامة على الحق وما ذلك إلا لاعتقاد السلف أن كل صاحب بدعة في دين الله يعتبر محاربًا للسنة متبعًا للهوى، معلنًا للضلالة، ويركض مشدوهًا ليقنع الناس ببدعته ويصدهم عن سنن الهدى، ويلهث جاهدًا في الدعايات المزيفة إلى ما أوقعه الشيطان فيه من شر وضلال، والحقيقة أن أصحاب البدع في كل زمان ومكان فتنة لكل مفتون سواء كانوا من العلماء الفجار أم من العباد الجهال الذين حذرنا منهم سلفنا الصالح حيث قال بعضهم: "احذر فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون".

وقال البعض الآخر: "احذروا صنفين من الناس:

1- صاحب هوى قد فتنه هواه .

2- صاحب دنيا قد أعمته دنياه" .

وما أكثر البدع وأهلها في زماننا هذا والمؤسف أبلغ الأسف وقوعها في العالم الإسلامي الذي

نحيت عنه السنن، وأقرت مكانِها البدع بمكفر ومفسق وإن من أقبح البدع وأخطرها ما كان ويكون في العالم الإسلامي من انتشار الأضرحة ذات القباب المزخرفة والعناية الكاملة بِها في المساجد وغيرها، وما يكون حولها من عكوف وطواف من الحاضر من أهلها والباد، وما يكون من نداءات واستغاثات للأولياء بزعمهم بلهفة وحرقة وقناعة تامة أنَّهم يسمعونَهم، ويطلبون لهم قضاء الحاجات ودفع المكروهات، بل ربما خرج الولي من قبره وصافح بعض مقدسيه والملتجئين إليه –هكذا يزعمون–!!! وقد سمعت بعض مروجي هذه البدعة المنكرة والشرك العظيم يستدل على جواز هذا الصنيع الجاهلي بقول الله تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ}(**[33]**) [الزمر: من الآية**34**] .

(252/1)

يعني أن للأولياء المقبورين في تلك الأضرحة كل ما طلبوا من جلب المصالح ودفع المضار لمن يدعونَهم من دون الله، لعلو منْزلتهم وكمال حياتِهم، وعظيم قداستهم عند الله، كما زعم أولئك الجاهلون، وقد أغرق الناس في بحر هذه الفتنة – الوثنية – الفرق الصوفية على اختلاف طرقهم، وشتى مبادئهم، فالأولياء عندهم يفضلون الأنبياء في الرتب والعلم كما صرح بذلك زعماؤهم الدجالون الذين ضلوا عن سواء السبيل وأصبح معظم الخلائق في العالم الإسلامي ضحية لهم يقودونَهم إلى أبواب جهنم زرافات ووحدانًا .

غير أن الله سبحانه –وله الحمد والمنة– قد رحم هذه المملكة العربية السعودية، وحماها من شر تلك الفرق الصوفية والوثنية المعلنة، وحماها برجال صالحين من قادة هدى وعلماء ربانيين اتفقت كلمتهم جميعًا على نشر كلمة التوحيد الخالدة وبيان عقيدة السلف الصالح، وتحكيم شريعة الله التي أنزلها تطهيرًا للبشرية من رجس الوثنية، ومحاربة للانحرافات وأهلها بسلاح قوي وضاء، مستمد من الوحيين الكريمين: كتاب الله الحق المبين وسنة رسول رب العالمين، وكلما قضت طائفة من طوائف الدعوة إلى الله نحبها تسلمت الراية طائفة أخرى لتقود البشرية في طريق الخير إلى أن تصل بِها إلى بر السلامة والنجاة، مهما كلف الأمر من تضحيات بالنفس والنفيس والغالي والرخيص .

فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وليس معنى هذا أنه لا يوجد في بلدان المسلمين دعاة إلى العقيدة السلفية الحقة، وإخوة علماء ربانيون، بل هم موجودون في كل قطر إسلامي، بل وغير إسلامي، حكمة من الله ورحمة، لئلا يكون للناس على الله حجة

بعد بيان الحق ودعوة الخلق إليه، ولهم تأثير عظيم، ولكنه نسبي ومحدود إذ إن جهادهم الدعوي لَم يحظ بتأييد وتنفيذ من حكومات بلدانِهم وبطاناتِها

(253/1)

–هداهم الله–، بخلاف ما نحن فيه وعليه في هذا البلد الآمن المطمئن من وعي إسلامي، واتفاق كلمة حكامنا وعلمائنا وأفراد مملكتنا السعودية على تحكيم شريعة ربنا، وإحياء سنة نبيه ج، والاعتزاز بتعاليم ديننا في العقيدة والشعائر والمعاملات والأخلاق والسلوك والسياسة والحكم والحرب والسلم.

ولا ندعي الكمال، فالكمال المطلق لله وحده ولا ندعي العصمة لأحد فذلك لمن عصمه الله ونشكر الله على ما هدانا إليه، وثبتنا عليه، ونستلهم منه الرشد في كل ما نأتي ونذر، ونسأله العون على أنفسنا لننصره فيها ونقيم دينه الحق عن رضا وتسليم وقناعة ومحبة واغتباط وتطبيق عملي على مدى هذه الحياة، يرضي الله، ويكون لنا وسيلة نافعة يوم القدوم على الله: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة:105] .

وأكتفي بِهذا القدر في موضوع الكبائر التي خصها بالذكر علماء الشريعة –رحمهم الله–، وليعلم القارئ الكريم أن غير ما ذكرت أكثر، له مؤلفات تكاد تستوعبه إجمالاً وتفصيلاً، فليراجع ذلك من شاء والله, الهادي إلى سواء السبيل .

****

الفصل الرابع

في بيان صغائر الذنوب وما يكفرها من أعمال

وأما الصغائر فهي ما عدا الكبائر، ولعل مصدر هذا التقسيم هو قوله تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا} [النساء:31] .

(254/1)

والمعنى: أن الله وعد أمة القرآن عند تركهم كبائر الذنوب أن يكفر عنهم صغائرها برحمة منه وفضل، ثم بأسباب كثيرة جعلها الله رحمة بعباده المؤمنين وتوسعة عليهم, فقد جاء في نصوص كثيرة أن الطهارة تكفر الخطايا والذنوب، وأن الإتيان إلى المساجد لأداء الفرائض يكفر الله بِها الذنوب، وأن الجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان والعمرة إلى العمرة، ونوافل العبادات والذكر المطلق والمقيد وغير ذلك كثير، مما جعله الله على لسان سوله ج كفارة لذنوب عباده المؤمنين، إذا اجتنبوا الكبائر .

وأما حكم مرتكب الكبيرة فإما أن تكون شركًا أو دونه، فإن كانت شركًا أو دونه وتاب منها قبل غرغرته ودنو أجله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، كما قال عز و جل: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:17] .

أما إن مات ولَم يتب وكانت شركًا أكبر فإن الله لا يغفر أن يشرك به كما قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا} [النساء:116] .

وإن كانت دون الشرك بأن كان من عصاة الموحدين فإن مآله إلى الجنة سواء أصلاه الله العذاب بقدر ذنبه أم تجاوز عنه وعفا، فلم يعذبه بل أدخله الجنة ابتداء فهو واسع المغفرة .

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان بخلاف ما عليه المعتزلة والخوارج الذين يحكمون على مرتكب الكبيرة بالخلود

(255/1)

في النار، وإن كان من أهل التوحيد([34])، وبخلاف ما عليه غلاة المرجئة الذين يدعون أن الإيمان مجرد اعتقاد بالقلب ونطق باللسان، ولا علاقة للعمل به وعلى هذا الأساس قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وهو مذهب رديء يصادم نصوص الكتاب والسنة كما علمت من مذهب أهل السنة والجماعة .

وختامًا: فإنه يطيب لي أن أختم هذا الباب بما قال الرب –تبارك وتعالى– في صفوة ملائكته: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ –7, رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ –8, وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

[غافر:7 – 9] .

****

الخاتمة

لا أستطيع أن أسجل في هذه الخاتمة شيئًا جديدًا، وإنما أحب أن أدون فيها رءوس أقلام لحقائق مهمة تضمنها هذا البحث وركز عليها فيه إيضاحًا وتفصيلاً واستدلالاً وهي:

-- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية تبناها صفوة الله من خلقه وهم الرسل وأتباعهم عبر تاريخ هذه الحياة منذ بزوغ فجرها إلى أن ختمت الرسالات السماوية بأكرم نبي وخير رسول محمد ج .

-- الدعوة الإسلامية فريضة مقدسة، وضرورة شرعية، وواجب عظيم، وجهاد في سبيل الله يقوم بِها مع الأنبياء وبعدهم ورثتهم من حملة العلم النافع والعمل الصالح والجهاد في سبيل الله في كل زمان ومكان وفي كل بادية ومصر وهي فرض كفاية .

(256/1)

-- للدعاة إلى الله صفاتُهم الحميدة، وخصائصهم الفريدة التي يمتازون بِها عن غيرهم لعظيم شأن وظيفتهم وضخامة مسئولياتِهم التي حملوها .

-- للدعوة إلى الله أعداؤها، إمامهم في العداوة الشيطان، الذي

قال للإنسان: {اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر:16].

-- لحزب الله مزايا رفيعة، وسجايا نبيلة، ذكرت في هذا البحث كثيرًا منها بالشرح والتفصيل، فاحرص على استيعاب ذلك ثم احرص على أن تكون من القوم ومعهم علمًا وعقيدة وعملاً وقلبًا وقالبًا، والله ينصرك ويرعاك ويحفظك طول حياتك ويتولاك .

-- من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه بعد أن تحدى عصابات الشر والفساد والطغيان، ومنهم من عاش حياته منتصرًا على أئمة الكفر والفسق والعصيان، ومنهم من وقف حياته ونذر نفسه كلها للدعوة إلى الله، والجهاد الدائب في سبيله، يرجو من وراء ذلك نيل الرضا من الرحيم الرحمن، والعيش الهني في رحاب الكريم المنان.

فعليك أيها القارئ الكريم: أن تلزم نفسك بما ألزم القوم به أنفسهم، وتحذو في صالح

الأعمال حذوهم، فإنك إن فعلت ذلك فسوف تشاركهم في أنسهم ونعيمهم، وتخلد معهم في مستقرهم ومقيلهم: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً} [الفرقان:24] .

-- تدل النصوص الصريحة على أن طائفة من المؤمنين ستظل ثابتة على الحق ظاهرة على غيرها حتى يأتي أمر الله –تبارك وتعالى– وهم كذلك، فحاول بجد واعزم بصدق أن تكون فردًا صالحًا من أفراد تلك الطائفة .

-- ستقف أيها القارئ الكريم في خلال هذا البحث على مناقشة مني لبعض العلماء المعاصرين حول ما يسمى بزمالة الأديان وتسامح الإسلام معها فعليك بالتأمل فيما كتبته، ثم بادر بضم صوتك إلى صوت الحق، فالحق أحق أن يتبع، والباطل أحق أن يتقى ويجتنب .

(257/1)

-- وصفت الجنة في الكتاب والسنة بما لا مزيد عليه من أوصاف الحسن والبهجة والسرور واللذة والحبور، وذلك تشويقًا للنفوس المطمئنة لترغب دائمًا في الأجر العظيم والملك الكبير في دار الكمال والبقاء والجمال فاسأل ربك أيها المسلم أن لا تحرم خير ما عنده من الفضل والإحسان بشر ما كسبت يداك من التقصير والتفريط والعصيان .

-- كما وصفت النار بأوصاف مخيفة في الكتاب والسنة ليأخذ العبد حذره ويتخذ لنفسه الضعيفة وقاية بصالح العمل، لئلا يكون وقودًا لنار جهنم فيكون من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك هو الخسران المبين .

-- فذكر هاذم اللذات ومفرق الجماعات – الموت – عظة بليغة وذكرى نافعة، فأكثر من ذكره، فإنه لا يذكر في قليل إلا كثره، ولا كثير إلا قلَّله ومن ذكر الموت والبلى، فقد استحيا من الله حق الحياء .

-- داوم على قراءة حديث البراء بن عازب في عذاب القبر ونعيمه وتأمل ما اشتمل عليه لعلك تعد للسؤال جوابًا وتحسب لتلك الفتنة حسابًا.

-- تفكر وأنت على فراش نومك، أو في غمرة دنياك وقوف الناس في عرصات القيامة، وهم حفاة عراة غرل، قد طال بِهم الانتظار، وصهرتُهم الشمس لدنوها من رءوسهم، وألجمهم العرق، ثم خذ العبرة من صورة ذلك المشهد فلعلك تندفع إلى الحرص على فعل أسباب الخلاص والنجاة من هول ذلك اليوم الطويل، والحساب العسير .

-- ثم امض في التأمل والتفكر في مشاهد من ورائك معرجًا في مشهد محاسبة الله للخلائق برها وفاجرها، مؤمنها وكافرها، ثم على مشهد القنطرة الذي يتم فيه القصاص بين الخلائق في

مظالم كانت بينهم، فإنك إن فعلت ذلك اشتد خوفك فكثر إحسانك وخيرك، وقلت إساءتك وشرك، وعظم استعدادك للخروج من تلك الكروب والشدائد التي ستكون يوم حشرك ونشرك .

(258/1)

-- ولعل خائفًا مشفقًا من ذلك يلتمس أسباب المخرج، فأقول له: راجع بتأمل صفحات هذا البحث فلقد وفقني الله – وله الفضل والمنة – لإملاء كثير من أسباب المخرج والنجاة من شدائد يوم القيامة وعظيم أهواله والفوز بجنته، والنيل لرضاه وولايته .

-- إن المحافظة على سنن الهدى فيها السعادة في الآخرة والأولى، وإن الانحراف عنها سبب في الهلاك والشقاء والردى، فاستمسك بِها وعض عليها بنواجذك، واستقم عليها بقلبك وجوارحك، وإياك والبدع فما ابتدع أحد في شرع الله إلا مريض قد أعماه شيطانه وهواه، وكان أمره فرطًا .

-- إن الناظر في كتاب ربه عز و جل، وسنة نبيه ج يجد أن أسباب العذاب الدنيوي والخزي الأخروي والعقوبات العاجلة والآجلة هي المعاصي وإذا كان الأمر كذلك فينبغي للعقلاء أن يسعوا في إسعاد أنفسهم، وفكاكها من النار، وذلك بفعل الطاعات وهجر المعاصي كبائرها وصغارها باطنها وظاهرها.

وهذا آخر ما منَّ الله عليَّ بتدوينه في هذا البحث الذي أرجو من الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم والحمد لله أولاً وآخرًا وباطنًا وظاهرًا .

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ –180, وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ –181, وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات:180 – 182].

****

([1]) هذا الحديث في سنده ضعف بسبب رميح الجذامي الذي قال فيه ابن حجر: إنه مجهول، غير أن له شواهد تعضده وهو مع ذلك متفق مع أصول الشريعة وجميع معانيه صحيحة ومعقولة، والعلم عند الله.

([2]) رواه أحمد (ج5/ص277 و ص288).

([3]) ورواه ابن ماجه (ج2) في كتاب الفتن (باب 22/ ص334) بإسناد حسن .

([4]) ثوبان مولى رسول الله ج صحابي مشهور يقال: إنه من العرب. ويقال: إنه من السراة اشتراه الرسول ج ثم اعتقه فخدمه إلى أن مات، ثم تحول إلى الرملة، ثم إلى حِمص ومات بِها سنة (54) قاله ابن سعد وغيره، الإصابة (ج1/ص204).

])

(259/1)

5]) رواه ابن ماجه (ج2) في كتاب الفتن (باب 22/ص1333).

([6]) رواه مالك في الموطأ كتاب الجهاد باب (13)، وابن ماجه في كتاب الفتن (باب 22/ج1).

([7]) رواه أبو داود (ج7) في كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح (رقم 4909/ص234) عن ابن عمر، والإمام أحمد في المسند (ج2/ص52) عن ابن عمر، وابن ماجه في كتاب الدعاء باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى (رقم 3871/ص1273) عن ابن عمر والحاكم في المستدرك (ج1/ص517) عن ابن عمر .

([8]) رواه البخاري بِهذا اللفظ عن أبي هريرة (ج3/باب 23/ص195). ومسلم (ج2) في كتاب الإيْمان باب أكبر الكبائر، في كتاب الوصايا (ص82) عن أبي هريرة، وأبو داود (ج4) في كتاب الوصايا التشديد في أكل مال اليتيم (ص153/رقم 2754).

([9]) انظر تفسير القرطبي –رحمه الله– (ج5/ص160).

([10]) إشارة إلى ما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه انظر (ج11/ص26) النووي .

([11]) رواه النسائي (ج8) في كتاب الأشربة (ص315) عن عثمان .

([12]) رواه الإمام أحمد في مسنده (ج2/ص97) عن ابن عمر. ورواه أبو داود (ج5) في كتاب الأشربة (ص206) وإسناده صحيح .

([13]) البخاري (ج4) في كتاب فضائل الصحابة (باب1/ص189) وكذا أخرجه في (ج7) في كتاب الرقاق (باب7/ص163) عن عمران، إلا أنه قال: (خيركم قرني ....). ومسلم (ج16) في كتاب فضائل الصحابة (ص87–88) عن عمران بن حصين، وأبو داود (ج7) في كتاب السنة باب فضل أصحاب رسول الله (ص120) عن عمران حديث (4492).

([14]) عمران بن حصين الخزاعي الأزدي: كنيته أبو نجيد، من عباد الصحابة مات سنة اثنتين وخمسين – برية. مشاهير علماء الأمصار (ص37).

([15]) والترمذي (ج5) في كتاب المناقب باب ما جاء في فضل من رأى النبي وصحبه رقم الحديث (3859) عن عبد الله بن مسعود (ص695).

])

(260/1)

16]) رواه البخاري (ج4) في كتاب فضائل أصحاب النبي ج (باب5/ص195). ورواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (ج16/ص190) النووي، وأبو داود (ج7) في كتاب السنة (باب10/ص34/رقم 4493)، والترمذي (ج5) في كتاب المناقب (باب58/ص696/ رقم 3851).

([17]) انظر تفسير القرطبي (ج16/ص296).

([18]) عمر بن حبيب: إن كان المكي القاص الذي سكن اليمن وروى عن عمرو بن دينار وعطاء والزهري فهو ثقة وثقه أحمد وابن معين وابن حبان وغيرهم، وإن كان عمر بن حبيب بن محمد بن مجالد الذي ولي قضاء البصرة ثم الشرقية للمأمون فقد وثقه بعضهم وضعفه الأكثرون بسبب أنه ليس من فرسان علم الحديث، والله أعلم. تَهذيب التهذيب (ج7/ص431، 432).

([19]) هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور: ولد بالري سنة (145')، تولى الخلافة يوم مات المهدي عام (170') وعمره خمسة وعشرون عامًا، وظل خليفة إلى أن مات في جمادى الآخرة عام (193').

([20]) تفسير القرطبي (ج16/ص299).

([21]) انظر تيسير الكريم الرحمن (ج2 من 639) وقاله طاوس وعطاء .

([22]) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمينه الفاجرة بالنار (ج2 ص158). ورواه أبو داود (ج4) في كتاب الإيمان والنذور، باب التغليظ في اليمين الفاجرة (رقم 3112 ص254) .

([23]) سبق تخريجه .

([24]) رواه النسائي (ج7) باب من ذبح لغير الله (ص232)، ورواه مسلم بشرح النووي (ج13) باب تحريم الذبح لغير الله ولعن فاعله (ص141)، ورواه الإمام أحمد انظر الفتح الرباني (ج17 ص150) .

([25]) رواه أحمد في مسنده انظر الفتح الرباني لترتيب المسند (ج19 ص216) .

([26]) الحديث صحيح عن ابن مسعود: انظر صحيح الجامع الصغير (ج5 ص89) .
([27]) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله (ج/11) بشرح النووي باب الربا (ص26) .
])

(261/1)

28]) هو أيوب بن أبي تَميمة: كنيته أبو بكر، كان مولده (68 ’)، وكان من عُبّاد أتباع التابعين, اشتهر بالفضل والعلم, وإحياء السنة وقمع البدعة, مات سنة إحدى وثلاثين ومائة من الهجرة وله ثلاث وستون سنة. كما في مشاهير علماء الأمصار (ص150) .
([29]) هو شيخ الإسلام, وسيد الحفاظ أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري: من أعلام السنة، ولد سنة (97 ’) وتوفي سنة (151 ’)، التذكرة (ج1 ص203) .
([30]) هو فضيل بن عياض بن منصور: ولد بسمرقند، ونشأ بالكوفة، وبِها كتب الحديث ثم انتقل إلى مكة، فجاور البيت العتيق مع لزوم الورع الشديد والجهد الجهيد وداوم الخوف إلى أن مات بِها سنة (187 ’) كما في مشاهير علماء الأمصار (ص149).
([31]) انظر لأثر أيوب السختياني وسفيان الثوري والفضيل بن عياض. "تلبيس إبليس" ابن الجوزي (ص13، 14) .
([32]) انظر الأسماء والصفات للبيهقي (ص292) المطبعة الهندية .
([33]) والمعنى الحق للآية الكريمة هو: أنَّها إخبار من الله عن الجزاء الحسن الذي أعده لأهل الجنة للذين آمنوا به وعملوا الصالحات وبيان أنَّهم لا يستوون هم ومن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي عند الله .
([34]) وهو مذهب سيئ يتنافى مع سعة رحمة الله, ويتنافى تَمامًا مع نصوص الشريعة وأصول العقيدة .

(262/1)